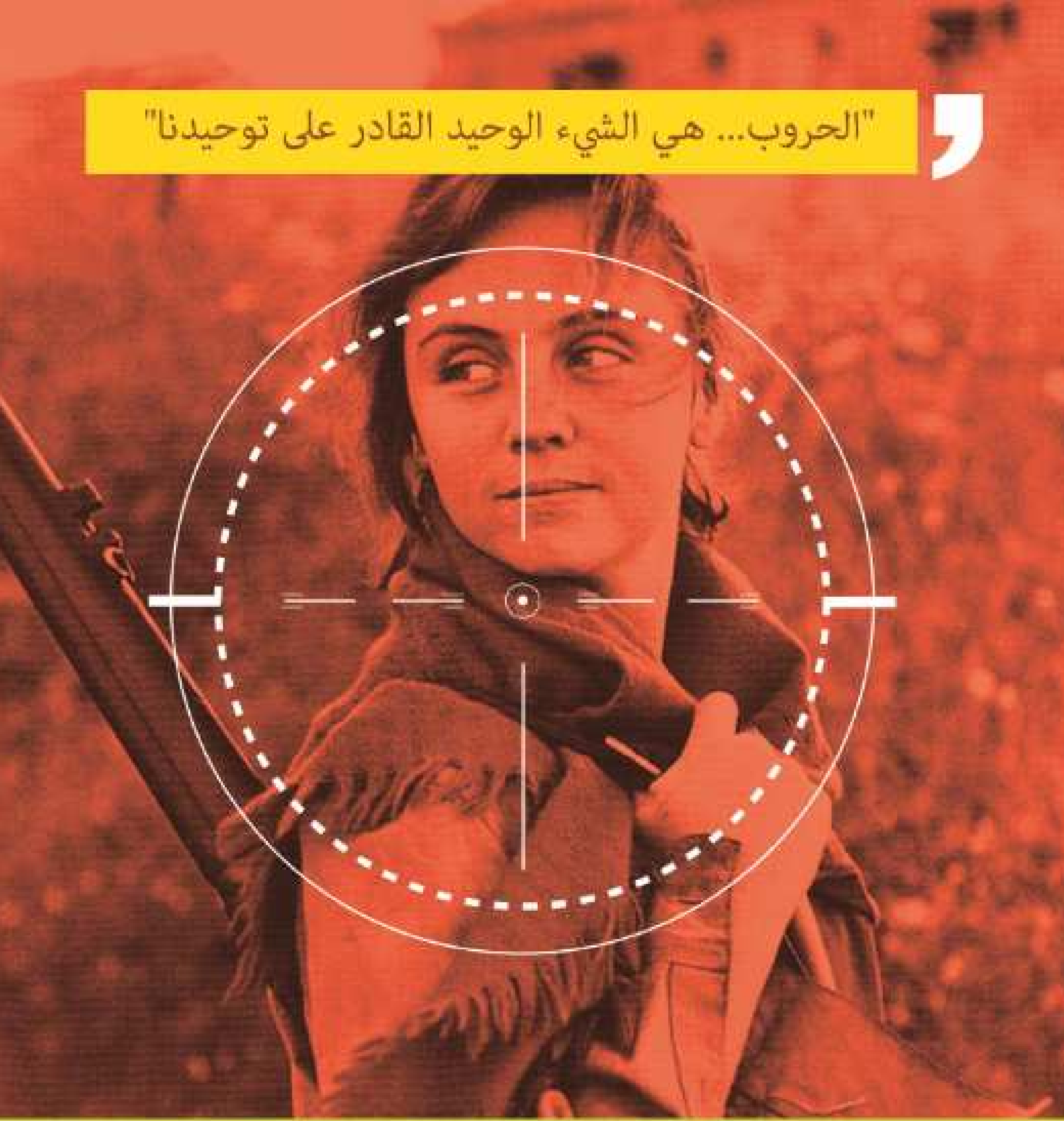

"الحروب... هي الشيء الوحيد القادر على توحيدنا"

# القنّاص

بلايز مينيفسكي

ترجمة: ريم داوود

# القنَّاص

**القنَّاص**

تأليف: بلايز مينيفسكي

ترجمة: ريم داوود

الطبعة الأولى: 2016

رقم الإيداع: 16837/2016

الترقيم الدولي: 9789773193034

الغلاف: آلاء هيكل

تحرير: هدى فضل

**© جميع الحقوق محفوظة للناشر**

60 شارع القصرالعيني – 11451 - القاهرة

ت 27921943 – 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

**Нишан by Блаже Миневски**

**Copyright © Blaze Minevski**

**Copyright © Bata Press**

**Arabic edition published by agreement with Bata Press**

Република Македонија
МИНИСТЕРСТВО ЗА КУЛТУРА

**This translation is published with financial support from the Ministry of Culture of the Republic of Macedonia".**

# بلايز مينيفسكي

# القنّــــــــاص

رواية من مقدونيا

ترجمة: ريم داوود

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة
المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب

This book has been translated with the assistance
of the Sharjah International Book Fair Translation
Grant Fund

**بطاقة فهرسة**

مينيفسكي، بلايز

القنَّاص: رواية من الأدب المقدوني/ تأليف بلايز مينيفسكي، ترجمة ريم داوود.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2016،

ص؛ سم.

تدمك 9789773193032

1- القصص المقدونية

أ- داوود، ريم (مترجم)

ب- العنوان 891.8193

"تركتُ لكِ علامة يا ديسبينا،
لكي لا تنسينني أبدًا
مرَّتْ ثلاثة أعوام،
ونسيتني...

**أغنية فلكلورية مقدونيَّة**

# 1

تقف الشمس أعلى القلعة المتهدمة، بينما أدير بندقيتي القنَّاصة عبر النهر. وهناك أراها؛ هي أيضًا تسدّد نظرها نحوي، تراقبني من قبل أن أكتشف وجودها. أفكر بأنه كان بإمكانها أن تقتلني متى شاءت. أتنفس بصعوبة بين الحشائش التي ترتفع أمامي، كمياه عكرة ثقيلة. تنطلق في قلبي خفقة قوية داخل قميصي المموّه، كجرادة تثب وثبة عالية.

تراقبني بدورها. عيناها الكبيرتان في زرقة السماء فوقي، أراها عبر العدسة بوضوح تام، حتى أنني أستطيع رؤية الدمع المتجمّع في زاوية جفنها. أدرك حينها أنها تراقبني بعينين مفتوحتين، دون أن تغمضهما مرّة.

حين أحدّد هدفي بالضبط، أغمض عيني اليسرى. تُبقي هي عينها مفتوحة، رغم أنها لا تستطيع رؤيتي بها. إنها بعيدةُ جدًّا. ألمح شعرها الأشقر الذي يتساقط حولها كحقول من الزهور الربيعية الصفراء.. لا أستطيع تحديد أين تبدأ هذه الحقول وأين تنتهي.

– كان بإمكانك أن تقتليني قبل أن أجدك هنا وسط زهور الربيع.

أكرّر:

- زهور الربيع.

تغمضين عينكِ وتفتحينها سريعًا، كما لو كنتِ تصدّقين على كلامي. كأنكِ كنتِ تقرأين شفاهي.

أخبركِ:

- أنا ألمح إصبعكِ على الزناد. نفس وضعية إصبعي. أنا متأكّد أن بإمكانك أن تطلقي الرصاص عليّ، بنفس السهولة التي يمكنني فيها إطلاق رصاصتي عليكِ. أعرف أنه بإمكانك رؤيتي كما لو كنت أقف أمامكِ مباشرَة، تحت أشعة الشمس اللامعة، الهائمة على بقايا القلعة. الزمن يمرّ عبر أعيننا كشيء غريب.. غير مألوف.. كالماضي.

أعيدها عليكِ ثانيَة:

- الماضي.

تبتسمين بنوعٍ من التحدّي. تستخفين باختياري لكلماتي. أتحدّث بصوتٍ هامس بالطبع؛ دون صوت ربما. أفتح فمي فقط. أراقب الرعشة الخفيفة في الجانب الأيسر من شفتيكِ، كأنكِ تفهمين. كأنكِ تشعرين بالأسى حيالي.

أقول، بينما لا تزالين تنظرين إليّ عبر عدسة بندقيتك:

- سوف أطلق عليكِ اسم "دورنتينا".

يمكنك فهم ما أقول عن طريق حركة شَفَتَيْ. شعركِ يفيض بالزهور الصفراء، كأنها تنبت منكِ ومن حولك، حتى في الهواء المحيط بك. أكرّر مرة أخرى، بصوت أعلى قليلًا هذه المرة، وأنا أضغط على الحروف ببطء:

- سوف أطلق عليكِ اسم "دورنتينا".

تبتسمين وتغمضين عينكِ اليسرى، وتفتحينها على الفور. هذا يعني موافقتك. أقول:

- أنتِ موافقة!

أسمع خرير الجدول القريب الذي ينبع من داخل القلعة. سوف يمرّ بكِ في طريقه للنهر الفاصل بيننا. أنصت إلى صوت الماء الهادئ، كما لو أنني في حلم، وأتحوّل إلى قاصّ للحكايات، فالحياة – كما أخبركِ – هي في الأصل قصة يتم سردها.

أظلّ أكرّر:

- قصّة.. قصّة.

أرى أنكِ تتابعينني. تقرأين شَفَتَي. وهناك تلك الابتسامة ثانيَة، بينما لا يزال إصبعك على الزناد، في استعدادٍ تامّ.

- كم يمرّ الزمن سريعًا يا "دورنتينا"!

أضيف:

- الزمن! ومع ذلك، لا شيء يتغيّر. إن نزلتُ باتجاه الجدول لأصل إليكِ، فستلقي جماعتكِ القبض عليّ. وإن أتيتِ أنتِ إليّ عبر الجدول المارّ بقربك، فستلقي جماعتي القبض عليكِ.

تكررين إغماض عينكِ وفتحها، ما يعني تأييدك لي فيما قلته.

أنتِ تعرفين كل شيء بالفعل يا "دورنتينا". النهر يعبر من تحتنا دون توقف. النهر ذاته الذي حملها بعيدًا ذات مرّة، في هدوء بالغ، كما لو كانت سرًّا؛ وحين التفتُّ لم أرَ سوى قبَّعتها وهي تتقافز على الأمواج وتطلق ضحكاتها المتوالية. كانت القبعة تضحك، بينما ظلّ النهر مستمرًا في جريانه دون توقف، كما يفعل الآن.

أراقب ابتسامتكِ الحزينة، وأنا أدعوكِ لزيارة النهر عقب حلول الليل.

أقول لكِ:

- النهر.

لكنني أشعر بغتّةً بركلة قوية في كعب حذائي، وبطرف عيني اليسرى ألمح شخصًا ينبطح على الأرض بجواري. لا بدّ أنكِ ترينه الآن يا "دورنتينا". انظري! أتعرَّف على نظارتِه المعظمة وأنفه المعقوف. إنه "هوت هيد هوك"!

يسألني بغلظة:

- ماذا تنتظر؟! أطلق النار!

# 2

أقول بأنني سأناديكِ بـ"دورنتينا". ترمشين بعينكِ اليسرى. من الواضح أنكِ أحببتِ الاسم. كنت أعرف أنه سيعجبكِ. "ستيف ليبتوف" أستاذ الكتابة الإبداعية في "ورشة عمل الكتّاب الدوليين" في ولاية آيوا الأمريكية، قصّ علينا بإعجاب أسطورة "دورنتينا"، وقال واصفـًا إيّاها أنها أجمل حكاية سمعها في حياته عن القوّة العاصفة للحبّ؛ ولهذا كان يطلب بإلحاح بالغ من زميلنا الشاعر "فاتوس ديدلي"، القادم من مدينة "كروجا" الألبانية، بألّا ينظم قصائد جديدة، وأن يكتفي بتأليف تنويعات جديدة على هذه الأسطورة.

أنتِ تعلمين بأنه كان لها تسعة إخوة. وأن التسعة كانوا أبطالًا. حين بلغت سن الزواج، تقدّم لها رجل غنيّ تفصله عن مدينتها تسع مقابر، تقع وراء تسعة جبال. رفضت الأم وثمانية من أشقائها السماح لها بالسفر إلى تلك الأرض البعيدة؛ لكن أصغر الإخوة – ويدعى "كونستانتين" – أبدى موافقته، واعدًا الأم بأن يقطع المقابر التسع، خلف الجبال التسعة، ليحضر شقيقته في أيّ وقت تشتاق فيه لرؤيتها واحتضانها.

عيناكِ ترمشان. أرى ذلك بوضوح. الهواء الدافئ يلف رقبتك.

مرّت الأعوام، وكما تعرفين، حلّت عليهم اللعنة. لكن الحكاية لا تذكر إن كانت تلك اللعنة هي الطاعون أم الحمَّى الصفراء، وتؤكد فقط أن الأشقاء ماتوا جميعًا، الواحد تلو الآخر؛ وأن الأم فقدت بصرها، وأنها ظلت تصلّي وتدعو بحرارة أن يفي "كونستانتين" بوعده ويحضر لها "دورنتينا" لتلمسها وتحضنها.

وهكذا ظلت الأم لأيام عديدة تصلي وتتضرع بالآيات والدموع، ولكن، دون جدوى، اختفى "كونستانتين".

بعد زمنٍ ليس بقصير، سمع الإبن الأصغر في أحد الأيام تضرعات والدته، فقام من قبره على الفور، واستحال كفنه فرسًا. اعتلى فرسه، وبدأ رحلته قاطعًا تلك المقابر ليحضر أخته إلى البيت. حين تخطى الجبال التسعة، وجدها وحيدة في بحر من الزهور الصفراء، وشعرها الذهبي متناثر على الحشائش حولها، كوشاح طويل من الذهب اللامع. أوقف فرسه أمامها، وأركبها خلفه، وانطلق راجعًا بها إلى بيتهم.

أظن أنني ألمح دمعة في زرقة السماء، تنزلق من عينكِ، لتسقط على حقول الزهور الربيعية.

حين وصلا أخيرًا إلى مشارف القرية، رآهما شيخ كبير ولم يصدّق عينيه. قال لنفسه في دهشة:

- إني أرى فرسًا يمتطيه شخصٌ حيّ وآخرٌ ميّت!

ظل واقفًا في مكانه، بفمٍ فاغرٍ، فيما وصل "كونستانتين" و"دورنتينا" إلى ساحة المنزل. مسّد خصلات شعرها برفق، طالبًا منها الصعود إلى الطابق

العلوي، ريثما يربط فرسه في الفناء الخلفي، قبل أن يلحق بها. لم تلحظ "دورنتينا" أن شقيقها قد خرج من بوابة البيت مسرعًا، عائدًا إلى قبره الفارغ.

أكرر عليكِ:

- قبره الفارغ.

أضيف:

- حين يصل الشاعر "فاتوس ديدلـّـي" إلى هذا الجزء من الحكاية، يتحشرج صوته الهادئ، فيما يفرك البروفيسور "ستيف ليبتوف" كفيه في حماس، منتظرًا النهاية.

وهكذا تمضي الحكاية على النحو التالي، كما يقرأها "ديدلـّـي" في فصل الكتابة الإبداعية في آيوا:

حين تدخل "دورنتينا" إلى الحجرة العلوية، تجد أمها جالسة بجوار النافذة، دون أن تلاحظ أنها فقدت بصرها. تسأل العجوز:

-من هنا؟!

قالت الفتاة وهي تركع بجانبها:

- أنا "دورنتينا".

- لا تكذبي عليّ. ربما كنتِ الطاعون الذي حرمني من جميع أولادي. هل أتيتِ الآن لتأخذينني أخيرًا أنا أيضًا؟

- أنا "دورنتينا" يا أمي.. ابنتكِ.

أراحت رأسها على ركبتيّ أمها، فتساقط شعرها الذهبي على الأرض وامتدّ في أرجاء الغرفة كنبع من الماء الذهبي. سألتها الأم:

- من أحضركِ إلى هنا؟

- "كونستانتين".

قالت الأم وهي ترتجف:

- مات "كونستانتين" منذ زمن.

صمتت بعدها، وظلت تمسِّد شعر "دورنتينا"، إلى أن ذابت كقطعة ثلج داخل تلك الخصلات الغزيرة.

حين سمعنا ذلك، رحنا كلنا ننفخ في أصابعنا، كأنما تجمدت من البرد.

بدا جليًا أن البروفيسور "ليبتوف" أُعجب بالنسخة الجديدة التي ابتكرها "ديدلِّي" للحكاية، وإلا لأشاح بيده – كما اعتاد دائمًا – كما لو كان يهُشُّ ذبابة مزعجة؛ أو لألقى بقطعة طبشور في سلة المهملات.

كان سعيدًا بالقصة. أعجبتني أنا أيضًا، بالطبع، ولهذا سوف أطلق عليك "دورنتينا". هذا هو سبب اختياري للإسم.

وحين أراكِ هكذا، أكبر من حجمكِ الحقيقي بثمان مرات، لا أجد اسمًا يليق بكِ أكثر منه. تستحقين أكثر الأسماء جمالًا. اسمٌ خالدٌ، فالأساطير لا تموت. لولا "ديدلِّي" لما عرفت هذا الإسم فائق العذوبة. كان يمقت العبارات الطويلة والأوصاف المعقدة. غادر "آيوا" قبلي بثلاثة أشهر، وحين عدت إلى بلدي بلغني أنه قُتِل في حركة تمرد قامت بها المعارضة في مدينة "ساراندا". لكنني سمعت بعد ذلك بأنه على قيد الحياة، وأنه يعيش بذراع مبتورة. لا أعرف حقيقة الأمر

يا "دورنتينا". كل ما أعرفه هو أنني حلمت بك مرات كثيرة، بنفس هذه الخصلات الذهبية التي دأب على وصفها في أشعاره.

قصائده الشفافة، ككأس من الزجاج الرقيق، تلتصق على حافته شفتان بالغتا النعومة، حمراوان كقلب بطيخة رطبة.

ملاكٌ بعلامة صغيرة فوق الجانب الأيسر من فمه.. مثلكِ تمامًا يا "دورنتينا".

لو علم "هوت هيد هوك" بأنني وجدتك، وأنني أنظر إليك متمعنًا، دون أن أطلق عليك رصاصتي، لقام بإعدامي على الفور، هناك، خلف المذبح، بجوار الشبّاك. ثم لرسم بدمي المتناثر على الحائط، شكل وردة. بعدها سيضع قدمه فوق جثتي، طالبًا من "أوتو المغرّد" أن يطلق بضع نغمات سريعة من بوقه، تكريمًا لرحيلي.

لكنه الآن يشعر بغضب عارم بسبب وفاة "إيكو لاودماوث"، أحد أهم المتطوعين لدينا، والذي يُعدُّ نائبًا له على نحو ما. لقد تُوفي قبل وصولي إلى هنا هذا الصباح. كان قد ذهب ليقضي حاجته – واعذريني على صراحتي – وراء سور المقبرة، دون أن يدري بأن هذا الجزء من السور ينتهي بانحدار نحو حفرة، يجعله هدفًا مكشوفًا لمن يقف في القلعة، على الجانب الآخر من النهر. ظل في مكانه ممسكًا بوثيقة كنت قد أعطيتها له قبلها بلحظات فقط. كان يقبض عليها بين أصابعه كأنه مستمتع بقراءتها. حين أخرجوه من الحفرة، اكتشفوا بأن الرصاصة قد أُطلقت عليه داخل فمه. في تلك اللحظة، كنت أنا أخرج من باب الكنيسة. حين أغلقت بابها خلفي، أومأ الكابتن "هوت هيد هوك" تجاه المقبرة، ثم قفز في الخندق مطأطئًا رأسه، مزيحًا بقدمه قطع الطين المتحجر. سار أمامي بسرعة وخفة، قد لامس كتفاه الطين المتشقق على جانبيّ الخندق. لم يخبرني إلى أين نتجه، ولا سبب العجلة التي نحن عليها. راح يتمتم باللعنات، وهو يزفر في ضيق، ثم التفت نحوي معلنًا بأنه يتوجب عليّ أنا أن أنهي المهمة. وحين وصلنا إلى هنا، استلقيت خلف هذه الأشواك، كما ترين.

أنصتّ إليه وهو يخبرني بأنه ينبغي عليّ أن أقتل القنَّاص الذي قضى خلال ثلاثة أيام على عشرة من رجالنا، بمن فيهم "إيكو لاودماوث". "إما أنت أو هو". هكذا قال قبل أن يزحف على بطنه داخل النفق، متجهًا إلى مكان لا أعرفه تحديدًا. ربما الكنيسة، لا أدري.

والآن، ماذا يسعني أن أقول لكِ يا "دورنتينا"؟

حين وجدتكِ داخل هذه الحقول المترامية من الزهور الصفراء، وجدتُ حياتي.

حياتي، وليس مماتي. رغم ما يبدو على هذه الجملة من سخف وابتذال.

أقصد أنني قبل أن يتم إحضاري إلى هنا، إلى دائرة الحرب هذه، كان الأسوأ قد حدث بالفعل. مأساة كبرى قضت على عملي وحياتي، إن كان بإمكاننا أن نطلق عليها "حياة". روايتي الأولى والوحيدة، التي نشرتها عقب رجوعي من "آيوا"، والتي لاقت ترحيبًا هائلًا ووُصفت بـ"التحفة الأدبية"، وتمت ترجمتها على الفور إلى جميع لغات الدول المجاورة. سرعان ما انهارت. اختفت معي يا "دورنتينا". كل ما تبقى هو اسمي المطبوع بحروفٍ حمراء.

لاحقًا، إن وجدت فائضًا من الوقت، سوف أخبركِ بتفاصيل ما حدث. أي مصيرٍ انتهيتُ إليه. ألمح ابتسامتكِ. أرى أنكِ تقرأين شفتيّ وتفهمين ما أقول. أرى بندقيتك القوية وسط حقولك الصفراء، تلمع بين أناملكِ الجميلة، تتكىء في هدوء على ذراعك، رقيقة، رشيقة كزهرة "جلاديولا"؛ وأدرك جيدًا أنها رغم رقتها يمكن أن تنهي حياة ضحيتك، الذي يقف على بعد ميل كامل منك، في ثانية واحدة. الضحية الذي يجهل أنك تنظرين إليه كما لو كان صورة فوتوغرافية في كتاب.

بندقيتك رائعة يا "دورنتينا". أرى ذلك. بل أنا متأكد من ذلك. متيقن من أنها "هيكلر آند كوتس، سي جي 1". آلة قتل ممتازة. تضغطين على الزناد بمنتهى الخفة، فتنطلق الرصاصة التي تعرف طريقها جيدًا.

لكنك لا تضغطين على الزناد.

لا زلتِ لا تضغطين عليه.

لا تضغطين عليه أبدًا.

لماذا يا "دورنتينا"؟! ماذا تنتظرين؟!

أفتح عيني اليسرى للحظة، فأراكِ تغمضين عينك وتفتحينها بضع مرات. أتابعكِ وأنتِ تتنهدين. زفرتكِ تحرك بتلات الزهور الصفراء، فترتعش كما لو كانت تتعرّض لقطرات المطر. خصلاتك الذهبية تهتز قليلاً كما لو كانت فراشات تحرك أجنحتها في حماس، وهي تشرع في الطيران.

ألمح وراءكِ، على شمال القلعة، منارة المسجد التي تعلوها بقايا كنيسة "القديس جورج". أسمع في هذه اللحظة – مثلكِ تمامًا – صوت المؤذن مناديًا للصلاة كل من لا يجلس متربصًا داخل خندق.

إنه الإمام.

أكرر لكِ:

– الإمام .

يطلق نداءه، على الأرجح، مستخدمًا الميكروفون.

اليوم الجمعة، ونحن في فترة الظهيرة على الأغلب. أظن أن معظم من لا يختبئون في الخنادق سيسارعون إلى دخول المسجد، ويصطفون في مواجهة الحائط الأمامي باتجاه القبلة. سيتمتمون قليلًا وهم يرفعون أكفهم المفتوحة بمحاذاة آذانهم، ثم سيهمسون معًا "الله أكبر". سيتلون شيئًا من القرآن، ثم سيركعون ويسجدون.

الله أكبر. لكن الحياة هي كل ما نملك. فقدانها هو الخسارة الأعظم لأي إنسان. عداي أنا بالطبع.

أرادنا البروفيسور "ستيف ليبتوف" في ورشة عمل الكتّاب الدوليين بآيوا، أن ندرس جميع الأديان، من أجل كتابة قصة قصيرة عن الجنة والنار.

أقرّ بمنتهى الصدق، بأنني أحب جنتكِ. حديقتكِ التي ترويها عدّة أنهار؛ مثل هذا النهر الذي يمكننا رؤيته وهو يجري تحتنا، لكننا لا نستطيع فعل ذلك بالطبع، لأنه لا ينبغي لنا أن نتوقف عن متابعة أحدنا الآخر ولو للحظة.

جداولنا يا "دورنتينا" تصبّ في النهر ذاته، والأرض حولنا تثمر فاكهة وتنبت أزهارًا، كما في الجنة بالضبط.

هل هذه هي الجنة التي يحلم بها ذوو اللحى الطويلة، الذين يذهبون لملاقاة الموت بقناصينا وطائراتنا الحربية وبسلاح المدفعية، وهم في غاية السعادة؟

تحت الأشجار الظليلة في الجنة، يشرب الناس الخمر التي كانت محرّمة عليهم وهم في الأرض. خمر لا تُسكِر. يشربونها في كؤوس يقدمها لهم فتية يتمتعون بالوسامة، بينما تخدمهم حوريات يافعات بأعين سوداء جذابة، يعملن على تلبية كل ما يرغبون فيه من متع.

أكرر ثانية:

- متع.

ألمحك تبتسمين، بينما يتطاير شعرك على كتفيك، مع النسيم الذي يداعب جسدك الممشوق.

أفتح عيني اليسرى مرة أخرى. ولوهلة، أدرك كم أنت بعيدة حين أراكِ بإحدى عينيّ، وكم تكونين قريبة حين أنظر إليكِ بالأخرى. أغمضها على الفور وقد أخافتني المسافة الشاسعة بيننا. وهكذا أجدكِ مرة أخرى وأنتِ مستلقية

بين أزهارِكِ الصفراء، وأنتِ تصوبين بندقيتكِ نحوي. إنها "هيكلر" يا "دورنتينا". الطراز الأحدث من هذا النوع. لا شكّ في ذلك. أحفظ كل جزء منها عن ظهر قلب. منذ أن كنت تلميذًا صغيرًا في المدرسة، وأنا مهووس بكل ما يتعلق بالأسلحة من معلومات أجدها في الصحف، أو في المطبوعات الخاصة بها. ولفرط اهتمامي بها، استطعت أن ألتحق بنادي الصيد "فالانكس". كنت، لمهارتي الفائقة، أطلق رصاصات متوالية من بندقيتي على الهدف الثابت، راسمًا منها شكل وردة!

أذكر جيدًا بأنني وباستخدام سلاح "بيريتا" الإيطالي كنت أستطيع رسم زهور صغيرة مستعملًا ستّ رصاصات فقط، ومن على مسافة ستمائة متر كاملة. منظرٌ لا يُنسى. كنت أتأمله بانبهار من خلال عدسة البندقية. مدرّبي "هوت هيد هوك" كان يعرف هو أيضًا كيف يفعل ذلك.

الـ"بلاك آرو" يجعلكِ تبدين أكبر من حجمكِ الفعلي بنحو ثماني مرات. وسلاحكِ الـ"هيكلر" يا "دورنتينا" يجعلني أبدو في ناظريكِ أضخم من حقيقتي بعشر مرات. يمكنكِ من خلاله أن تعبثي بإصبعكِ في عيني، ويمكنك أن تلاحظي أنني لم أحلق ذقني منذ ثلاثة أيام، وأن أنفي متورم كثمرة طماطم، ربما بسبب قرصة بعوضة أو عنكبوت، لا يهم. يمكنكِ أيضًا أن تري بوضوح الأثر الموجود بين حاجبيّ. الأثر، ندبة رغبت أنا في الحصول عليها منذ زمن، حين كنتُ وحيدًا، وراغبًا في معاقبة نفسي لألحق بأحبّتي في الجنة.

فشلت في اللحاق بهم. لكنني أدركت أن الجنة هي نتاج فهمنا للحياة على الأرض.

لمَ لا تطلقين النار يا "دورنتينا"؟ افعلي ذلك قبل أن يأتي "هوت هيد هوك". لا أريد أن أشعر بالحرج أمامه. لديكِ كل الحق في الضغط على الزناد. كان بإمكانكِ قتلي دون حتى أن أدرك أنكِ موجودة. جعلتني أراكِ، وهذا يكفي جدًا. أنا متيقن من أنه لا يوجد قنَّاص يسمح بحدوث ذلك أصلًا، ولا حتى أنا. صدقيني يا "دورنتينا". صدقيني.

الحشائش الخضراء تصطف أمامي، على أهبة الإستعداد لما سيحدث. سوف أشعر بألم في صدري، وسينزل ستار أحمر أمام عينيّ، وستتبلل الحشائش بدمي النازف يا "دورنتينا".

قبل أن آتي إلى هنا، كنت في البرج الذي يحوي الجرس الضخم. لكن رئيسنا "هوت هيد هوك"، الذي رأيته ولا شك حين كنت أتخذ موقعي في هذه البقعة، ظن بأن قنّاصكم الرئيسي يختبىء داخل المسجد. سحبني من الخندق، حيث كنت أنتظر دون جدوى شيئًا قد يظهر على الجسر، وذهب بي إلى البرج، مشيرًا نحو المسجد.

في تلك الظهيرة، شاهدت رأسًا صلعاء مقببة، كثمرة قرع عسلي، وحاجبًا كثًــا، لكنني لم أنجح في إصابته. انطلقت الرصاصة عاليًا، وضربت جدار المنارة.

فيما بعد، هذا الصباح تحديدًا، عقب مقتل "إيكو لاودماوث" أخبرنا واحد منكم – وهو جاسوس لنا – عن النفق الممتد أسفل القلعة. أنبأنا بأنكم تستخدمونه للوصول إلى قمة الجبل المغطى بأزهار الربيع الصفراء، حيث يمكنك من فوقه رؤية كل ما يحيط بالكنيسة؛ ولهذا أنا هنا يا "دورنتينا" .

– لهذا أنا هنا.

أكررها وأنا أراقب إصبعك وهو يلتف ببطء حول الزناد. الآن فقط أدرك أن "هوت هيد هوك" كان محقًا. قال لي:

– خطأك القادم سيكلّفك حياتك.

اختار لي موقعي هذا، قائلًا بأن القنّاص في الجهة المقابلة سرعان ما سوف يظهر، ثم تركني مغادرًا.

أيّ قناص هذا الذي "سوف يظهر" يا "دورنتينا"؟ لقد كنتِ هنا منذ البداية. ورأيتني من أول لحظة. لا يمكن التراجع عن هذا الخطأ.

"الخطأ"، أعادت هذه الكلمة البروفيسور "ستيف ليبتوف" إلى خاطري. قال لي:

– لا توجد أخطاء في الكون. تظهر الأخطاء فقط حين نراها عبر أعيننا.

كان يتحدث عن روايتي الأولى والوحيدة، التي بدأت في كتابتها تحت إشرافه في آيوا في الولايات المتحدة الأمريكية.

الآن، أدرك أن عبارته كانت اقتباسًا من "بينيدكت فان دير براك"؛ رغم أنه حينها لم يكن يفصح أبدًا عمًّا إذا كانت عباراته أم اقتباس من غيره. ولذلك كنت أظن في أغلب الأحيان، أن معظم ما يقوله ينطق به للمرة الأولى، وأنها عباراته لا عبارات غيره.

كان يقول:

– إذا لم توجد الأخطاء دوننا، فنحن أيضًا لا نوجد دونها.

ويضيف وهو يحاضرنا:

– كل خطأ يولّد خطأ جديدًا. لذلك علينا ألّا نخاف من ارتكاب الأخطاء.

ثم يلقي بقطعة طبشور في سلة المهملات، وهو يبتسم بسعادة.

والآن، تخيلي الموقف يا "دورنتينا". البروفيسور "ليبتوف" والكابتن "هوت هيد هوك"، يمتلكان رؤية واحدة لمفهوم الأخطاء في الكون، رغم أنهما لا يعرفان بعضهما. فبالنسبة لـ"هوت هيد هوك" فإن الحياة ليست سوى تصحيح متواصل للأخطاء. يقول وهو يقطع الخندق بخطواته:

– كل حياة، بما فيها حياتك، موجودة فقط لأن هناك موت. هذا خطأ لا يمكن إصلاحه. الحياة جزء من الموت، بينما الموت ليس جزءًا من الحياة. أفهم هذا جيدًا، وستجد أن الحياة باتت أسهل بكثير. على فكرة، هل هناك شخص على قيد الحياة لم تتم ولادته؟ كلا. هل هناك ميت لم يكن حيًا في بادىء الأمر؟

كلا. اللعنة! الحياة هي الذيل، والموت هو الفم. كل شيء يسير في دوائر. كل الحيوات متداخلة، كالريح والنسيم.

توقفت خطواته، وهو يقول:

- هنا، ستنتظر هدفك. لديهم نفق تحت القلعة.

أنهى حديثه بهذه العبارة؛ وكهبّـة ريح، أو مرور نسيم، أو كيفما كان الأمر، انحنى بجسده في الخندق متجهًا نحو المعسكر، أو صوب الكنيسة ربما. بقيت الأشواك أمامي، وقد تصورت لحماقتي بأنه يمكنني الإختباء خلفها دون أن أكون مرئيًا.

لا يهم. كل ما يهمني هو أنكِ هنا يا "دورنتينا". أستطيع أن أرى عبر عدسة الـ"بلاك آرو"الوحمة الموجودة على خدك، ورموش جفنكِ الأيسر، والإبتسامة المرتسمة على جانبيّ شفتيكِ الحمراوين الناعمتين، كقطع من البطيخ الشهيّ. مراقبتكِ بصورتكِ المكبّرة هذه، تحت ظلال شجرة البندق المجاورة لكِ، والتي تتمايل أفرعها بسبب الهواء ربما، أو من الإثارة على الأرجح، تجعلني أفكر بأنكِ "كائن ذو ذكاء مبهر، ولطف غير مألوف، وروح حرّة". كما كان يقول "خورخيه خوليو جابرييل إيبرتي" من "كوكوتا"، زميلي في ورشة الكتابة في آيوا.

ألمح الخاتم الذي يزيّن يدكِ اليسرى، والزر المفتوح أعلى قميصك الـ"كاكي" المائل للصفرة. أرى جزءًا صغيرًا من صدرك الأبيض الذي يستند على الزهور الصفراء؛ كما أرى فراشة صغيرة ترفرف بجناحيها قريبًا من صدرك. وهناك، ألمح السلسلة الرفيعة التي تغوص داخل قميصك. لعلها تنتهي بقطعة معدنية بيضاوية حُفرت عليها هويتك، تمامًا كالتي أرتديها أنا أيضًا. قميصك يتماهى مع الزهور الصفراء، بينما يحاول قميصي أن يتوحد مع ما يحيط به، إلى درجةٍ ما.

ربما يا "دورنتينا" بسبب شعرك وقميصك اللذان لا يختلفان كثيرًا عمَّا حولهما، وبسبب انعكاس الأزهار على وجهك. لكل ذلك. لم أركِ في بادىء الأمر. وحين لمحتكِ بعدها، كنتِ أنتِ قد شاهدتني بالفعل.

لكنني حين أدقق النظر إليكِ الآن، لا أستطيع أن أفرّق بين رقبتكِ وأعواد الأزهار؛ ولا بين يديكِ وبتلات الورد من حولك. أنتِ مثلها بالضبط، لكنك مختلفة عنها في الوقت ذاته.

إن لم أكن مخطئًا، أنتِ هنا منذ بضعة أيام. كنت تنتظرين ظهوري، وها قد أتيت. انتهت فترة انتظارك. صرت في مجال بصركِ يا "دورنتينا". أنا ملككِ الآن. كلي ملكك. كل ما ينبغي عليك فعله هو الضغط على الزناد. يمكنني أن أجزم، من منظر يدكِ وعينكِ التي أرى، بأنكِ قنَّاصة ماهرة جدًا، ذات دم بارد، وصبورة جدًا. أنتِ الأفضل في هذا المجال، في جميع أنحاء الجانب الغربيّ من النهر. وأنتِ فوق ذلك، جميلة جدًا يا "دورنتينا". جميلة لدرجة يعجز عن وصفها "فاتوس ديدلِّي"، لأن كلماته الركيكة - بطبيعة الحال – لن توفيكِ حقك!

لديّ استعداد لتخطي المقابر التسعة، لأتمكن من لمس خصلات شعرك فقط. لكنني مدرك بأنني ما إن أخطو نحو هذا الجدول يا "دورنتينا"، فإنني سأتعرّض للقتل على الفور، إن لم يكن على يديكِ فعلى أيدي جماعتك، وبمنتهى الإستمتاع. والأمر ينطبق عليكِ أنتِ أيضًا، فلو سرتِ باتجاه الجدول ذاته، لقتلتكِ جماعتي فورًا. أرى الفراشة الصغيرة وهي تحطّ على زهور الربيع الصفراء بالقرب منكِ. نعم، الفراشة يا "دورنتينا". الفراشة أمامكِ. أمام البندقية. ليتها تطير نحوي لتهمس في أذني بشيء لطيف، شيء هادىء ومريح. شيء سأتذكره لبقية حياتي. لكنني في موقعي هذا لن تطير صوبي لا فراشة ولا حتى نحلة!

ما الذي يمكنني أن أقدمه لك يا "دورنتينا"؟ أعرف بأنه لا ينبغي عليّ تحريك يدي، ولذلك فلن أتمكن من أن أريكِ الكرَّاسة الصغيرة التي أحملها في جيبي الأيسر.

هنا، في جيبي الأيسر يا "دورنتينا"، أحمل الحبّ.

الحب الذي حمله اسم زوجة الكاتب "يوري آندريفيتش سترلينكوف" الثانية؛ كان اسمها "لاف"، "لاف وايت دون".

هنا في جيبي الأيسر، بجوار قلبي، أحمل الحب، والذكرى التي خلّفتها في روحي رفرفة جناحيّ هذه الفراشة الصغيرة.

كل ما يمكنني تقديمه لكِ إذن هو الذكريات يا "دورنتينا". الذكريات.

وفجأةً، تدفعني أمواج النهر العميق، والريح – أو النسيم – إلى آيوا.

أجدني في آيوا!

# 3

وصلتُ إلى آيوا وسط زخَّات المطر، التي تصاعدت معها الأبخرة في ممرات الكلية. كنت قد حصلت على منحة دراسية في قسم الكتابة الإبداعية، لمدّة تسعة أشهر، أتعلّم خلالها كيفية كتابة الروايات على النحو الأمثل. مدّرسنا هو البروفيسور "ستيف ليبتوف"، رجل في منتصف العمر من أصول سلافية. بدأ محاضرته الأولى لنا بالقول أن الموهبة ليست سوى عقاب، ثم قال شارحًا بأنه في عام 1553 وفي مدينة جنيف، تمّ حرق العالِم "سيرفيتس" حتى الموت بتهمة كتابة مؤلَف عن الإختراعات الطبية. وفي عام 1600 تمّ حرق "جيوردانو برونو" في روما بسبب كتابه "حول الكون والعوالم اللانهائية". بعدها بتسعة عشر عامًا عوقب تلميذه "فانيني" بنفس الطريقة بسبب كتابه "الأسرار الغامضة للطبيعة". وتعرّض "توماس لاشيير" للمصير ذاته عقب صدور "تاريخ الجسم البشري"، وغيرهم الكثير.

أضاف:

– إذا أردتَ أن تكون كاتبًا، فتذكّر دائمًا بأن القارئ قد يعجز عن فهمك، ولا يتوجب عليه ذلك في الأصل، لكنه مع ذلك يملك كل الحق في حرقكَ حيًا إن لم يعجبه ما كتبته. لا يحتاج إلى إشعال النار بك. إنه هو نفسه النار! خلاصة الأمر هي أنك ستختفي بعدها، حتى ولو ظللتَ على قيد الحياة. أريدكم أن تعرفوا،

وأريد أن أعلّمكم، بأن العالم لا يتغيّر بسبب قصص خيالية، ولا حتى بالقصص الواقعية. الكاتب الجيّد هو من يحوّل عمله إلى حقيقة. حكاية حقيقية واحدة يمكن أن تنتج اثنتين خياليتين.

أردف قائلًا:

- الرواية ليست واقعًا، والعكس صحيح. الواقع ليس رواية أدبية. القارئ لا يصدّق قصة لمجرّد أنها مبنية على أحداث واقعية، وإنما يصدّقها فقط حين تكون مقنعة. مستقبل الأدب الحديث يكمن في تحويل الثوابت الخيالية إلى حقائق واقعية؛ ولهذا فإن الأدب يرتبط بالتذكّر والذكريات، وليس بالإلهام، ولهذا فإن كل ما يُنسى يفتقده الجميع.

قال الجملة الأخيرة، ثم صفَّق بيديه واستدار ماشيًا بضع خطوات حول مكتبه. واصل حديثه:

- على الكاتب ألّا يقوم بالشرح. عليه ألا يوضِّح حقائق الحياة، وأن يكتفي بوصفها فقط وصفًا جيدًا. هذا ليس كلامي، قاله آخرون قبلي، لكنني أؤمن به تمامًا. الواقع هو الخيال، والخيال هو الواقع. هذا كل شيء الآن.

أشاح بيده، ثم اتجه مسرعًا إلى الباب بخطوات قوية.

ارتفع صوت متسائلًا:

- ما الواقع هنا، وما الخيال؟

التفتُّ لأرى مصدر الصوت، فوجدت أنه "خورخيه جابرييل إيبرتي". أضاف وهو يرتّب أوراقه داخل ملف:

- نحن في كوكوتا، في جنوب كوكوتا تحديدًا، لا مشكلة لدينا مع الحقيقة يا صديقي، (قالها بالأسبانية: "أميجو")، ليست لدينا مشكلة مع الواقع أبدًا. لا أحد، لا أحد أبدًا، يصدّق أننا نكتب عن أمور حدثت بالفعل!

أجبته:

- لا أحد يصدّقنا في الأساس!

- واقعنا هو حقيقة غير معقولة.

بدا أقرب ما يكون للببغاء الذي ذكره في قصته القصيرة "دون بينو دي بادري بامبينو"، بذراعيه النحيلين وقميصه القبيح. أمَّا شعره الذي تتوسط خصلاته القليلة منتصف رأسه فقط، بدت وكأنها تخرج من آنية حساء كبيرة.

بعد خمس دقائق، سرت مع "خورخيه خوليو"، أو "أميجو إيبرتي"، عبر الممر الطويل المؤدّي إلى سكن الطلبة الذي يحمل اسم "ماي فلاور". ظل يضحك ويقهقه وهو يتحدث عن "سيسيليا جونزاليس بيسانو"، الفتاة ذات الذكاء المبهر، واللطف غير المألوف، والروح الحرّة، التي تسكن مع خالتها الأرستقراطية في بيت على الطراز الإستعماري الضخم، يتوسط أرضًا شاسعة زُرعت بكميات وفيرة من أزهار عبّاد الشمس. ثم تذكّر "ليتيسيا كابريرا كوكريه"، فراح يتحدّث عنها بحماس بالغ، واصفًا ملامحها الشبيهة بالقطط، وبشرتها السمراء الرائقة، ورعونتها في الفراش، وطبيعتها التوّاقة للحبّ. كان جيران كوخها الصغير القريب من المقابر، دائمي الشكوى من أنينها المتواصل كل ليلة عند لقائها بعشاقها المتعددين، واصفين أصوات استمتاعها بـ"عواء

أنثى الكلب"؛ لكن حفَّار القبور قام بتهدئتهم واعدًا إياهم بأن يسكتها، لأنه الوحيد القادر على إشباع رغباتها حتى النهاية.

وقد استطاع ذلك فعلًا.

نظر إلينا "إيبرتي"، وقال متسائلًا:

- والآن، أين الخيال وأين الواقع في كل ما سردته عليكما؟ علمًا بأنني لم أقل سوى الحقيقة.

هززتُ كتفيّ أنا و"فاتوس ديدلـــي" في حيرة. كل ما طغى على تفكيرنا في تلك اللحظة هو "ليتيسيا كابريرا كوكيه".

لليالٍ متوالية، ظللتُ أحلم بالمقابر، وبعاهرة تعوي باستمتاع بالغ.

هل رأيتِ يا "دورنتينا" - ولا شك أنكِ ترين بوضوح بطبيعة الحال - كيف أن ذكرياتي في آيوا جعلتني أفتح عيني اليسرى لثانية واحدة؟ لكنني أغمضتُ اليمنى على الفور، ولذلك اختفيتِ فجأة. ها قد عدتِ ثانيَة. ابتسامتكِ التي ترفع الجانب الأيسر من شفتيكِ لم تعد موجودة. عينكِ اليسرى التي تبقينها مفتوحة دائمًا، تبدو أصغر قليلًا، ربما أرخيتِ جفنكِ بعض الشيء؟ لا بد أن أمرًا ما قد حدث. تتوقف أنفاسي لبرهة. ألصق عيني اليمنى على العدسة، فأراه وراءكِ. رجلٌ بلحية طويلة. الشمس تلقي بأشعتها على ظهره، بينما يسقط ظلّه الأسود على الزهور الصفراء. يجلس مقرفصًا، مباعدًا ساقيه، تحت فرع هزيل لشجرة البندق. يتحدث بعصبية كما يبدو، لأنه يهز رأسه ويلوّح بيديه، بينما تتطاير لحيته الكثة في الهواء، كأنها

توشك على الإنفصال عن وجهه في أي لحظة. يشير بيده باتجاه المسجد، ثم يحرّكها نحوي، صوبي تمامًا، لكنني لا أظن أنه يراني حقًا.

أقول لكِ:

- لا أظن ذلك. مستحيل.

لا يمكنه أن يراني بعينه المجردة. يفصلنا عن بعضنا حوالي ستمائة متر. أتمعنه جيدًا من مخبئي. إنه مبتور الذراع. ذراعه اليسرى غير موجودة. كمّه الأسود يسقط متهدلًا من كتفه. يتراقص بخفة مع الهواء. هناك شارة حمراء ما على جيب قميصه وعلى طاقيته الـ"بيريه". إنه غاضب جدًا. أمرٌ لا لبس فيه. عيناه جاحظتان بشدّة، كأنهما حشرتان ضخمتان توشكان على القفز من محجريه. لحيته كثيفة جدًا لدرجة أنك لا تستطيع سوى رؤية عينيه كفتحتين صغيرتين في رأسه. لا أستطيع رؤية فمه، ولذلك لا أعرف ما يقوله تحديدًا. لكنه يشعر بالغيظ لسببٍ ما. ربما يسألها في هذه اللحظة عن عدم قتلها لي حتى الآن. لعلّه يخبرها عن القنّاص الأصلع الذي كان في منارة المسجد، وكيف أنه أُصيب إصابات بالغة هذا الصباح. إنها تعرف إنني أنا من أطلق النار عليه. لقد أخبرتها بنفسي. لكنني قلت لها بأنني فشلت في التصويب. أرى أن "دورنتينا" تحتفظ بهدوئها. وجهها يخلو من أي تعبير، وقد اختفت الإبتسامة من على الجانب الأيسر من شفتيها. الرجل ذو اللحية لا يزال يلوِّح بذراع واحدة، فيما يتطاير كُـمّ الأخرى. يشير إلى هذا الجانب من النهر. الضفة اليمنى. يميل فوق "دورنتينا" مواصلًا إيماءاته العصبية. يبدو موشكًا على السقوط فوقها.

القطر الداخلي لبندقيتي الـ"بلاك آرو" هو 12,7 ملم، ولها كاتمٌ جيد.

أقول لنفسي بأنه يمكنني استغلال انحناءه فوقها وصراخه المتواصل، بأن أطلق رصاصتي عليه، ليتناثر دمه على جذع شجرة البندق، وتلتصق جثته على جدار القلعة. مجرد طلقة واحدة فقط. كلا.. الواقع أنه يمكنني التخلص من كليهما معًا برصاصة واحدة فقط، أضربها باتجاه رأس "دورنتينا" لتخترقه، وتستقر في قلبه هو. أستطيع فعل ذلك بمنتهى السهولة؛ بل أستطيع أيضًا أن أرسم شكل زهرة على صدره برصاصاتي، إن أردت، سيكلفني الأمر بعض الرصاصات فقط.

لكنني أتراجع عن الفكرة على الفور. إنه لا يستحقّ أن يختلط دم "دورنتينا" بدمائه.

إصبعي يرتجف قليلًا على الزناد، وأنا أتابع لحيته المتطايرة وعيناه اللتان تطوفان بنظراتهما السخيفة على "دورنتينا".

أرخي إصبعي، وأنا أذكّر نفسي بأنه لا يستحق الموت برصاصة تحمل رائحتها.

- اهدئي يا "دورنتينا".

أقولها ثانيةً:

- اهدئي!

إنه لا يعرف أن بإمكانكِ رؤيتي. لو أدرك ذلك، لقتلكِ على الفور، كما كان "هوت هيد هوك" سيفعل معي بالضبط، في الموقف ذاته. صدّقيني. رصاصة في الرأس، دون أن يرف جفن أي منهما. ربما ذبحكِ يا "دورنتينا"، ناحرًا رقبتكِ. بهدوء تام. أظن أنه سيفعل ذلك ليشعر بجسدك الدافئ وهو يرتعش

بين يديه. دمائك ستسيل على زهور الربيع الصفراء الفاتحة، وتحولها إلى زهور الخشخاش حمراء. ذكرى ربيع مذبوح.

الملتحون يشعرون بلذة بالغة عند ذبحهم للآخرين. سينحركِ كحَمَل صغير. لديهم سكاكين خاصّة ذات أنصال حادّة. يقبض بيده على خصلات شعركِ الأمامية، ويرفع بها رأسك، يشدّ بذلك رقبتكِ إلى أقصى درجة، وبحركة سريعة ينهي المسألة بأكملها. شاهدتهم على شاشات التلفزيون وهم ينحرون أسراهم. في بادئ الأمر يجعلونهم يبتسمون ويلوّحون لأهاليهم. هذا ما يعرضونه على الشاشات. في الواقع لديهم أشرطة أخرى يسجلون عليها عمليات الذبح كاملة. الضحية لا يسمع سوى "تيك"؛ هذا على الأقل ما يؤكّده صديقي "جيامباتيستا بودوني" ضمن أحداث "جزيرة اليوم السابق". "تيك"، هذا كل ما في الأمر، لا أكثر ولا أقل، وبعدها يكون رأسه متدليًا من يد القاتل، فيما ينتفض الجسد بقوة على الأرض، وكأنما يوشك على القيام من مكانه. ويروح القتلة، أمثال هذا الكسيح الواقف أمامك، يديرون رأس الضحية في أيديهم كما لو كان مصباحًا، ويلوحون بسكاكينهم في بهجة خالصة. بعدها يضعون الرأس على الأرض، ويلتقطون الصور لأنفسهم وهم يدوسونها بأحذيتهم. لقد شاهدتُ بنفسي تسجيلات كهذه يا "دورنتينا". إنهم يضعون في بدايتها تحذيرًا بأنها ليست لضعاف القلوب.

دعيني أسألكِ:

- كيف يمكن للمرء أن يذبح إنسانًا؟ ألا يفكر بأنه، مثله تمامًا، مخلوق له ذكريات، وأمّ مُحبّة، وربما عدد من الصغار أيضًا؟ هل يشعرون بغصّة وهم

يمررون أنصالهم الحادّة على رقبته التي تحمل رائحة آخر من احتضنه وودّعه من أهله وأحبّائه؟ هل تحرق أصابعهم سخونة الدم المتدفق الذي يسيل على السكين؟

أفكر كم جميلٌ لو بقي ذلك الكسيح في مكانه مدّة أطول قليلًا. لو تكرّم بالوقوف هكذا حتى تغرب الشمس وراء القلعة، عندها سأصوّب ضوء الليزر على منتصف جبهته بالضبط، وقبل أن يرفّ بجفنه مغمضًا عينه، تنتهي المسألة؛ أو كما يقول "هوت هيد هوك" دائمًا:

- نكون قد وضعناه في ظرف، وألصقنا عليه طابع البريد. وانتهينا!

أكون قد تخلصت منه. لكنني، في الحقيقة، لا أجد ذلك عملًا عظيمًا، ولا ذكيًا حتى. عليه أن يبتعد عنكِ أولًا بنحو خطوتين على الأقل، لأنني لو أصبته برصاصتي في موقعه هذا قريبًا منكِ، لهوى عليكِ بكل ثقله. أنتِ كائن بالغ الرقة والنقاء، لن أسمح بأن يلوثك حقير نتن مثله.. قذارة في صورة إنسان مبتور الذراع، وله لحية كثة بالغة الكثافة، لا يُرى منها إلا فتحتين ضيقتين من المفترض أنهما عينيه.

أهتف:

- انتظري يا "دورنتينا"! لا تتحركي!

لقد ابتعد عنكِ قليلًا، وأمسك بيده أحد أغصان شجرة البندق، وهو لا يزال مستمرًا في صراخه. يبدو أنه لن يتوقف عن الصياح. الآن يمكنني أن أوجّه بندقيتي إلى جبهته، ضاغطًا الزناد بسرعة فائقة. سأقتله فورًا. أعرف أن جثته ستسقط على الحشائش الكثيفة، قبل أن يدرك أن هناك من يراقبه عبر النهر.

يمكنني أن أطلق عليه ثلاث رصاصات إضافية بينما يخرّ بجسده على الأرض؛ بمعدّل رصاصة واحدة كل ثانية. إن تهاوى ببطء بعض الشيء، يمكنني أن أضرب عليه ستّ رصاصات، وليس ثلاثًا. كما تعرفين يا "دورنتينا" فإن سرعة الرصاصة هي 820 مترًا في الثانية الواحدة. بإمكان بندقيتي الـ"بلاك آرو" أن تُسقِط هليكوبتر من السماء، أو تقتل طيارًا داخل طائرته وهو بصدد الإقلاع أو الهبوط. إن إصبعي على الزناد الآن، من يدري ما سيحدث هذه اللحظة؟ ربما أعطاكِ أمرًا بأن تطلقي رصاصة باتجاه الضفة الأخرى، هنا حيث أقف، على الجانب الأيسر من النهر. مجرد تجربة تقومين بها كتدريب إضافي لا أكثر. ولأنكِ تراقبينني منذ مدّة، فلن تخطىء رصاصتكِ طريقها إليّ، وإن كان الكسيح لن يلاحظ أنها أصابت أحدًا، وأنها قد نجحت في القضاء عليّ. لعلّه يدرك أنني موجودٌ هنا، وإلا لما وقف بكمّه الخاوي المتطاير في الهواء، مشيرًا صوبي بيده الباقية.

يمكن لرصاصتكِ أن تلقي بي داخل الخندق، خلال ثانية واحدة على أقصى تقدير. وسينتهي أمري بهذه الطريقة. لن يبدو موتي حقيقيًا، إذ سيتمّ بحركة مباغتة. وحدكِ ستتعاملين مع موتي بجدّية واقتناع وواقعية.

أقول لكِ:

- اهدئي يا "دورنتينا".

ألمح شبح ابتسامتكِ مرة أخرى. ربما إذن لا زال أمامي ثانية إضافية على هذه الأرض. أراه يركع بجوارك على الزهور الصفراء، وأراكِ تبتسمين وتغمزين بعينكِ اليسرى. لكنه لا يلاحظ هذه الحركة الأخيرة. لا يدرك أن أمامنا ثانية

إضافية في هذه الحياة. على أي حال، كل هذا لا يهم. الآن، أو بعد لحظة، سينتهي بكِ المطاف بإطلاق النار عليّ، ولن يقيني ساتر النباتات الشوكية الذي أختبىء خلفه. أرى كوع ذراعكِ الأيسر وهو يتحرك ببطء شديد، موجهًا بندقيتك الـ"هيكلر آند كوتش، إس جي 1" تجاهي. طراز بندقيتي الـ"بلاك آرو" أكثر حداثة وأفضل تجهيزًا. هذا أيضًا لا يهم. لقد تخطى الواقع أكثر الخيال جموحًا، ولم يعد للحقيقة أي معنى.

إصبعكِ الأوسط آخذ في التحرّك، بينما تلتصق السبابة بالزناد دون حراك. هذه علامة أكيدة على استعدادكِ الكامل لإطلاق النار في أيّ لحظة. تغمضين عينكِ اليسرى بتمهل. العين ذاتها التي أبقيتها مفتوحة طوال الفترة الماضية. حبستِ أنفاسكِ. استعداداتكِ تشبه جدًا استعداداتي يا "دورنتينا". بقي فقط أن ننتظر كلانا لنرى من سيطلق النار قبل الآخر، ليضع نهاية لهذه القصة.

ربما انتهى الأمر بإطلاقنا النار معًا في الثانية ذاتها.

ستندفع رصاصتان في نفس اللحظة، وتصادفان بعضهما في طريقهما عبر النهر. وبعدها، لن يعرف أي منا إن كان الآخر قد تلقى الطلقة أم لا، أو إن ظل أحدنا على قيد الحياة أم لا.

لهذه الطريقة اسمٌ يا "دورنتينا". اسمها "إطلاق النار المقدوني". الرصاصة والهدف يتحركان في اللحظة ذاتها. ربما توجب علينا أن يشير أحدنا للآخر قبل أن نضغط الزناد معًا. ربما عليّ أنا أن أحذركِ قبل وقوع الأمر المحتوم. لقد منحتني أنتِ مهلة قبل أن أكتشف وجودك وسط الزهور الصفراء الكثيرة؛ وقد انتهت المهلة. تتردد في رأسي عبارة "هوت هيد هوك":

- اقتل، وانسَ على الفور أنك قتلت.

أشعر بسخونة أسفل إصبعي المستند على الزناد، كأن تحته عود كبريت مشتعل. أذكّر نفسي بأن التراجع لم يعد ممكنًا أبدًا. ألقي على وجهكِ نظرة سريعة. الجانب الأيسر من شفتيكِ، والوحمة التي تعلوه. الحاجبان. الأنف. خدك الأحمر كزهرة خشخاش وحيدة وسط حقول ممتدة من زهور الربيع الصفراء.

أظل أكرر:

- آه، زهور الربيع.. زهور الربيع!

زهور الربيع التي تتلألأ تحت أشعة الشمس المتساقطة عليها وكأنها مطر سحري. وشعركِ يا "دورنتينا"، شعركِ الطويل بخصلاته الغزيرة، كشبكة ذهبية تتدلى طياتها على كتفكِ الأيسر، ثم تتساقط على الحقول الصفراء تحت قدميكِ. شعركِ اللامع، كتاج من المجوهرات البرّاقة يزيّن رأسك. وعينكِ يا "دورنتينا"، عينكِ التي تخبئين داخلها دمعة.

أنفاسكِ تتوقف لبرهة.

وفجأة أراها، تلك الفراشة الصغيرة التي كانت تحوم حولكِ طوال الوقت. ها هي تطير نحوي. لا زلتُ على قيد الحياة إذن!

وقف الرجل ذو اللحية الكثة، ملوّحًا ببندقيته تجاهي، ثم هبط مختفيًا قريبًا من شجرة البندق. ظهر بعد لحظات بجانب الحائط الشرقي للقلعة. لا بدّ من وجود نفق يصل بين الضفة الغربية للنهر والجزء الداخلي من بقايا القلعة، ينتهي في المسجد. "هوت هيد هوك" كان محقًا إذن حين قال بأنكم تحمون

منطقتكم ببضع قنّاصين فقط، يتم تبديلهم على الجبهة الأمامية بحركة هادئة غير ملحوظة. يومها قال بغضب وهو يقف على نُصُب البطل المجهول:

- إنهم يسلّطون الإضاءة ليلًا على الكلاب الضالّة، وفي كل مرة تقعون أنتم، لغبائكم الشديد، في الفخ وتردون عليهم بإطلاق النيران، كاشفين لهم عن مواقعكم. ولهذا يقتلونكم بأعداد كبيرة كما لو كنتم ذبابًا!

أستطيع سماع صوته الآن في رأسي، بينما تلوح ابتسامتكِ الحزينة على وجهك مرة أخرى. يا له من يوم جميل. يوم جميل حقًا يا "دورنتينا". أسمع صوت الجدولين القريبين مني ومنكِ. لو أننا نظرنا إلى الأسفل، لرأيناهما يتعانقان تحت الصخور.

أقول لكِ موجهًا:

- استمعي إلى صوت قبلاتهما. انظري إليهما وهما يجريان كعاشقين تحت ظلال شجرة الصفصاف، نحو البحر، نحو المحيط. لا يهم في الحقيقة. المهم أن يفرّا معًا لمكان بعيد عن هنا.

أواصل مراقبتكِ عبر عدسة البندقية. جسمي ينتفض. الرعشة تخترق صدري، كأسراب من النمل. لم أعد أعرف إن كنت على قيد الحياة بالفعل، أم إنني أسرد الأمر فقط كما لو كنت لا أزال حيًا.

على أي حال أشكركِ على هذا الغروب الهادئ، على الجبل الشامخ خلفك، على القلعة أيضًا، والسماء والنهر وشجرة البندق الظليلة والفراشة والزهور

الصفراء ذات البتلات الذهبية، وأريج العسل المنبعث من ابتسامتك، والذي حمله النسيم إليّ عبر النهر. حطّت الرائحة الشهية هنا، بجانبي يا "دورنتينا".

لو أنني لا زلت حقًا على قيد الحياة، فسوف أصنع لنفسي كوبًا من شاي زهور الربيع الدافئ. إنه يهدّئ الأعصاب ويريح القلب، ويعالج الأرق.

تخيّلي شتاءً بديعًا، وكوخًا صغيرًا يتوسط حقل كبير. ندف الثلج الرقيقة تتساقط في الخارج، بينما نحن بالداخل، وأمام كل منا كوب شاي تتصاعد منه الأبخرة الساخنة. نجلس في صمت تام، يتابع كل منا الآخر بعينيه، دون أن ندرك أننا على قيد الحياة. الثلج المتساقط خارج النافذة يلقي بظلاله على وجوهنا. أنتِ شفافة، كالبخار المنبعث من فنجانينا، لدرجة تجعلني أخشى لمسكِ، خوفًا من أن يؤدّي ذلك إلى اختفائكِ.

ورغم أنني لستُ في مواجهة الشبّاك، إلا أنني أشعر بوجود شخصٍ يطل علينا منه. شعره أشقر، وله لحية شبيهة بتلك الشائعة في زمن "أبراهام لنكولن".

يتواصل هطول الثلج في الخارج؛ نفس الثلج الكئيب، يتساقط الثلج ويفضح خطوات الأعداء عليه، أقول لك يا "دورنتينا" وأنا أتأمل وجهكِ المنير:

– آثار خطواتهم عل الثلج، خطرت لي هذه الفكرة الآن يا "دورنتينا".

وتظل خيالات الثلج الخفيفة عبر الزجاج، تغطي وجوهنا. أعتقد بأننا لا يزال أحدنا يحب الآخر يا "دورنتينا"، فهذا ما يرغب به كل ما حولنا؛ الأرض والسماء والأشجار والثلج، والرجل الذي يراقبنا من الخارج. لكنني لا أرغب في جسدك. أريد وجهكِ فقط. إدراككِ لمحبتي لوجهك، سوف تجعلكِ تمنحينني

جسدك. قبل أن تسنح لي فرصة مصارحتكِ بهذه الحقيقة، أسمع صوتًا مرعبًا؛ عواء ذئاب تطوف حول المنزل. وفجأة، يبدأ وجهك في التلاشي. أفتح النافذة، فأجد ملامح وجه الرجل ذو اللحية العتيقة الطراز منطبعة على أكوام الثلج الناعم. أقول لنفسي وأنا أراقب الثلج يملأ الأثر الذي تركه وجه الرجل على الأرض، أن كل رجلٍ ينتهي إلى قصته الحزينة الخاصة به.

ألمح وجهكِ داخل الفنجان، وترين وجهي على زجاج الشبّاك. كلانا على قيد الحياة، لكننا لا نشعر بها. أرى أنكِ تفهمينني، لكنني لا أدري ما الذي أرغب حقًا في قوله. كل ما أعرفه هو أننا في زمن محيّر، الواقع ليس سوى ذكرى، والذكرى هي الواقع. نتشارك نفس الجنة، ونتشارك ذات الجحيم؛ لأن الجنة والجحيم – في نهاية الأمر – حالة عقلية، وليسا أماكن ملموسة.

نعيش ذكرياتنا مع أمواتنا، ولذلك فإننا لا نشعر بالحياة. وشيئًا فشيئًا، نبدأ بالتلاشي. نتصاعد مع أبخرة الشاي الساخنة. وفي النهاية، نستحيل إلى غيمة صغيرة عَطِرة في سماء آيوا.

في إحدى محاضرات الكتابة الإبداعية، أتذكر هطول أمطار ذات شذى عَطِر، بينما "فاتوس ديدلـّي" يقرأ علينا قصيدة عن الحب، عنوانها "وجهكِ ملكٌ لي". أتذكرها جيدًا يا "دورنتينا". أتذكر كل بيت فيها. أنصتي يا نور عيني:

"دورنتينا".. لطالما كان وجهكِ ملكٌ لي
هل تذكرين كيف زوجوكِ خلف التسع مقابر؟
احتفلوا بعرسكِ في سعادة وبهجة وحبور
ودون اهتمام، أحرقوا حبنا.. فرقوا بيننا

والآن.. لا تمر بي ليلة دون أن
يبحر صدى صوتي إلى نافذتك
هل تسمعين سنابك الفرس السوداء
وهي تطأ على الزهور الصفراء؟
الفرس تركض في ليل لا نهائي
قبل أن يرقدوني في قبري..
تذكري موقعه جيدًا دون أن تبكي
فالريح ستحمل لي صوت بكائك
عبر تسعة جبال وتسع مقابر

ما هذا؟ هل تبكين يا "دورنتينا" بسبب هذه الكلمات؟! يجب أن نعرف إن كنا على قيد الحياة حقًا. ينبغي أن يؤكّد لنا أحد ذلك.

حين عدتُ من آيوا، أرسل لي الشاعر "فاتوس ديدلـّــي" بطاقة بريدية تحمل صورة لنافورة في موسم الربيع، في مدينة "كروجي" الألبانية. كتب لي على ظهرها أنه فقد ذراعه في مظاهرة سلمية للحزب المعارض.

ابتسامتكِ تدلّ على أنكِ فهمتِ ما أرمي إليه بالضبط؛ هل يمكن أن يكون هو نفسه الشخص الذي رأيته منذ قليل بقميصه الأسود وشارته الحمراء؟ أعني، هل يعقل أن يكون ذلك الملعون هو "فاتوس" ذاته يا "دورنتينا"؟! هل هذا ممكن؟! أخبريني، تكلّمي. أجيبي. سؤالي واضح ومحدد: هل هو "فاتوس ديدلـّــي"، الشاعر صاحب القصائد بالغة الرقة والعذوبة؟

نفس الرجل ذو الكمّ الخاوي المتطاير في الهواء؟!

أود ألا أصدق ذلك. سوف أواصل المراقبة وأنتظر. لا داعي لأن تؤكدي الأمر لي.

أقول:

- لا داعي للتأكيد. أغمضي عينكِ وافتحيها بسرعة لكي أتيقن من أن الشِعر والقصائد شيء، والحياة شيء آخر تمامًا.

أضيف بعد لحظة:

- لو اتضح أنه هو بالفعل، ولو أنني ضغطتُ على الزناد قبل قليل، لما استمرّ في الحكاية حتى الآن. كنت سأتخلّص منه ومن ذكرياتي عنه. لكن هذا يعني أنني كنت سأقضي عليكِ أنتِ أيضًا يا "دورنتينا"، وهذا بدوره يعني أنني ما كنتُ سأجد الفرصة لأخبرك بموضوع أخير، لو أن هذا الشخص هو نفسه "ديدلـــي"، فإنني ولستّـة أشهر كاملة تقاسمت معه و"خوليو"، أو "أميجو إيبرتي"، غرفة واحدة.

أقول لها مؤكدًا:

- نعم، ستة أشهر كاملة. عشت مع هذا الوغد في حجرة واحدة. لو أنه هو حقًا "فاتوس ديديلِّي"، كما بدا عندما خلع ربطة رأسه، وإذا قمت بربط ما أخبرني به في بطاقته البريدية؛ أنه أصيب في مظاهرات المعارضة، وفقد ذراعه.

أضيف:

- ربما فقد ذراعه اليسرى. الحقيقة أنه لم يتواصل معي بعد ذلك. لا أعرف عنه شيئًا منذ بدأ هذا الأمر. بل ربما قبل ذلك أيضًا. ورغم ذلك لو أنه استهدفني ببندقيته، لاضطررت لقتله يا "دورنتينا"، دون الإهتمام بحقيقة زمالتنا القوية لستة أشهر في آيوا، قبل أن يغادرنا عائدًا إلى "كروجي"، متخطيًا

المقابر التسع. بعدها بثلاثة أشهر، عدتُ بدوري إلى البلد، وعقب ذلك بقليل أصدرت روايتي الأولى والوحيدة مستفيدًا من توجيهات "ستيف ليبتوف" في كيفية كتابة رواية تصبح من أفضل المبيعات. استمتعتُ بالشهرة والجوائز التي رافقت صدور الكتاب، لكنني سرعان ما عانيت من الإنهيار السريع لهذه الأجواء؛ فبعد النجاح والمجد والطبعات العشر المتوالية للرواية، حدث ما لم يكن في الحسبان. عانيتُ من الخيانة والتحطيم من قِبَل نفس الأشخاص الذين رفعوني عاليًا، وجعلوني أشعر بأنني أحلّق عاليًا في السماء كطائر النورس في كتاب "جوناثان ليفنجستون سي جَلّ".

أصارحها، متذكرًا:

– قبل ثلاثة أيام من إحضاري إلى هنا، استبدّت بي رغبة ملحّة في الإنتحار. لكن الحضور المفاجىء لـ"هوت هيد هوك" و"إيكو لاودماوث" إلى بيتي، حسم الأمر. وضعا في يدي بندقية متطورة، وأركباني سيارة "جيب" ممتلئة بالعلب المعدنية والأسلحة، ورافقاني إلى هنا.

قال "هوك" موجهًا كلامه لي:

– بينما كنت أتبول البارحة خلف مبنى الكنيسة، فكّرتُ بك. وحين أعلنتُ اسمك لنائبي "إيكو"، الذي كان يفعل الشيء نفسه بجواري، كاد أن يغرقني ببوله لشدة حماسه!

قال "إيكو" وهو يغلق باب السيارة الـ"جيب":

– نعم. وحده الأستاذ، البطل، يستطيع تنفيذ هذه المهمة بنجاح. نحن نواجه عدوًا خطيرًا، فلديهم مدرّب أجنبي يدفعون له أموالًا طائلة من حصيلة تجارة المخدرات.

أردف "هوت هيد هوك" بصوت مبحوح:

- أنت الوحيد يا "جنرال آس" الذي يستطيع القضاء عليهم.

قالها وهو يتفرس في وجوه وابتسامات الجثث المشنوقة، المتدلية من الأشجار على جانبيّ الطريق الرئيسي. انعطفنا بعدها إلى الشوارع الداخلية المحطمة. واصل حديثه:

- سوف تنسى كل شيء. الأمور الجيدة والسيئة على حدّ سواء. اللعنة على التأليف! واللعنة أيضًا على الكتب!

أقول مخاطبًا "دورنتينا":

- هذا ما قاله بالضبط.. "اللعنة على الكتب"!!

ثم أكمل "هوت هيد هوك" حديثه معي قائلًا:

- لا خير في كتاباتك إن لم تمرّ بتجارب حياتية قوية. ما جدوى الكتابة عن مواقف خيالية؟!

وابتسمَ ابتسامَة عريضة، كتلك التي رسمها على شفتيه حين كان ينتظرني في الميدان، منذ مدّة، مختبئًا خلف شجرة كبيرة.

ربّتَ بيده على البندقية المستلقية على ركبتيّ.

قال "إيكو لاودماوث":

- نعلم أنك تستطيع حفر شكل زهرة الربيع على أي هدف، مستخدمًا رصاصاتك فقط، من مسافة عدّة كيلومترات.

أردف ضاحكًا وسط ضحكاته العجيبة:

-بوم! ثم طاخ.. طاخ.. طاخ! بمنتهى السلاسة؛ كأنك تطرِّز ثوبًا بخيوط بديعة.

واصل حديثه بجدّية هذه المرة:

- أنت مثل والدك، رحمه الله. كان يستطيع رؤية نسر وهو يحلِّق قريبًا من سطح الماء، ينتظر بصبر إلى أن يصل الطائر إلى منتصف البحيرة، قبل أن يُطلق على رأسه رصاصة واحدة، تقتله على الفور. يسبح بعدها ليحضره. كان ذلك الرجل ملح الأرض. نعم. كان كذلك حقًا.

طولكِ يا "دورنتينا"، والذي أقارنه بطولي من هنا، يوحي لي بأنكِ تستطيعين رؤية الكنيسة بكل وضوح. لو كنت مخطئًا في تخمين طولك، فأعتقد أنه يمكنكِ على الأقل رؤية السقف ذو الصليب، ونصف البرج الذي يحوي الناقوس. حين ترجلتُ من السيارة الـ"جيب"، رافقني "هوت هيد هوك" إلى داخل البرج. أمضيت هناك نحو يومين تقريبًا، ثم تمّ إحضار شاب صغير ليحلّ محلي، وتمّ تكليفي بمهمة جديدة حينها، وهأنذا أعود ثانيَةً. المكان هنا أشبه بالقبر. هنا، أترين؟! أنا هنا يا "دورنتينا".

لا تزالين تواصلين مراقبتي، وتبتسمين. لا شك أنك تفهمينني. أنا متأكد من أنكِ تقرأين شفتيّ.

الأمر الوحيد الذي لست متأكدًا منه هو ردّ فعلكِ إن توقفتُ أنا عن المراقبة. إن تركتُ بندقيتي على مسندها المعدني، وعبرتُ الجدول والنهر، ثم الجدول الذي يقع بمحاذاتكِ، لأصل إليك. لن تفعلي شيئًا على الأغلب. لكن أحدًا من جماعتكِ، لعلّه "فاتوس ديدلــّـي" بنفسه، إن كان هو الشخص الكسيح الذي

رأيته معك، سيتولّى الأمر؛ فأي ضحية من الجانب الآخر تعتبر نصرًا، وأي شخص ينجح في البقاء على قيد الحياة تعتبر هزيمة.

الأمر ذاته سيطبّق عليكِ يا "دورنتينا" إن أنتِ فكرتِ في القدوم إليّ في مكاني هذا. إن تركتِ بندقيتكِ تستريح على الزهور الصفراء، ونفضتِ الفراشات من خصلات شعرك، وتجاوزتِ جدوليّ الماء، ووصلتِ إلى هنا، على الجانب الأيمن من النهر، ستجدينني أنتظركِ بهدوء. لكن "هوت هيد هوك" لن يتردد في القضاء عليكِ. لن يضيّع فرصة للترقية، والحصول على رتبة وألقاب عسكرية أكبر وأهم.

في أوقات مثل هذه التي نعيشها، يحمل الكثيرون أعلى الألقاب العسكرية، دون سبب واضح أو منطقي.

على فكرة يا "دورنتينا"، لم ننجح نحن حتى الآن في القضاء على أي شخص يحمل رتبة عسكرية. لا تبقى جثة واحدة تابعة للضفة اليسرى على الجبهة الأمامية، مدة تكفي أن ننقلها إلى معسكراتنا. "هوت هيد هوك" يقول بأنكم تغيرون ملابس موتاكم، وتلبسونهم ثياب أفراد مدنيين، ثم تتركون جثثهم على الطرقات ليراها الدبلوماسيون الأجانب والصحفيون. لا أدري يا "دورنتينا"، ولعلّكِ أنتِ أيضًا لا تعرفين الحقيقة. لكنهم يقولون أن الملتحين، مثل ذلك الكسيح، يقومون بجمع الجثث مستخدمين خطّافات خاصة، ويحفظونها في أماكن معينة. مصادرنا الأمنية تقول بأن هؤلاء الأشخاص يمتلكون أموالًا طائلة. لكن الواقع أن مصادرنا الأمنية لا تقول الحقيقة دائمًا. يؤلفون بعض الحكايات أحيانًا، حتى يظهروا للآخرين أنهم دائمًا على حق. حتى حين لا يكونون كذلك.

قبل أيام قليلة، شاهدتُ من موقعي هذا، عددًا من الرجال بملابس سوداء متماثلة ولحى طويلة. اختفوا في مكان ما داخل القلعة. المخابرات أنكرت الأمر برمته، بشكل حاسم لا يقبل الجدل، وادّعوا أن الوضع تحت السيطرة تمامًا.

كل هذا غير مهم في الواقع. سوف يقومون بحصر أعداد الموتى، لا لشيء إلا لينتقم كل طرف من الآخر مستقبلًا.

نحتاج الموتى لنبدأ الأمر بأكمله من جديد.

أكرر ثانية، مؤكدًا:

– الأمر بأكمله من جديد. بكافة تفاصيله. من البداية. نرث الكراهية المتبادلة من الموتى. الأرض تواصل دورانها بهم.

الأرض تواصل دورانها بهذه الطريقة منذ مئات السنين، منذ أن استلقى أحد الكتّاب تحت شجرة كرز مزهرة متسائلًا عن سر امتلاكنا للعقل والبصر والكلمات والحواس. إن كانت كل هذه الأشياء ستتحلل وتختفي. إن كانت ستتجمد مع الأرض. إن كانت ستدور حول الشمس لملايين السنين.

لماذا يا "دورنتينا"؟!

لا نحتاج عقلًا لكي تستمر الأرض في الدوران. ستدور بنا ومن غيرنا.

ها أنا أرسل قبلة باتجاهكِ يا "دورنتينا". ستدور هذه القبلة حولنا، ثم ستدور حول الشمس لقرون قادمة. ومع هذا، ها نحن نراقب بعضنا بعضًا، رغم إدراكنا أننا لسنا في نهاية الأمر سوى ذرات غبار، وأنه قد مرت بنا ملايين الأعوام منذ أن بدأنا في الدوران حول الشمس دون أي هدف.

# 4

لا زلنا ندور يا "دورنتينا"، ولا زالت الأبخرة التي خلـّـفها هطول المطر تتصاعد في أروقة الكلية في آيوا.

أنظر إليكِ عبر عدسة البندقية، وأواصل همسي، دون أن أعرف إن كنتِ تفهمينني. أحرّك شَفَتَيَّ ببطء متعمد لأتيح لكِ فهم ما أقول. إن قُدِّر لي أن أحيا لثانية واحدة إضافية، فسوف أحكي لكِ حكاية "دورنتينا" كما قصّها عليّ "فاتوس ديديلـّـي" بالضبط. الهواء يحرّك خصلات شعركِ الحريري حول كتفيكِ، ويدمجها في الأزهار الصفراء الكثيرة حولك. كل شيء يحمل رائحة زهور الربيع يا "دورنتينا". حين اكتشفتُ وجودكِ، كانت بندقيتكِ مصوّبة إليّ. كان بإمكانكِ قتلي متى شئتِ.

بالأمس، على سبيل المثال، قتلتْ جماعتنا رجلًا مسنًا، كل جريمته أنه خرج من منزله ليجمع الحلزون من على جوانب الضفة اليسرى للنهر. وعلى الفور، ردّت جماعتكم بقتل سيدة عجوز كانت قد ذهبت إلى الجسر لتعيد كلبها إلى البيت. الطرفان لا يعرفان معنى التسامح. الجناة مجهولون. ولكن يبقى أنه تمّ قتل عجوزين بدم بارد. ربما نال القتلة مكافأة متميزة على ما فعلوه. ربما يعرف أحدهم السبب الحقيقي لموت هذين الشخصين، ولكن ماذا عني؟ الأمر يتوقف على الكسيح، أليس كذلك؟

عندما يجدني كابتن "هوت هيد هوك" ميتًا، منحنيًا على بندقيتي، سوف يلقي خطبة يمدح فيها شجاعتي. سيقف على قبر الجندي المجهول معلنًا أنني رجلٌ وطني بحق، ويصف كيف أنني لم أتردد في التضحية بحياتي في سبيل الأرض والوطن. وسيعلن بفخر عدد الضحايا الذين قمت بالقضاء عليهم. وإذا لم تمطر السماء حينها، فسيجعل "أوتو تشيربي" ينفخ في بوقه مقطعًا موسيقيًا من السلام الوطني، كتكريم لي.

"هوت هيد هوك" يدرك بأن هذه هي فرصته الأخيرة للترقي؛ فإمَّا أن يتقاعد برتبته الحالية، وإمَّا أن ينجح في القفز فوق عدّة مناصب، ليحمل فجأة لقب "كولونيل" على الأقل. موتي بشجاعة قد يكفل له هذه الترقية المنشودة.

إنه رجل الجيش المحترف الوحيد بيننا جميعًا. لا يؤمن إلا بما يراه بعينيه.

لقد قرأتِ شَفَتَيَّ، وفهمتِ ما قلته للتوّ.

أرى عينكِ وهي تلمع. هناك بريق يتحرك على سطحها، يشبه رفيف جناحيّ فراشة. ما كل هذا الجمال؟ أذكّر نفسي بأن هذا الجمال يمكنه منحي ثانية إضافية واحدة على الأقل، تسمح لي بسرد حكايتي.. حكايتي أنا.

حلمتُ طوال عمري بأن أكون كاتبًا يا "دورنتينا"، وها أنا الآن.. لا شيء. نقطة دمٍ تتحدث، كما سيقول عني أصدقائي بترانسيلفانيا، صديقٌ مقربٌ من الشاعرة "مسيجو تانجا" من تاكاساكي.

أن تكون كاتبًا هو عملية أشبه ما تكون بعملية الخَلق؛ تصنع أي شيء تريده من العدَم. تظهر فجرًا من قلب الظلام. تخلق لعبتكَ بنفسك. لكن لعبتي قد تحطمت.

في طريق عودتي من آيوا، حلمتُ أنني أطير أعلى من طائر النورس "جوناثان ليفينجستون"، لكنني الآن لستُ سوى هذه النحلة التي سقطت منذ قليل بالقرب من بندقيتي، وأخذت تزحف على الأرض. أنا مثلها. هذا مصيري. هذه نهايتي يا "دورنتينا". صعدتُ سريعًا عقب صدور روايتي الأولى، والوحيدة. فجأة غرقت، مِتّ، ولم يعد لي وجود. الآن، أنا فقط أتنفس لا أكثر، مثلما تتنفس النحلة التي تقف أمامي. كلما سحبت نفسًا، سحبت هي نفسًا، وطوال الوقت يضحك شوك الزهور.

سقطت النحلة، لكن الفراشة التي تحوم حولكِ منذ رأيتك، لا زالت ترفرف بجناحيها.

أتمعن في وجهكِ الذي أصبح لامعًا بفضل انعكاس الزهور الصفراء عليه. أرى نفسي عليكِ. وجهكِ هو مرآتي. يقولون أن الموت هو أيضًا مرآة؛ يرى الإنسان حياته بأكملها أمامه، ويحاول أن يميز نفسه، أن يتذكر نفسه. وعادة ما تكون الصورة الأولى هي ذكرى أقوى اللحظات حزنًا في حياتك؛ أو ربما أجملها على الإطلاق.. لا أدري حقيقةً. أقوى لحظة بالنسبة لي هي تلك التي اكتشفت فيها وجودكِ حين ظهرتِ أمام عدسة بندقيتي، وأدركتُ أنكِ تراقبينني منذ فترة. وكذلك حين رأيتـُـها.. أعني "بلوسوم"، معلمة مادة الأدب في مدرستي الثانوية. لا زلتُ أراها، تركض عبر حقل الذرة. هذا يعيدني إلى قصتي القصيرة الأولى. تلك التي كتبتها عن "ليلي".

حين كانت "بلوسوم" تشعر بالحزن، كانت تقول إنها تحمل نفس أحاسيس "آنا كارنينا" قبل أن تلقي بنفسها أمام القطار. أمَّا حين كان يسعدها أمرٌ ما، كانت تبدو كـ"آنا كارنينا" التي قد لا تخطر ببالها فكرة

الإنتحار على قضبان السكة الحديد، على الإطلاق. كانت الوحيدة التي تعرف بأمر قصتي الأولى. هي التي طلبت مني أن أقرأها لها في غرفة المعلمين.

أرى الزهور الصفراء وهي تتمايل أمامكِ يا "دورنتينا". تذكّرني بقطع الـ"دانتيل" الهفهافة على فتحة صدر ثوبها، والتي كانت تتحرك بتناغم مع إيقاع ضربات قلبها.

من الغريب أن يتذكَّر رجل هذه التفاصيل الدقيقة قبل موته بلحظات. إنني حتى أتذكر رائحتها؛ شذى زهور الربيع الصفراء يا "دورنتينا". حتى ذكراها الآن، رائحتها تشبه عبير زهور الربيع. أمسكتْ الدفتر بيدها اليسرى، ومحت بقلمها العنوان الذي اخترته: "الولد والبرق". ثم كتبت: "تحت شجرة الحب والموت". ابتسمنا معًا، وغطى كل منا فمه بكفِّـــه، وكأننا نختبئ من شخصٍ ما. ولكن لسوء الحظ، حتى مع هذا العنوان الجديد، لم ترَ القصة النور أبدًا. لم ينشرها أحد. كانت الوحيدة التي تعلم أنني أرسلتها إلى ثلاث مجلات أدبية، وأن أيًّا منها لم تهتم بنشرها.

إنني أراها الآن، أمام عينيّ يا "دورنتينا"، وكأنها تطير في الهواء، في المسافة التي تفصل بيننا، أنا وأنتِ. ها هي تحدثني للمرة الأولى عن آيوا سيتي. عن ولاية آيوا. عن الولايات المتحدة الأمريكية. أستعيد صوتها وهي تنصحني، قالت:

– أنت موهوب. تجيد سرد القصص الجيدة. لكن هذا وحده غير كاف. عليك أن تتعلم كيفية اختيار الموضوع، وعليك أن تصنع أسلوبًا خاصًا بك. الأسلوب ينشأ عادة من المقارنة. على سبيل المثال، عبارة مثل "خصلات شعرها تمتد على كتفيها كشبكة عنكبوت".. لا تثير إعجابي؛ لكن الكتابة عن الخصلات نفسها

بأسلوب أفضل يستلزم مقارنتها بشيء أجمل.. "تراقصت خصلات شعرها الطويل على ظهرها بقوة، كأنفاسٍ لاهثة لرجل عاشق" مثلًا. الجملة الثانية أقوى تأثيرًا وتحوي صورة جمالية مختلفة وغير شائعة. أعني لو أنني قرأتها في كتاب، فسوف يغمرني إحساس باضطراب جميل، هل تفهم؟

أضافت:

- ولذلك، عليك أن تتعلم كيف تفاجئ القارئ بتشبيهاتك وتثير إعجابه بها، على الدوام، في كل جملة. يمكنك تعلم ذلك، لا تقلق. لديّ عنوان هيئة تعليمية تهتم بالكتابة في آيوا بأمريكا.

كنتُ أتابعها بعينيّ وهي تتكلم. أحسست كما لو أن الأحرف التي تملأ دفتري، الذي تمسكه بيدها، قد بدأت تتسلل منه وتزحف على فستانها الأبيض. نظرتُ إلى شعرها، خصلاته تتراقص بقوة، كنفسٍ عميق.

واصلتْ حديثها:

- يمكنك أن تتعلم كيف تكتب جملة، لكن الكلمات نفسها هبة إلهية.

قالت ذلك وهي تضع إحدى يديها على بطنها، وتناولني كرّاستي بالأخرى. استدارت ووقفت تنظر خارج النافذة. استطردتْ:

- لن تستطيع كتابة أفضل رواياتك، أو العمل الأدبي الذي سيخلّد اسمك، إلا بعد أن تمرّ بأعظم تحدٍ في حياتك. بعد أن تضطر إلى مواجهة الموت مثلًا. حين تدرك ما هو الموت أصلًا.

أزاحت خصلة من شعرها، وهي تقول:

- الروايات العظيمة، الخالدة، تولد من فهمنا للموت. ولهذا يظل القطار مندفعًا، وتصطدم عربته الثانية بـ"كارنينا" كل مرة، في اللحظة التي توشك فيها على تغيير رأيها. لمَ لا يتأخر القطار أبدًا؟ لأننا أمام رواية خالدة، قدَّرية، لا يمكن لأحد أن يغيّر الأبدية.

قالتها وهي تنظر للمرة الثانية إلى مكانٍ ما يختفي خلف قصتي، أضافت:

- الأعمال التي تنسى صاحبها، هي فقط التي تصبح خالدة.

استطردتْ بنبرات ناصحة:

- نصيحتي لك هي؛ إن امتهنتَ الكتابة يومًا، وصرتَ كاتبًا بحق، فلا تكتب إلا حين تواجه تحديًا عظيمًا؛ عقب خطر يتهددك مثلًا. اكتب حين يداهمك الإحساس بأن هذه العبارة أو تلك قد تكون الأخيرة في حياتك. اكتب كأنما ستموت بعد لحظة، كأنك لا تملك متسعًا من الوقت للشرح والتحليل، والإسهاب في الوصف.

أردفت:

- حين تكتب، تذكّر دائمًا بأن...

سكتت لبرهة، وحرّكت رأسها، فضربت خصلة من شعرها الطويل الإطار السفلي للشبّاك، ثم قالت:

- هناك دائمًا من يتربص بك، ويوشك على القضاء عليك. إما أن تكتب كل ما لديك، وإلا فربما لن تواتيك الفرصة ثانية. عملٌ أدبيّ كهذا يستحق أن تعيش لأجله؛ بل وأن تموت لأجله أيضًا.

كانت تنظر إليّ بعينها اليسرى، أمَّا اليمنى فاختفت وراء خصلات شعرها. انتفضتْ فجأة، وغادرت غرفة المدرسين دون كلمة إضافية. لكنني لا زلت أراها أمامي يا "دورنتينا"، تظهر في الهواء أمامي، وتذوب بعد لحظات. هل كان بإمكاني أن أفعل شيئًا من أجلها؟ شيء أكثر من مراقبة قبعتها وهي تتقافز بخفة على الأمواج الصغيرة للنهر، بينما أركض بين أشجار الصفصاف، دون أن أستطيع، أو ربما دون أن أرغب، في تغيير أي شيء؟ تمامًا مثل "آنا كارنينا" والعربة الثانية للقطار يا "دورنتينا".

ومع ذلك، كنت أرغب بشدّة في أن تسمع قصتي الأولى للنهاية. قصتي عن "ليلِّي".

ولحسن الحظ، بعدها ببضعة أيام طلبت مني أن أقابلها في حجرة المدرسين. لم يكن هناك غيرنا. أنا وهي فقط. أمسكتْ بكراستي، وبدأتْ تقرأ بصوت مسموع:

- حبّات الذرة تتمايل في الحقل، و"ليلي" تركض بينها...

أراقب حركة فمها. أشعر كأنني أنا كل كلمة ينطق بها صوتها. أنا كل حرف ينزلق أو يتكوّر على لسانها. أتمعن في شفتيها مفرطتيّ النعومة. إنها المرة الأولى التي يقرأ فيها أي شخص شيئًا كتبته، بصوت مرتفع. صوتها هو كلماتي. وكل كلمة هي حشرة صغيرة تدبّ على جسدي.

واختصارًا للأمر، فإن "بلوسوم" تقرأ، و"ليلي" تجري في حقل للذرة، يطاردها ولدٌ أسميته على اسمي. ترتجف حبّات الذرة حين تلمس جسدها الدافئ. أوراق النبات تلتصق بساقيها، كألسنة تتذوقها.

أواصل مراقبة معلّمتي وهي تقرأ بحماس كأنما هي التي تطارد "ليلي"، وتسقط معها على أكوام المحصول الوفير. وصل الفتى إليها أخيرًا عند الشجرة الوحيدة في الحقل، الشقرة القصيرة التي تشبه المشروم. تقرأ "بلوسوم":

- سحرتها همسات الأرض، فاستلقت "ليلي" على حبّات الذرة، وأخذت تتقلب حول الشجرة. تدخل الجذوع الصغيرة في فتحات قميصها، وقريبًا من ملابسها الداخلية الرقيقة. يقفز الولد بدوره على أكوام المحصول الناعمة كالثلج. الحقل بأكمله، هما والشجرة التي تشبه المشروم، لا بل تشبه الشمسية، جميعهم ارتجفوا. بسبب همس الذرة حولهم.

قرأت معلمتي، على الرغم من أنني أعرف كل كلمة قبل أن تقولها:

- اندفعوا كالحلزون الذي لا يستطيع تفادي حلزونًا آخر. كل ما استطاع الفتى فعله هو أن أطلق زفيرًا عاليًا، بينما ضحكت هي بينما تدفع بنفسها أسفله كي يستطيعوا أن يتدحرجوا معًا أكبر قدرٍ ممكن. الشجرة الوحيدة التي تقف بجانبهما، تميل مع الأمواج التي يصنعانها في الذرة. من يعرف أي حدود قام هذان الإثنان بتجاوزها خلال لهوهما الدافئ والمثير. وحين فتحا أعينهما أخيرًا، شاهدا ضيوف حفل زفافهما وهم يقفون حولهما، ممسكين بأيدي بعضهم. كوّنوا دائرة، في صمت تام، وبدأوا يرقصون أغرب رقصة شاهداها في حياتهما. حاصروهما بالدائرة المغلقة، وأطلقوا بغتة صيحة مرتفعة. في تلك اللحظة فقط، لاحظت "ليلي" وفتاها أن هناك رجل أسود يجلس على الأرض مستندًا إلى جذع الشجرة. لم يترك البرق منه سوى عينين تنظران باتجاه السماء، وفم مفتوح.

قال الولد مخاطبًا عيون الراقصين الذين حاصروه والفتاة داخل دائرتهم المغلقة:

- إما أنه يدعو ربه، وإما أنه يطلق اللعنات.

سألتني "بلوسوم":

- من كتب هذه القصة؟

- أنا.

- قصةٌ حقيقية. الرجل الذي قتلته الصاعقة حقيقي. عرفته من عينيه اللتين تنظران إلى السماء. لو لم يحرقه البرق، لكان مثلًا "رودولف" عشيق "إيما بوفاري"، أو ربما "آندريه" حبيب "آنا كارنينا". كلا، لا يمكننا عقد المقارنات في هذه المرحلة، لأني لم أشرح لك ذلك بالتفصيل بعد. ومع ذلك، يمكنني أن أخبرك بما أعرفه عن هذه الشخصية؛ ولكن قبل كل ذلك، أخبرني عمّا تعرفه أنت عن "ليلي".

- ينتظرها مصير مأساوي. الحقيقة أنني لم أنتهِ من كتابة القصة القصيرة بعد.

- لا أصدق أنك باستطاعتك كتابة الحقيقة كاملة. للقصة نهاية حقيقية. "ليلي" كانت زميلتي في المدرسة الثانوية. أظن أنني زاملتها لعام واحد فقط. كانت تكبرني بعامين. نهايتها كانت مأساوية بالفعل. لا أصدق أنك تعرف شيئًا عن هذا الموضوع!

قالت الجملة الأخيرة وهي تجمع خصلات شعرها وتربطه بسرعة على هيئة ذيل حصان.

أجبتها معترفًا:

- كنت قد قرأتُ في صحيفة قديمة تقريرًا عن فتاة تحمل الإسم ذاته، وكيف أنها توفيت بطريقة بشعة. أردت أن أكتب قصة رومانسية تدور حول الحب، وأن تُروى الأحداث من خلال عينيّ رجل تعرّض لصاعقة.

سألتني:

- لماذا؟

- لأن البرق يظل داخل العينين. هذا الرجل لم يعد بإمكانه أن يسمع شيئًا، أو أن يقول شيئًا. يستطيع فقط أن يرى ما يراه البرق. لقد قرأت عنه هو أيضًا في الجريدة. قررت أن أضيف شخصية عازف بوق للأحداث. سأجعله...

قاطعتني "بلوسوم" على الفور:

- كان موجودًا بالفعل. وقف على حافة الدائرة، وراح يلملم التنهدات والزفرات ببوقه. حين رأى "ليلي" لمعت عيناه كثعلب، وقال لنفسه هامسًا بأنه حين يموت الإنسان تموت معه أفكاره، وأعلن للموجودين أنه كان للراحل خطط كثيرة. قال لهم: "الرجل تحت الشجرة هو أخي، ولثلاثة أشهر متواصلة ظل ينتظر حدوث صاعقة، إلى أن صادفها بالفعل. أراد أن يثبت أنه على استعداد لأن يتحول إلى فراشة، حتى تحبه فتاة أحلامه". قال ذلك، ثم راح يجري متلفتًا حوله كأنما يبحث عن فراشة. جلستُ و"ليلي" على أكوام الذرة، وانخرطنا في البكاء. واصل عازف البوق حديثه قائلًا: "الأحياء موقنون بأنهم

سيموتون، ولذلك فإنهم يعرفون كل ما ينبغي معرفته عن الموت. لكن الموتى لا يعرفون شيئًا عن الأمر، لأنهم لا يملكون شيئًا يقارنونه به".

أضافت "بلوسوم":

- قال ذلك، ثم ابتعد عن المدعوين وتكوَّر حول نفسه، كيمامة بللها المطر. وفي الشهر التالي، عاد من جديد بشارب مصبوغ بنفس لون شعر "ليلي". عقب ذلك بثلاثة أيام، غادرت معه رغم توسلاتنا لها، أنا والفتى، بألّا تذهب. كنت أعرف جيدًا أي نوع من الرجال هو، عازف البوق ذاك. سوف أخبرك بكل شيء، ويمكنك بعدها أن تؤلف القصة بطريقتك، كما تشاء.

صمتت قليلًا، ثم قالت:

- الرجل الذي صعقه البرق تحت الشجرة، في حقل الذرة، كان أستاذًا للأدب. التحق حينها كمعلم جديد في مدرستنا الثانوية. كان مغرمًا بي، بشكلٍ غير معقول، يقترب من الجنون. في إحدى المرات، صارحته بأن حبي كالبرق وقلت ضاحكة بأني أحوّل الرجال إلى فراشات. أرسل لي ورقة بعدها، كتب فيها "انتظريني. سأعود إليكِ كفراشة".

أضافت معلمتي بصوت متهدج:

- عازف البوق هو شقيقه. شخص حقير لا يكف عن الكذب أبدًا. حياته سلسلة متصلة من الأكاذيب. للأسف، لم تستمع "ليلي" إلى نصيحتي، وأصرّت على المغادرة. وقفتُ أودِّعُها خلف المنزل، وقد اتكأت كل منّا على درَّاجتها. عانقتها، وامتزجت دموعنا معًا. قالت لي حينها: "كما ترين، لا أمل في أن أعيش

حياة أفضل هنا. لا شيء يحدث هنا في الأساس! أريد أن أفرد جناحيّ وأن أنطلق في حياة أرحب، وأن أرى كيف هي الأوضاع وراء التسع مقابر والتسعة جبال. أود أن أخوض التجربة بنفسي، لعام واحد على الأقل. لا أريد أن أظل وحيدة كتلك الشجرة الملعونة في حقل الذرة، يا حبيبة قلبي". لم تكن تخاطبني بـ"حبيبة قلبي" إلا حين تكون حزينة جدًا. بعد ذلك، سألتني: "هل كان الإنسان سيحلم بالطيران ويسعى لتحقيق حلمه، إن لم يلاحظ أن هناك كائنات أخرى بإمكانها فعل ذلك؟".

أكملت وهي تنظر في عيني قائلة:

- لا زال صوتها يرن في أذنيّ، ويدور في رأسي كحلقات مفرغة. ثم قبّلتني بسرعة وخفة، كفراشة حطت على خدي. تابعتُ قدميها وهما تبتعدان داخل صندلها الأبيض الذي اعتادت انتعاله يوميًا، عدا حين يكون الجوّ ممطرًا.

قالت بعد لحظة صمت:

- تُرى، هل كانت تعلم أن الحياة ليست قدرًا محتومًا، وإنما خيارات نقوم بها؟ عقب هروبها معه بدأ عازف البوق يبيع جسدها لراغبي المتعة. ظل يفعل ذلك لستة أشهر متتابعة، إلى أن استطاعت بطريقة أو بأخرى أن تفر منه. بعدها، ولسنوات، لم أعلم أنها عادت.

لأخبركِ الحقيقة يا "دورنتينا"، الواقع أن معلمتي لم تعرف الحقيقة إلا بعد مرور وقت طويل. عاشت "ليلي" لنحو عامٍ كامل في إحدى القرى الحدودية الجنوبية، ثم تزوجت شابًا يحمل اسم "كونستانتين"، هو نفسه فتى القصة القصيرة. عاشا معًا في كوخ صغير يجاور محطة قطار قديمة، مهجورة. في أحد

الأيام، اقترب من الكوخ ثلاثة رجال، هم أقاربه من جهة الأم. لهم أجساد قوية، وشوارب طويلة تتدلى أطرافها على صدورهم، يحملون شوكًا ضخمة، من النوع المستخدم في تقليب أكوام القش في المزارع. كانوا مدججين أيضًا بعصي غليظة. اعتقدوا أن الفتاة أغوته على حافة النهر، وساقته وراءها ليعيش معها. لم يخطر ببالهم أبدًا أنهما يحبان بعضهما. ابن الخالة الذي كان يدرس ليصبح قسيسًا، جاء ممتطيًا حمارًا كان قد عثر عليه خلف بيته، وأعلن فور وصوله أنه يعرف أنها ساحرة شريرة، وأنها كانت تمتص مخ "كونستانتين" ليلًا أثناء نومه، ولذلك فإنه لا يعي ما يحدث له على يديها؛ الولد يجهل حقيقتها، ولا يعرف ماضيها المشين. أما الأخ الأكبر، صاحب أطول شارب فيهم، فقد انهمك في حفر صليب ضخم على باب الكوخ، وهو يصيح طالبًا من الساحرة أن تخرج إليهم فورًا، بدون استخدام سحرها. حين خرج الفتى إليهم، في نهاية الأمر، اندفع الأخ الأكبر داخل البيت، وهو يزوم ويشهق كخنزير بري. خلال ذلك، كان الأخ الذي يوشك أن يرسَّم قسيسًا، يطوف حول البيت متمتمًا بكلمات غير واضحة، وهو يلوّح بمصباح مشتعل بيده. أمسك الأخ الأصغر، وهو أشدهم قوة وأضخمهم حجمًا، بـ"كونستانتين". وحين قاوم الفتى مقاومة عنيفة، حمله تحت ذراعه، وقام بتكتيفه مستخدمًا طرفيّ شاربه الطويل؛ ثم حمله على ظهره ومضى به، متسلقًا التلال التي قابلتهما في طريقهما للبلدة، وقد ارتفع صوته مترنمًا بأغانٍ وطنية. راقبتهم "ليلي" عبر النافذة، إلى أن اختفوا جميعًا عن ناظريها. كانوا قد ربطوها إلى إحدى أرجل السرير.

في القصة القصيرة التي كتبتها، ذكرتُ – معتمدًا على المقال الذي قرأته في الجريدة – أن الفتى قد تمكَّن، بطريقة ما، من العودة إلى الكوخ في الليلة نفسها. وفي الربيع التالي، كانا يحتفلان بولادة طفلهما الأول.

تقبَّل أبناء الخالة مشيئة القدر، لكنهم لم يتقبَّلوا أبدًا فكرة اقتران ابن خالتهم بـ"ليلي"، وقاطعوهما للأبد. بعد مرور ستة أشهر، أعلن والدا الفتى رغبتهما في المصالحة ورؤية حفيدهما، وقاما بدعوتهما لزيارة البلدة. في صباح أحد الأيام، حملت "ليلي" طفلها وغادرت الكوخ بصحبة زوجها، وركبا القطار الذي يمرّ بجوار بيتهما على فترات متباعدة، غير منتظمة. مرّ القطار عبر حقل مترامي الأطراف، وتخطَّى ثلاثة أنهار شمالية. بعد ثلاث ليال، وصل القطار إلى "سرمنيتزا". ذكر المقال أنهما كانا في منتهى السعادة، وأن طفلهما ظل مبتسمًا طوال الوقت، بينما كان القطار يطلق صافرته بجوار حقول الذرة. كتب الصِحافي أن "ليلي" جلست بجوار نافذة القطار، مستمتعة بالأجواء الربيعية، وهي تحتضن رضيعها، وتراقب الفراشات البيضاء الصغيرة وهي تطير قريبًا من الشباك. ناولت الصغير لزوجها، وألصقت وجهها بالنافذة لتداعب الفراشات كطفلة صغيرة.

في التلال القريبة، انتشرت عربات الجيش وسيارات الـ"چيب" والدبابات العسكرية. زحف جنود بخوذات مغطَّاة بأوراق الشجر في حقول الذرة. كانوا يرفعون رؤوسهم من حينٍ لآخر كالكلاب الشرسة. حسب كلام عامل القطار، الذي أورده التقرير الصحفي، فقد بدأت في ذلك الصباح أكبر مناورة وتدريبات عسكرية في المنطقية، ممَّا أتاح لركَّاب القطار رؤية "حرب" حيّة وحقيقية تدور أمامهم على امتداد أميال طويلة.

اقتربت الدبابات من محطة السكة الحديد. هل انتبهتِ لما قلته يا "دورنتينا"؟

الدبابات تقترب من المحطة.

أرى أنكِ حبستِ أنفاسكِ في ترقب، وكأنك تتابعين الدبابات بنظراتكِ. كما أرى ابتسامتكِ الفضولية، وبريق عينيكِ، ما يعني أنكِ تفهمين كل ما أقول، وأنكِ أحببتِ سير الأحداث لأن "ليلي" قد عرفت معنى السعادة أخيرًا.

ولكن للأسف الشديد، فإن أعظم سعادة يختبرها الإنسان، لا بد أن تعقبها كارثة كبرى.

أكرر، كارثة يا "دورنتينا". هل سمعتِ ما قلت؟ كارثة كبرى.

الفراشات التي ظلت تطير بأعداد كبيرة بجوار النافذة، وتحطّ على الأزهار الحمراء والصفراء المنتشرة في الحقول، اختفت كلها في نفس اللحظة. اندفعت قذيفة من إحدى الدبابات وضربت القطار. اصطدمت برأس "ليلي"، كما لو أن أحدًا تعمَّد أن يصوِّب القذيفة على رأسها بالضبط. ماتت على الفور، دون أن تلحظ العَلَم الأبيض الذي راح يرفرف أعلى الدبابة.

كانت "ليلي" هي الضحية الوحيدة لهذا الحادث المؤسف.

لم يكمل الفتى رحلته إلى بلدة أبويه، وإنما عاد بزوجته الراحلة إلى كوخهما. أبقاها هناك لمدة يومين، إذ لم يرغب في دفنها في الحقل، وإنما في مقبرة المدينة مع والديها، لكنه لم يكن يملك أي مبلغ من المال يدفعه مقابل دفنها هناك.

كل هذا، وكل ما مرّ بـ"ليلي" في حياتها، قصَّه الفتى على صحافي الجريدة الذي كتب تقريرًا مطولًا، قرأته في عدد قديم للجريدة وجدته في المكتبة العامة.

أرى دمعة في جانب عينكِ اليسرى يا "دورنتينا". ها هي تسيل على خدك، وتنزلق على يدك الممسكة بالبندقية.

حين انتهيتُ يومها من السرد، داخل حجرة المعلمين، علّقت "بلوسوم":

- أنا أيضًا قرأت الموضوع في الصحيفة، في تلك الفترة. فاشتريتُ تابوتًا وورودًا، واستأجرتُ عربة نقل موتى، وتوجهتُ إلى الكوخ فجر ثالث يوم لوفاتها. كان الوقتُ ربيعًا كما تعلم، هطلتْ الأمطار على التلال، وانتشرت البروق في السماء، وصدر حفيف متواصل عن أوراق الذرة في الحقول، كأنما كانت لا تزال تركض وتتدحرج بينها.

استدركتْ:

- بعد مرور ثلاثة أشهر، ولأنه لم يكن يملك ما يعينه على تربية الصغير، اضطر إلى عرضه للتبني. تبنته أسرة في قرية ما، لا أعرفها. ومنذ ذلك الوقت، لم أسمع شيئًا يخصّ الصغير أو والده. حين يحلّ الربيع، كل عام، أذهب للحقل وأنصت لحفيف أوراق الذرة من حولي. أنا أؤمن بأن الأرواح تبقى بيننا، لأن الإله توقَّف منذ زمنٍ بعيدٍ عن خلق أرواحًا جديدة، الحياة تتجدد فقط من أجل الإستعراض.

قالت ذلك وهي تقف أمام النافذة، ترسل نظراتها إلى مكانٍ ما ناحية التلال البعيدة، وعندها، وقبل أن أغادر غرفة المدرسين، رأيتها تعطي معنى للنافذة وللسماء التي تمتد خلف البيوت.

تعود ذكرياتي لي الآن بسرعة عظيمة يا "دورنتينا"، لقد ظننتُ وقتها بأنني أنا من ابتكر شخصية "ليلي" ضمن أحداث قصتي القصيرة. ثم اكتشفت لدهشتي البالغة بأنها حقيقية تمامًا، وأن طبيعتها وتفاصيلها في الواقع تماثل تلك التي كتبتـُـها. "بلوسوم"، بطبيعة الحال، حقيقية تمامًا؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يرسم مثل هذه الشخصية. ما يمكننا رؤيته هو ما نصنعه نحن بأنفسنا، أمَّا ما لا نراه فذلك صنعٌ إلهي.

هل كان بإمكاني أن أفعل شيئًا من أجلها يا "دورنتينا"؟

إن روحها الهائمة هي عقابي الأبديّ.

قالت لي بصوت هادىء:

- هناك أرواح ترفرف كالفراشات، فوق القبور، ثم ترتفع عاليًا، وتطير وتختفي بعيدًا.

كنت أصغي إليها وأنا أتابع بعينَيّ خصلات شعرها وهي تلتف قريبًا من رقبتها. ثم خُيِّل إليّ أنني ألمح فراشة وحيدة خارج النافذة.

كانت وحيدة مجددًا في غرفة المدرسين، كانت تجلس خلف المكتب الطويل، ظهرها محني بعض الشيء، وهي تدسّ يديها بين ركبتيها المضمومتين. كانت تفعل هذا كل مرة تجلس فيها متأملة فيما خلف النافذة، قالت:

- الناس في هذه الأنحاء يؤمنون بأن أرواح الفتيان التعساء في الحب تتحول في أحيان كثيرة إلى فراشات، وبخاصة حين تلتقي بصواعق تتعرف على أرواحهم. كان يكتب لي كلمات كثيرة جدًا على صفحات كراسة الواجب، وأجده في انتظاري

أينما ذهبت، وراء كل شجرة. كان ذلك يزعجني. أردته أن يتوقف عن هذه الأفعال. كنتُ طالبة ثانوي صغيرة، وكان هو معلمي. لو كان هذا حبًا، فهو لم يكن منطقيًا، وبخاصة في هذه البلدة التي تمتلئ بمدّعي الفضيلة، وبالعُصَاة. وقفتُ هناك في نفس المكان الذي تقف فيه أنتَ الآن. الفارق هو أنه لم يكن ينظر إلى خصلات شعري على عنقي، بل كان ينظر في عيني، قال لي: "سأستحيل إلى فراشة، في يومٍ ما، وسآتي لزيارتكِ. سأقف على حافة الشباك، لكنني لن أحطّ على كفكِ أبدًا.. أبدًا". سألته وأنا أغطي فمي بيدي، حتى لا يلاحظ ضحكتي: "لماذا؟"، أجاب: "لأنكِ لا تصدقينني". استدار وغادر بهدوء.

رمقتها بطرف عيني، فوجدتها تضغط بركبتيها على ذراعيها بقوة، وهي لا تزال شاردة ببصرها خارج النافذة.

وحسبما أتذكر، كانت الفراشة البيضاء لا تزال ترفرف بجناحيها خلف الزجاج؛ لكن حين فتحت "بلوسوم" النافذة، اختفت الفراشة على الفور.

رغم أن الفراشات تكونت بالصدفة، كما أظن، إلا أنها تعمدت التواجد لتخبرنا شيئًا يا "دورنتينا". من يدري؟ ربما أنا الذي أرغب في الإيمان بمعجزة، والمعجزات لا تحدث إن لم تؤمني بها. على أي حال، منذ ذلك الوقت وأنا أحرص على التحدث إلى كل فراشة أراها، مقتنعًا بأنها أرواحٌ متناسخة. لا شيء أجمل ولا أهدأ من تلك المخلوقات الرقيقة.

أؤمن أيضًا بأن الروايات تمتلئ بها، فالمؤلفون لا يخلقون أجسادًا، بل أرواح. أرواحٌ فقط. الشخصيات في الكتب ليست أجسادًا على الإطلاق يا "دورنتينا"، بل أرواح، فراشات من نوعٍ ما، شيء جميل وهادئ كالأبدية.

في ذلك النهار، وقفتُ أمام النافذة في حجرة المدرسين، وأنا أحتضن دفتري الذي يضم حكاية "ليلي"، وقد استغرقتُ في تفكير عميق متسائلًا ما إذا كنتُ سأتحول إلى فراشة في يومٍ من الأيام، إذا وقعت في حب معلمتي؟

لكن وقوفها المفاجىء انتشلني من خيالاتي. قامت واقتربتْ مني، وبإشارة من يدها فهمتُ بأنه ينبغي علي أن أسبقها في مغادرة الحجرة.

في تلك الأيام، بطبيعة الحال، لم أكن قد كتبتُ في كراستي بعد أي كلمات تكشف ما سيدور بيننا مستقبلًا، بعد سنواتٍ عديدة.

بعدها بدقائق، وقفتْ "بلوسوم" أمامنا داخل الفصل، تشرح لنا أهمية التحكم في المشاعر، وتحدثنا عن مفهوم الإنحلال الخلقي. ثم أنبأتنا بأننا سنتكلم، خلال الأسابيع القادمة، عن ثلاث حكايات خالدة عن ثلاث نساء وثلاث مآسي. ثم ذكرتْ شيئًا عن خصلات الشعر التي تلتف قريبًا من الرقبة، ففهمتُ على الفور مَن تقصد بكلامها.

كانت تعني..

هل تعرفين عمّن تتحدّث يا "دورنتينا"؟

# 5

قالت معلمتنا، وهي ترسم صورة لنا:

- تخيّلوا قطارًا كبيرًا، يشق طريقه نحونا من مسافة بعيدة. إنه من أحدث طراز في تلك الحقبة الزمنية، إذ لم تمرّ سوى عشر سنوات على اختراع القاطرة البخارية. نحن الآن نقف بجوار قضبان السكة الحديدية، نراقب العربات المتوالية للقطار، والعجلات التي تحتكّ بالقضبان. تصل العربة الثانية، وفجأة تطير منها حقيبة يد حمراء اللون وتقع على الأرض. القطار يواصل سيره مندفعًا، والبخار ينبعث منه. الدخان يطير نحو التلال القريبة. نلاحظ أن المحطة هادئة جدًا. فراشة بيضاء صغيرة تحوم قريبًا من القضبان، وتقول: "أنا "آنا كارنينا"، وتلك شنطتي الحمراء الصغيرة، وفكرة الإنتقام فكرتي وحدي، وقد نفذتها بدلًا من أن أكتفي بمشاعر الإحتقار المتبادل بيني والآخرين. تزوجتُ الكونت "آليكسي آليكزاندروفيتش كارنين"، وأنجبتُ منه ولدًا هو "سيريوجا"؛ لكنني مغرمة بـ"آليكسي فرونسكي"، الذي صارحته بشجاعة بأنني حامل. شحب لونه على الفور، ولم يستطع النطق. أطرق برأسه، ثم قال: "لقد تمّ تحديد قدرنا. علينا أن نضع نهاية للكذبة التي عشناها. أي وضع آخر في الحقيقة أفضل من وضعنا الحالي الذي يضعك تحت ضغوط متعددة؛ العالم، وابنكِ، وزوجكِ. علينا أن نرحل". احمرّ وجهي، وملأت الدموع عينيّ. قلت وقد غمرني إحساسٌ فظيع

بالحرج البالغ: "زوجي لا يعرف". لمعت عينا "آليكسي" ببريقهما المألوف. في تلك اللحظة سمعتُ صوت إبني وهو يدخل البيت، فمددت بسرعة يَدَيَّ المرصعتان بالخواتم الثمينة، وأمسكت برأس "آليكسي" وقبَّلته قبلات خاطفة على شفتيه وعينيه، ثم دفعته بعيدًا عني. هممتُ بمغادرة الغرفة، لكنه استوقفني وسألني بجرأة: "متى؟". أجبته هامسة: "الليلة. في الواحدة بعد منتصف الليل". أسرعت بالمغادرة لأستقبل "سيريوجا""".

سكتت المدرِّسة، لكننا كنا لا نزال مسحورين بالكلمات التي سمعناها، وبالصورة التي رسمتها لنا. أكاد أقسم بأنني رأيت الفراشة البيضاء تطير أمامي، وأننا جميعًا سمعنا صوت صافرة القطار البخاري وهو يبتعد باتجاه التلال.

ومعلمتنا واقفة هناك، مستندة على النافذة، تنظر إلى الغيوم المتناثرة، عبر نافذة الفصل. ساد الصمت التام المكان. غمرني إحساسٌ بأننا لسنا في حصة مادّة الأدب، وإنما في جلسة لدى وسيطة روحانية. ارتعشت يدا "بلوسوم" المسكتان بالكتاب، فاحتضنته قريبًا من صدرها . تنهدت قائلة:

- حين تنتهي الإثارة، لا تبقى إلا الأخطاء.

ثم استدارت ثانية، وواصلت النظر عبر النافذة، وارتعش جسدها قليلًا كما لو أن هواءً باردًا مر بها فجأةً. قلّبتْ صفحات الكتاب، إلى أن وصلتْ إلى الجزء المتعلّق بـ"فرونسكي" وهو ممتطٍ فرسته "فرو- فرو"، محاولًا النفاد من المصارع. في اللحظة التالية، سقطت "فرو – فرو" فجأة على جنبها. كانت تتنفس بصعوبة، وتكافح لتنهض مجددًا، ولكن بلا فائدة، كانت تنتفض إلى جانب قدمي "فرونسكي" كطائر جريح.

واصلت المعلمة القراءة:

- "حين غادرتُ سباق الخيل، وركبتُ العربة وأنا أشعر بأنني عصفور جريح داخل العربة، قررتُ مصارحة الكونت بشأن "فرونسكي". غطيتُ وجهي بيديّ الاثنتين، وانخرطتُ في بكاء هادىء. أتذكر جيدًا أن زوجي "آليكس آليكزاندروفيتش كارنين" لم يهتم بالنظر إليّ، بل ولم يتحرك ولو قليلًا في مقعده. حين اقتربنا من المنزل أعلن بأنه سيبلغني قراره في الغد".

واصلت الفراشة طيرانها أمامي وزملائي. حمل إلينا النسيم القادم من جهة النهر خليطًا من روائح الطين، وزهر البيلسان، والنعناع البرّي. انساب صوت المدرّسة مجدّدًا، يحمل لنا كلمات الفراشة:

- لم يرغب في دخول صراع، ولا في الطلاق أيضًا. واصلنا العيش في بيت واحد، ولكن غرباء. ورغم أن العزيز "آندريه"، ملاكي الحبيب، لم يعد يأتي لزيارتي في المنزل، إلا أن الكونت كان يدرك بأن لقاءاتنا لا تزال مستمرة. كما أن موعد ولادتي اقترب.

استطردت المدرّسة:

- سقطت الفراشة فجأة، كورقة شجرة جافة. وكأنها قد ماتت.

تبادلتُ وزملائي نظرات منزعجة، وقد أقلقنا أن تموت الفراشة مبكرًا. لكنها سرعان ما عادت لرفرفة جناحيها في حيوية.

أخيرًا، قرر زوجها أن يهجرها، وأن يغادر إلى موسكو، مصدرًا أوامره بأن يبقى ابنهما مع عمته. صاحت "آنَّا" بجزع، ممسكـَةً بذراعه:

- دع "سيريوجا" معي.

لكن الكونت انتزع ذراعه من قبضتها، وغادر صامتـًا.

تنهدت المعلمة، وصمتت بدورها. خُيّل إليّ أن الفراشة قد استقرت على فمها، لتمنعها من مواصلة الكلام.

عمّ هدوءٌ تامّ أرجاء الفصل يا "دورنتينا"، لم يقطعه سوى عاصفة رعدية تخللها هطول أمطار غزيرة تساقطت حباتها كدموع امرأة حزينة على زجاج النافذة.

وعلى الرغم من أن صوت المياه وهي تنهمر على زجاج النافذة كان عاليًا، إلا أن الصمت كان يحيط بنا جميعًا بالداخل. كان هناك صمتٌ رهيبٌ يهيم حولنا، تمامًا كالصمت الذي يسبق استدعاء أرواح الموتى إلى الحياة. واصلنا التحديق في شفتي المعلمة، في انتظار أن تعلن عودة الفراشة للطيران وسرد الحكاية. كانت مياه المطر قد أغرقت معلمتنا، ولكن الكتاب الذي كانت تحمله في يديها، كان جافًا تمامًا. ضجّ هواء الحجرة بالفضول المنبعث من كل واحد منّا؛ كالفضول الذي يتملككِ الآن يا "دورنتينا". كلنا كنا نرغب في معرفة ما حدث عقب مغادرة الكونت إلى موسكو. هل أنجبت "آنا" طفلها؟ كيف تطورت علاقتها بعشيقها، وكيف انتهت؟ كنّا جميعًا متأكدين من أن زوجها كان فظيعًا في تعامله معها، أن أذنيه كانتا كبيرتين، وأسنانه صفراء، على الرغم من أنه كان شديد الوسامة قبل أن يتزوجا. الحب إثارة يا "دورنتينا"، و"حين تنتهي الإثارة لا تبقى إلا الأخطاء".

أتذكّر "بلوسوم" جيدًا، أتذكّر كلماتها والكتاب يرتعش في يديها وكأنه على قيد الحياة. كانت تستند على النافذة، وظهرها للمطر. وضعت ساقًا فوق الأخرى، فبدا فخذاها المثيران أكثر استدارة. ألقت السماء بظلالها على خدها المجاور للشبّاك، فيما انعكس شعاع الشمس الباهت على جانب شفتيها.

واصلت سردها للحكاية:

- "في أحد الأيام، تلقّى "آليكسي آليكزاندروفيتش" برقيــّة من "آنا"، تقول فيها: "إنني على فراش الموت، أرجوك، تعالَ إلي. بعفوك، قد أموت في سلام". كان يعلم أنها حبلى، ويعلم أيضًا بأن الجنين ليس ابنه وإنما ابن "فرونسكي"؛

لكنه قال في نفسه: "إذا كانت على فراش الموت حقًا، فسيظنني الجميع عديم المشاعر". ولذلك قرر العودة إلى مدينة سان بطرسبرج".

توقفت المعلمة عن الكلام، ومعها طارت الفراشة بعيدًا عن شفتيها، ومجددًا عادت إلى السكة الحديد التي تمتد أمامنا.

واصلت قائلة:

-"حين وصل الكونت إلى سان بطرسبرج، وجد "فرونسكي" جالسًا بجوار سريري، وقد غطى وجهه بيديه وهو يبكي بحزن بالغ". أزاحت "كارنينا" يديّ "فرونسكي" عن وجهه المُحرَج، وربّتت على رأسه كما لو كان طفلًا. "كرهتُه لطيبته".

استبدلت المعلمة ساقها اليمنى باليسرى في جلستها. لاحظنا احمرار ركبتها اليمنى، وكأنها محرجة منَّا. نظرت إلي يا "دورنتينا"، نظرت إلي أنا، حينها وددتُ لو خبّأت وجهي خلف يديّ لأبكي؛ ولا يهم إن كان ذلك من فرط السعادة أو من الإحساس بالخزي. قالت:

- بعد يومين أنجبتْ "آنَّا" طفلتها "آنَّا". لكن مشاعرها نحو المولودة الجديدة كانت فاترة جدًا، للأسف، ولا يمكن مقارنتها بحبها العظيم لابنها "سيريوجا"، رغم أن الأخير كان ابن الرجل الذي لم تحبه يومًا. لكن علينا أن نتذكر أن الطفلة قد وُلدت في ظروف مزعجة للغاية.

صمتت المدرّسة، وراحت تنقر بأطراف أصابعها على إطار النافذة. كان المطر قد توقف، لكن الفراشة ظلت هناك، داخل القصة، إلا أن حركة جناحيها كانت آخذة في التباطؤ، ورغم ذلك قالت محاولة التغلّب على إرهاقها:

- "مرّ عام دون أن أرى "سيريوجا" الحبيب. في السنوات التي تلت ذلك لم يسمع عني شيئًا. تعرّف إلى أصدقاء جدد أمضى معهم ما تبقى من سنوات طفولته. تلاشت ذكرياته عني مع الوقت تمامًا. حين سأله أخي "ستيبان

آركاديفيتش" مرة إن كان لا يزال يتذكرني، أطرق برأسه نافيًا. أمَّا الحياة بالنسبة لي و"فرونسكي" فاستحالت إلى عذاب بسبب الإنتقادات المتواصلة من الجميع. كنت أشعر بأسى بالغ في علاقتي معه، لا بسبب وجود امرأة أخرى في حياته، وإنما لأنني لاحظتُ فتور مشاعره الواضح نحوي. لم أعد أتردد في إلقاء اللوم عليه بسبب كل ما مرّ بي. كما لم أتوقف عن اتهامه بأنه لا يحبني بشكل كاف. نظر إليّ ببرود، معلنًا: "لقد نفد صبري! لم أعد أتحمّل". لاحظتُ أنَّه يرغب في قول المزيد، لكنه استطاع السيطرة على نفسه واكتفى بهذه العبارة. صحت وقد غمرني الإحساس بالفزع: "ماذا تعني؟"، نظرتُ إليه، فوجدتُ أن ملامحه، وبخاصة عينيه، تفيض بالكراهية. أجاب غاضبًا: "ماذا تريدينني أن أقول؟ أرغب في الحب، لكنه لم يعد موجودًا". "إذن، انتهى كل ما بيننا؟". استدرتُ لأغادر، لكنه صاح بمزيج من الأسى والخوف: "انتظري!". لحق بي، وغمر يداي بالقبلات. احتضنته ورحت أقبّل رأسه ورقبته ويداه".

بدأت الفراشة تحوم حولنا داخل الفصل. أطلقتْ زميلاتي الجالسات أمامي تنهيدات حزينة، وهن يحاولن مسح دموعهن بسرعة. انبعث منهن عبير الفراولة الذي خلّـفه أحمر الشفاه الخفيف، الذي وضعنه خلال الفسحة، عقب تدخينهن للسجائر في حمامات الدور الثاني. وحدها المعلمة احتفظت بهدوئها، ولم يبدُ عليها التأثُّر بسير أحداث القصة، تمامًا كشخصٍ يعلم ما ستنتهي إليه الأحداث، وقالت:

- بالرغم من كل هذه القبلات الكثيرة التي تبادلاها، فقد استمرت خلافاتهما، واتسعت الهوة بينهما. ولذلك لم يكن مستغربًا أن يغادر "فرونسكي" البيت صباح أحد الأيام، مقررًا عدم الرجوع. أدركت "آنا" بعدها أنها قد ارتكبت خطأ جسيمًا، فكتبت له رسالة. لكن رسولها فشل في إيصال الخطاب. في غمرة إحساسها باليأس، توجهتْ إلى محطة القطار لتطلب منه العودة. في طريقها إلى هناك، ذكّرت نفسها بأنه لم يعد يفتخر بها، كما كان

يفعل في البداية، وأنه صار يشعر بحرج بالغ بسببها؛ كما أن حبه لها قد فتر تمامًا وتلاشى ولم يبقَ منه شيء. أمَّا حبها له، فلم يهدأ أبدًا، بل إنه يتزايد مع مرور الأيام، وإن كان قد بدأ يأخذ منحى أنانيًا.

رفعت "بلوسوم" رأسها عن الكتاب، ونظرت من النافذة قليلًا، ثم قالت:

- حين ينتهي الحب، تبدأ الكراهية.

ضمت الكتاب إلى صدرها، ثم فتحته لتواصل القراءة، وقالت:

- ولكن، لندعها تكمل حكايتها. "ركبتُ أول قطار وصل المحطة. كنت بمفردي داخل العربة التي أخذت تهتز بإيقاع رتيب. غادر القطار المحطة ذات السور الحجري. انزلقت العجلات على القضبان الملساء. أضاءت شمس آخر النهار جنبات العربة، وحرَّك الهواء الستارة التي تغطي النافذة، رافعًا إياها إلى الأعلى. حين اقترب القطار من المحطة التالية، تسللتُ خارجة، ووقفت على الرصيف وأنا أنظر إلى حقيبتي الحمراء الصغيرة. حاولتُ أن أتذكر سبب مجيئي إلى هنا، وما الذي أريد فعله تحديدًا. مرّ بجانبي قطار مسرع، ارتجّ معه رصيف المحطة. تذكرت بأنني أنوي الرحيل إلى مكان ما. فكرت بأنه قد آن الأوان لأغادر. بسرعة، نزلت السلـّـم المؤدّي إلى القضبان، ووقفت بجواره، بينما كان القطار آخذ في التحرك أمامي. رأيت الخطوط المرسومة على جانب العربات، والسلاسل الغليظة التي تربط بين كل عربة والتي تليها. أردت أن ألقي بنفسي تحت العجلات الكبيرة للعربة الأولى، لكن تحرّك الحزام الطويل الذي علَّقت منه حقيبتي الحمراء على كتفي، أعاقني قليلًا. حين انتبهت، كانت العربة الأولى قد مرّت، لكن العربة الثانية كانت تقترب مني وتوشك على المرور بمحاذاتي. ألقيت بالشنطة على الأرض، وأحنيتُ رأسي بين كتفيّ. استندتُ على يديّ. حاولت أن أقف، أن أقفز إلى الوراء، لكن شيئًا ضخمًا ارتطم برأسي بقوة، وسحبني. صحت "سامحني يا ربّ!". ثم سمعت العجلات وهي تواصل انزلاقها على القضبان الحديدية الملساء، مصدرة صوتًا رتيبًا.

رفرفت الفراشة الصغيرة بجناحيها للمرة الأخيرة، قبل أن تختفي تمامًا، كأنما لم يكن لها وجود. أحسستُ بأنها قد تماهت مع الإبتسامة الغامضة والحزينة على شفتيّ "بلوسوم". أغلقتْ الكتاب، ونظرتْ إليّ بشيء من الإرتياح، كأنها انتهت للتوّ من مقاسمتي أحد أسرارها، وليس رواية عالمية يعرفها الجميع.

ضربت فراشة حقيقية زجاج النافذة بجناحيها عدّة مرّات، وهي تحاول دخول الفصل. تابعتها "بلوسوم" بعينيها وهي تقول:

- احتقرها الناس، مع أنها كان بإمكانها أن تكرههم.

لا أعرف رأي معلمتي في الأمر، لكنني أنا شخصيًا كنت مقتنعًا بأن الفراشة خارج الفصل كانت روحًا جاءت إلينا بهدف محدّد؛ أو لعلّها أتت بالصدفة. ربما كنت أنا من يرغب في حدوث معجزة يا "دورنتينا"، والمعجزات لا تحدث أبدًا إن لم تؤمني بها.

بعد عدّة محاولات فاشلة، هدأت الفراشة وبقيت ساكنة على زجاج النافذة لفترة قصيرة، ثم حرَّكتْ جناحيها وطارت مبتعدة، واختفت داخل السحاب الذي يظلّل قضبان السكة الحديد الموجودة في خيالنا فقط.

# 6

ها هي الفراشة يا "دورنتينا"! جاءت من حيث لا أعلم وحطّت أمام عدسة بندقيتي. أرى بعيني اليسرى رفيف جناحيها المتواصل، وأراكِ أيضًا. لا زلتِ تراقبينني. رؤيتكما معًا بهذه الطريقة العجيبة تشعرني بأنها نبوءة ما، رسالة ما، وأنها تودّ أن تبلغني أمرًا محددًا، وإلا لمَ اختارت أن تستقر على بندقيتي بالضبط؟ لمَ لم تهبط على أيّ من النباتات المحيطة بي؟ على زهور الـ"يارو" البيضاء مثلًا؟!

هناك حلقة ما في الطبيعة تربط الأمور المتخيلة بالواقعية؛ يصعب معها تحديد أين تبدأ هذه وتنتهي تلك. ما الذي تريد هذه الفراشة قوله يا "دورنتينا"؟

أنتِ أيضًا ترينها، وتتابعين رفرفتها. أدرك ذلك من عينيكِ الباسمتين. أين تنتهي الفراشة وأين تبدأ ابتسامتك؟ أين تبدأ الأشياء بالإندماج معًا يا "دورنتينا"؟ وما الذي يجعلها تتماهى معًا في الأساس؟

الشمس ساطعة، وأزهار الربيع الصفراء يانعة ونضرة. النباتات ذات الأشواك والأزهار الوردية أمامي تتمايل مع الهواء. وفي الوقت نفسه، وفي مكان ما في الجنوب، على جانبي وجانبكِ من النهر، تنهمر القذائف بقوة. قذائف تريد أن تريد أن تخلق نوعًا من التغيير. ربما تودّ تلك القذائف أن تزرع زهور الربيع

في الجهة التي تقفين فيها، ونباتات الشوك في جهتي؟ أو لعلّها تريد أن تدمج الضفتين معًا، بحيث لا يعود باستطاعتنا أن نفرق بين الشرق والغرب؟

في هذه اللحظات، يا نور عيني، لا زالت الفراشة تحرك جناحيها، وكأن نظراتنا تأسرها، في الواقع، وكأنها جزء من ابتسامتكِ، وجزء من أنفاسي.

لسوء الحظ، لا أستطيع، أو ربما يجب أن أقول "لا ينبغي لي"، أن أمسك بها أو أهشها، فلو تحركتُ لسنتيمتر واحد، فلن تترددي في الضغط على زنادك، فأنت مدربة لتكرهينني. متابعتي لهذه الفراشة تذكّرني بـ"بلوسوم" ودرس "إيما بوفاري"، الدرس الثاني لنا، ولكنني أيضًا أتذكر كلمات "ستيف ليبتوف" في ورشة الكتابة بآيوا، حين سقط المطر في الخارج، خلال إلقاءه علينا محاضرة عن الواقعية السحرية. قال:

- لم يكن من المفترض أن تمطر اليوم. نشرة الأرصاد الجوية دقيقة جدًا هنا، لكن يتم حاليًا تصوير فيلم سينمائي بالقرب من سكن الطلبة، وفي الأفلام، تهطل الأمطار أينما، وكيفما، ومتى أردت. لذا، المطر الذي ترونه الآن اصطناعي، غير حقيقي، بل إن الفراشات الملتصقة على نوافذ المبنى هي أيضًا غير حقيقية. بالطبع، لا مشكلة لدى المشاهد مع الواقعية، لأنها تتولد لديه من خلال متابعته للعمل. وبناءً على ذلك فإن هذا المطر نفسه يعدّ حقيقيًا بالنسبة لنا، لأننا لسنا مزارعين، وإنما فنانون. لذا تلاميذي الأعزاء، أكرر، نحن ليست لدينا مشكلة مع الواقعية.

قال البروفيسور وهو يفرك يديه ببعضهما، كما لو كان يغسلهما جيدًا بصابونة. كرر قائلاً:

- نحن، إذًا، لن نجد أبدًا مشكلة مع الواقعية.

ثم أخذ يرفع أكمام سترته الصوف وردية اللون.

ارتفع صوت "خورخيه خوليو جابرييل إيبرتي" قائلًا:

- نحن في "كوكوتا".

كرر قوله:

- نحن في "كوكوتا".

ثم كرر قوله مجددًا بعدما استطاع "ستيف ليبتوف" تحديد مكانه في الصف الخلفي:

- نحن، في جنوب "كوكوتا" تحديدًا، لدينا مشكلات مع الواقع يا أصدقائي. ولكننا ليست لدينا مشكلة مع الخيال، فقط لدينا مشاكل مع الواقع.

أضاف محاولًا الشرح:

- لدينا مشكلة مع كيفية جعل الواقع قابلًا للتصديق، يا أصدقائي (قالها كعادته بالإسبانية "أميجو").

تابع حديثه:

- في كتابي "رواية المئة عام"، على سبيل المثال، أسجّل فقط أحداثًا ووقائع حقيقية، ومع ذلك يجد الناس صعوبة في تصديقها، لأن واقعنا غير قابل للتصديق، وصدقوني يا أصدقائي، من الصعب للغاية جعله صادقًا.

قال الجملة الأخيرة وهو يجلس على مقعده متأرجحًا على ذراعيه، فبدا – كحالهِ دائمًا – شبيهًا بببّغاء.

أراد البروفيسور "ستيف ليبتوف" أن يقول شيئًا، لكن المطر توقف في اللحظة التي فتح فيها فمه، فلم يفعل شيئًا أكثر من أن أطلق زفرة حارة. كسر قطعة الطبشور إلى نصفين، ثم كتب على السبّورة: "تعهَّد بأن تكون الأفضل، ثم اعمل جاهدًا على أن تكون أفضل مما تعهدتَ به". ألقى بنصف الطبشور باتجاه "خورخيه خوليو إيبرتي"، الذي تلقفه بيده بمهارة، ثم دسّ قطعة الطبشور في فمه، وراح يمضغها، ثم ابتلعها.

صديقنا من "كوكوتا" يتصرف في أغلب الأحيان كببغاء حقيقي، ولذلك فإنه لا يتردد في أن يأكل الطباشير. ناولته على الفور قطعة أخرى، لأنه حين يرمي علينا البروفيسور الطبشور، فإنه يتوجب علينا أن نتوجه إلى السبورة لنكتب عبارة أقوى تأثيرًا مما كتب هو.

قال البروفيسور وهو يرفع حاجبيه الكثين:

– يولد الكاتب ويموت في جملة، يا سيد "إيبرتي".

فتح البروفيسور نافذة القاعة، فغمرت المكان الأجواء الربيعية، ونور الشمس القوي. وللأسف، كان الأستاذ قد نسي أنه يتحسس من الهواء الطبيعي، فأخذ يسعل بشدة، بطريقة اهتزت لها تجاعيد وجهه المتغضنة. أغلق النافذة على الفور، وسارع بالجلوس في الركن الآخر من القاعة، قريبًا من الخارطة الضخمة للولايات المتحدة، والتي تشبه طبق كبير من البيض ولحم الخنزير المدخن.

بينما كان صديقي من "كوكوتا" يقلّب قطعة الطبشور بين أصابعه، مفكّرًا في عبارة يكتبها. أدركتُ أنني أواجه المشكلة ذاتها مع الواقع؛ فمن يصدق أن "إيكو لاودماوث"، الصديق القديم لوالدي "بين إي رويال نيستوروف"، كان يسير على سلك عربات الترام – المتوقفة عن العمل منذ زمن – ويطوف بهذه الطريقة في القرية، فيبدو للناظر كما لو كان يمشي في الهواء؟!

كيف أجعل حكاية مثل هذه تبدو قابلة للتصديق، في حين أن كل ما اعتاد فعله هو أمور غير منطقية ولا يصدقها عقل؟!

كان يبدأ رحلته من التلال المحيطة بـ"تريبنيك"، ماشيًا بثقة على السلك وهو يلوّح بيده محييًا المزارعين في الحقول، ثم يترجل عن السلك بعد حوالي عشرة كيلومترات، داخل البلدة، قافزًا داخل الشبكة التي تمّ تثبيتها قديمًا كوسيلة حماية للأعمدة على جانبيّ الترام. كان الخط ينتهي بمصنع للأدوات المنزلية الخشبية. لطالما نظر "هوت هيد هوك" إلى التلال التي قطعت أشجارها بشكل جائر، وقال بغيظ:

– قضى أولاد الكلب على الغابة تمامًا، من أجل بضعة ملاعق خشبية!

أواصل حديثي لـ"دورنتينا":

– هل تعرفين أن "إيكو لاودماوث" هو نفسه الذي قُـتِل صباح اليوم؟

تذكرتُ أيضًا حين حاول مرة أن يمشي على سطح الماء. خطى خطوة واحدة، غرق بعدها في الماء، واستطاع أبي أن ينتشله بسرعة، قابضًا على طرفيّ شاربه!

أتناسى هذه الذكريات سريعًا إذ لا علاقة لها بما يحدث حاليًا. ها هو صديقي وزميلي في الغرفة في آيوا "دون خورخيه إيبرتي" يقترب من السبورة، بينما تتطاير أطراف قميصه فاقع الألوان. لستُ متأكدًا من وجود عبارة أقوى مما خطها "ستيف ليبتوف". ما أعرفه حقًّا هو حبّ "إيبرتي" للقصص القصيرة التي يكتبها "هاري مورجان" من آيداهو، وشغفه بالعاهرات الحزينات مثل "كاسيلدا آرمينتا"، وإعجابه البالغ بالشيوعيين، وبخاصة "فيدل كاسترو".

وقف أمام السبورة مرتعدًا، وكأنه سيكتب بكل ما في جسده من قوة، أو كأنه في صراع مع الواقعية. المهم، وقف هناك ثم خطّ جملة قصيرة: "الحياة هي ما يُقال". بعدها استدار وابتلع قطعة الطبشور التي كانت في يده. فتح النافذة فاندفعت فراشة بيضاء داخل القاعة، مثل فراشتنا هذه يا "دورنتينا" بالضبط، وظلت تطير بين "ستيف ليبتوف" و"خورخيه خوليو أميجو إيبرتي" دون أن تقرر أين ستستقر بالضبط. بعد بضعة دقائق، توقفت عن الطيران ونزلت على سطح المكتب وهي تحرك جناحيها كأنما ترغب في إخبارنا شيئًا.

حين رأيتُ هذه الفراشة تدنو من بندقيتي، تذكرت "بلوسوم" ودرسها عن "إيما بوفاري"، كما تذكرت صديقي "أميجو إيبرتي"، إذ أثبتت لي الأيام أن الحياة هي فعلًا ما نتذكره، وأنها – في نهاية الأمر – هي ما يُقال. جميعنا نعيش قصة واحدة يا "دورنتينا"، الفرق فقط هو أن كل واحد منا يحكيها بطريقته.

لو قصصناها بأعيننا، فلن تنتهي الحكاية أبدًا.

في إحدى المرات، قالت لنا "بلوسوم":

- في عين الرائي، يقطن شخص صغير، له بدوره عينين يسكن فيهما شخص صغير آخر؛ والأمر ينطبق على عينيّ الشخص المتحدّث أيضًا، لا الرائي فقط. ولذلك فإنك حين تتحدث، فإنك تتحدث لا إلى إنسان واحد فقط، بل إلى كل من يحيط بك. ولهذا عليك أن تنظر في أعين الناس حين تتكلم.

أنا وأنتِ يا "دورنتينا" مجبران على فعل ذلك. الأمر ليس باختيارنا. أرى الفراشة في عينيكِ، وترينها في عينيّ. أصبحتْ هي الذكرى المشتركة التي تجمعنا. اسمعي ما أقوله لها:

- يا فراشتي الصغيرة، يا صاحبة أطيب وأنبل قلب عرفته، إن كانت الذكريات بديلًا عن الحب، فتكرّمي بلمس رقبتها الدافئة، لتتأكد من أن الوضع بأكمله حقيقي. مرّري جناحيكِ على جبينها. المسي صدرها برفرفتك المتواصلة. انثري سحركِ على جفنيها. ليتكِ تلمسين شفتيها أيضًا يا عزيزتي بلطف بالغ كأنكِ تقبلينها، بالنيابة عني، القبلة الأولى. القبلة الأولى، التي يحبس خلالها المرء أنفاسه، ويختفي معها العالم بأسره، ويخفق فيها قلبك بقوة، ويسري خدر عذب تحت شفتيك، وعلى جانبيّ فمك. حين تصلين إلى هناك، توقفي قليلًا. ثم توقفي مرة أخرى حين تبلغين شعرها الذي ينعكس عليه لمعان زهور الربيع، هناك، حيث لا يمكن تحديد الفرق بين خصلاتها والزهور الصفراء.

أقول هذا يا "دورنتينا" بينما تستدير الفراشة نحوي. ها هي أمامي. لعلّها في حالة دهشة من هذا الشخص الذي يستطيع التفوه بمثل هذه الكلمات، بينما حياته بأكملها رهن ضغطة سريعة على زناد بندقية.

إصبعٌ واحدٌ بإمكانه أن ينهي هذا الموقف.

انظري يا "دورنتينا". إنها تحرك جناحيها بحماس. تقف للحظة على عدسة البندقية، ثم تحط على شفتيّ، على الجانب الأيسر تحديدًا. لحظة واحدة فقط، تطير بعدها مبتعدة. تبدو كغيمة بيضاء صغيرة، كقطعة من السماء تختفي بين بندقيتينا. إنها تتجه نحوكِ يا "دورنتينا"!

أستطيع أن أخبر "دون خورخيه خوليو أميجو إيبرتي"، فقط لو أستطيع أن أخبره بأن الفراشة استقرت على يدك اليمنى. هو وحده من سيفهم هذا الموقف. لأنها، مثله تمامًا، لديها مشكلة جعل الواقع قابل للتصديق.

ما هو الواقع هنا يا "دورنتينا"، وما هو الحلم؟

من يصدّق أن فراشة صغيرة، مجرد فراشة بيضاء عادية، فهمتْ ما أريده بالضبط، فطارت وحطت على جبينكِ، في المكان الذي رغبتُ بشدّة في تقبيلك فيه. يقولون أن القبلة على الجبين تعبّر عن أشياء عدّة. أولًا، تعبّر عن احترامك للشخص. ثانيًا، أنك تحبه بصدق. ثالثًا، أنك ستفارقه.

الفراشة تبدو سعيدة، تضرب جناحيها بقوة، إنها مليئة بالحياة في لحظة، وهادئة تمامًا في اللحظة التي تليها. أراها تستريح قليلًا على خدكِ اللامع كسطح مرآة مصقولة؛ ينعكس ظلها على خدكِ فيبدو كوجه "آنا كارنينا" المحمرّ من فرط الخجل والحرج، حين اعترفت للكونت بحملها من "فرونسكي"، إن كنتِ تذكرين.

زوايتا فمكِ ترتعشان قليلًا. يبدو أنكِ تحاولين كتم ضحكة عالية. وكأنك محرجة، ولكن في نفس الوقت، سعيدة لأن شيئًا كهذا يحدث، شيء غريب ولا يمكن تصديقه.

غير معقول حقًا يا "دورنتينا".

المسافة التي تفصل بيننا تمتلىء برائحتكِ. لكِ رائحة أزهار الربيع.

التلال من حولنا تفوح بروائح ساحرة، خلّابة.

ها هي الفراشة تحوم حولك من جديد. تدنو من ذراعكِ الأيسر، الممسك بالبندقية، وبسرعة خارقة تغرقه بالقبلات الخاطفة، تتوقف في الثنية اللينة التي تتوسط ذراعك. يبدو أنها قررت الإستقرار هناك، حيث الدفء والأمان. يمدها بالأمان إيقاع ضربات قلبك الذي يغني لها لتنام على ذراعك.

تقف الشمس أعلى جدران القلعة. وكأنها تتحدى كل قوانين الطبيعة المعروفة، وغير المعروفة.

تترك الفراشة ثنية ذراعكِ أخيرًا، وتطير حولك. تستقر بعد لحظات على خدك، للمرة الثانية. تبتعد قليلًا، ثم تهبط على أنفكِ الدقيق. تتركه لتعاود زيارة الجانب الأيسر من شفتيكِ، ثم جبينك، وبعده صدركِ الأيسر، وتصعد نحو رقبتك. وكأنها تريد الهروب من طرف البندقية، وكأنها تريد أن تطير في حقول زهور الربيع الصفراء كاليمامة البيضاء. أشعر وكأنها تستطيع بالكاد أن تحتوي نفسها تحت جلدكِ الذي يرتعش من لمسة الفراشة، التي تعود إلى

صدرك مرة أخرى، كأنما لا تقوى على الإبتعاد عنه. تغرقه بقبلاتها المتوالية. أراقب ذلك وأشعر بالخدر يسري في شفاهي العطشى.

أستطيع أن أشعر بفمي صوت النبضات التي يرسلها القلب عبر عروقك الصغيرة، النبضات التي تملأ الينابيع، صدرك العذب، الذي ينبض كالمد المرتفع.

أنفاسكِ تتلاحق. أرى ذلك. كما أرى صدركِ الناهد الذي يكاد يسدّ عدسة بندقيتي. عينك اليسرى لامعة وتفيض بالدمع، أنظر إلى عينكِ. البؤبؤ متقلِّص بعض الشيء، والعين دامعة كما يبدو. أنفاسكِ تهزّ الزهور القريبة منكِ. الخيوط الذهبية للشمس تتخلل الأمواج الهادئة على سطح النهر.

هذه الفراشة الصغيرة تعلو وتهبط على رقبتك، تلمس بجناحيها أسفل أذنك. تدنو وتبتعد، وتقترب ثانية. أراكِ ترتعشين يا "دورنتينا". المسافة بيننا ترتعش. كل ما حولنا يرتعش؛ الضوء، وزهور الربيع حولك، وشجرة البندق خلفك.

أستطيع رؤية الفراشة وهي تستريح على أصبع يدكِ اليسرى الصغير. البنصر يداعبها، يؤرجحها صعودًا وهبوطًا ليبهجها. تحاول التشبّث به حتى لا تسقط عنه. تطير أخيرًا إلى اليد الأخرى. تقف قريبًا من الزناد، لكنها لا تطيل الوقوف، لعلها تدرك أن هذا تحديدًا مكان خطير لا يجوز اللعب فيه. تدور عبر ذراعك، وتهبط على زهرة ربيع وحيدة، أمام ماسورة البندقية، على الفوهة ذات عرض 12,7 ملم.

الآن فقط يا "دورنتينا" ألاحظ هذه الزهرة الوحيدة، وألاحظ أنها تقف في مسار الطَلَقة المقرر أن تقتلني. هذا يعني أن الرصاصة، في طريقها إليّ، سوف

تقتل هذه الزهرة أولًا، رغم أن الصدفة هي السبب في وجودها هنا، وأنها لا تستطيع التحرك، لأن النباتات ليس من طبعها المراوغة.

وجودها هنا في هذا الموقع يجعلها تبدو كما لو كانت تحاول أن تفديني بحياتها. لكن الطلقة ستصيبني في كل الأحوال، ستقبّلني في منتصف جبهتي بالضبط! إنها كما تعرفين الطريقة الوحيدة المؤكدة لموت الخصم. كما أنها وسيلة هادئة وغير ملفتة على الإطلاق.

أتساءل فقط إن كنت سألمح، في الجزء من الثانية المتبقية من حياتي حينها، بتلات الزهرة الصفراء وهي تنفجر، تاركةً الساق يترنح وحيدًا أمام فوَّهة البندقية.

انظري! الفراشة تتأرجح على الزهرة الوحيدة، كأنما تتعانقان قبل الوداع. كأنما ترقصان معًا رقصة الموت. ها هي تستدير صوبي. إنها تطير نحوي، باتجاه الضفة اليمنى للنهر. إنها تقترب يا "دورنتينا". تقترب جدًا. كلا، هذا تأثير العدسة المكبرة. إنها بحاجة لبعض الوقت لتصل إليّ. وقتٌ طويل جدًا في الحقيقة، لأنها تطير ببطء، كما أنها تتوقف بين الحين والآخر لترفرف بجناحيها دون أن تتقدم. يبدو أنها تعيد التفكير في الأمر. ها هي تعاود الطيران من جديد، دون توقف هذه المرة. سوف تعبر النهر، وتحمل لي عبيركِ الزكيّ.

شذاكِ يا "دورنتينا"، وارتعاشة شفتيكِ، واهتزازات صدركِ الخفيفة. والحرارة التي ترسلها زهور الربيع إلى القلعة، ومن القلعة إلى الخندق الذي يمتد من الضفة اليسرى للنهر.

إنها في منتصف المسافة بيني وبينك. فوق مجرى النهر الذي يجري ويشق المياه بخطٍ رفيع، مسببًا العديد من الأمواج التي لا تُعَد، إنها لا تزال في منتصف المسافة إلي، أخاطبها مشجعًا:

- هيَّا! طيري، تقدّمي، تعالي.

أفكّر في "خورخيه خوليو" المذهل. أقول لنفسي بأنه يمكن جعل الواقع قابلًا للتصديق، إن وجدتَ شخصًا يصدقك.

لو كان موجودًا، لصدقني. كنت سأخبره بأن فراشة أحبّت زهرة ربيع، صادفتها في منطقة حرب، وظلت على قيد الحياة. سوف أخبره عنكِ أنتِ أيضًا يا "دورنتينا"، وسوف يصدقني. لو أننا كنا في آيوا، أنا وهو، لابتلع قطعة طبشور بسعادة بالغة، وإن لم يفعل، كان سيمسّد شاربيه بأطراف أصابعه المائلة للزرقة، ولأعلن:

- للأدب أرواحه المعذبة أيضًا ياصديقي.

كل شيء بالنسبة له ينتمي – بشكل أو بآخر – لعالم الأدب، لأنه يعيش ليحكي.

سوف يصدقني بالتأكيد يا "دورنتينا"، لأنه هو من أخبرني مرة أن الناس في "كوكوتا"، في جنوب "كوكوتا" تحديدًا، يطيرون على البساط السحري. وقد صدقته.

وهو أيضًا من أخبرني عن العجوز التي كانت تطوف البلاد بحفيدتها التي لا تتجاوز الثانية عشر، لتبيع جسدها، وتسدّد بذلك فواتير إصلاح وترميم بيتها الذي أحرقته الفتاة الصغيرة دون قصد.

أخبرني أن الجدة، ولخمسة عشر عامًا متواصلة، ظلت تبيع حفيدتها لثلاثين رجلًا في اليوم، دون أن تنتهي من عمليات الترميم.

قصّ عليّ كيف تمّ اصطحابه مرة لرؤية الثلج، وكيف انتفض قلبه بالخوف والسعادة عندما لبس هذا الشيء الغامض، صدقته يا "دورنتينا". أخبرني أيضًا عن العجيبة الثامنة للخيميائيين المقدونيين، وقد صدقته. ولذلك فإنني متيقن من أنه سوف يصدقني بدوره على الفور، حين أخبره عنكِ وعن الفراشة. ولكن للأسف، إنه ليس هنا، ولا يستطيع أحد العثور عليه في بلدته، كوكوتا، جنوب كوكوتا.

الشيء الوحيد الذي لا يزال هنا هو صوت "هوت هيد هوك" المزعج، الذي يصعب عند سماعه تمييز ما إن كان يضحك أم يبكي، وما إذا كان يمدح الشخص أم يوجّه له الإهانات. وفي أغلب الأحيان يطلّ برأسه فجأة، دون سابق إنذار، في أي مكان غير متوقع. سوف يظهر في أي لحظة الآن ليتأكد من وجودي، وإنني ما زلتُ على قيد الحياة.

لا يهم.

انظري إلى الفراشة، إنها تهمّ بعبور النهر. المسافة قصيرة بينها والضفة التي أقف عليها. أراها تدور في الهواء، وتهبط قليلًا للحظة، ثم تعاود الصعود. لكنها تظل في المدى البصري بيني وبينك يا نور عيني. أستطيع رؤيتها تطير، وتستمتع بالطيران. جميلة ولامعة وبرَّاقة. يخيَّل إلي أنها كلما اقتربت مني، وكأن شفتيك هي التي تقترب من شفتي، تشتهيني، تبتسم لي. وكأنني أرى كل الفراشات التي رأيتها في حياتي.

اللعنة!! ما الذي حدث يا "دورنتينا"؟ انظري! انظري!!

إنها تهوي، بدلًا من أن تصعد نحوي. جناحاها ملتصقان ببعضهما، إنها لا تستطيع الحركة ولا التوقف، ولا البقاء في مكانها في الهواء. إنها تسقط! تهوي نحو الماء. لا بد أن شيئًا ما قد ارتطم بها أو جرحها، ربما نظرة كراهية، أو مشاعر حقد. شيء ما قد حدث يا "دورنتينا" دون شك. أنتِ أيضًا تدركين ذلك. لقد تلاشت الإبتسامة من على جانبيّ شفتيك، وظهر الحزن في عينكِ. ألمح دمعة تلمع في زاويتها، ثم تنزلق على خدك.

نظرة الحزن العميقة هذه ذكّرتني بقصة "بائعة الكبريت الصغيرة".

رحلت فراشتنا يا "دورنتينا". لا أراها.

في الوادي أسفلنا، قريبًا من الجسر، انطلقت القذائف من جديد، ترجّ الضفتين معًا، تهز النباتات ذات الأشواك أمامي، والأزهار الصفراء أمامك.

بين سحب الدخَّان المتصاعد في كل جهة، ألمح وجهك وقد غابت عنه الإبتسامة للمرة الأولى. تحتضنين بندقيتكِ بقوة أكبر، وقد توقفت أنفاسك. نظرتكِ ثابتة، وعينكِ في حالة جمود. تنظرين بتركيز إلى نقطة واحدة، منتصف جبهتي.

# 7

قبّلتني معلمتي في المرحلة الثانوية على جبيني، واعتقدتُ حينها يا "دورنتينا" أن "آنا كارنينا" هي من تقبِّلُني. كانت كل الأمور متداخلة بشكل مضطرب في رأسي، لم أكن أفرق بين الواقع والخيال، ولا بين الحقيقي والزائف.

حدثت هذه القبلة في محطة القطار، حين ودّعتنا "بلوسوم" ونحن في طريقنا إلى أحد مهرجانات الشعر. ظلت تتضاءل وتصغر فيما كان القطار يبتعد بنا. وحدها يدها التي كانت تلوّح بحماس ظلت تكبر وتتضخم إلى أن وصلت إلى داخل العربة التي تقلنا. ملتُ بجسدي خارج النافذة، وأنا أحني رأسي حتى أتفادى الأشجار ذات الأغصان الكثيفة. انتابني حينها هاجسٌ ملحّ بأنني إن لم أواصل النظر إلى شعرها ذي الخصلات الملتفة، فإنها لن تتمكن من إلقاء نفسها أمام العربة الثانية للقطار الذي ظل يظل يصل في موعده لمدة تسعة وتسعين عامًا.

أنظر إليكِ يا "دورنتينا"، وكأنك تنظرين معي حينها والآن، تبتسمين مجددًا، ولا تصدقين أن كل هذا يحدث الآن. أستطيع أن أخمِّن أنكِ الآن تقاربين معلمة مادة الأدب سِنًا في تلك الفترة. أدرك وأنا أنظر إليكِ وأنت تتخيلينها، وأدرك أنني في تلك الأعوام، كنتُ طالبًا عنيدًا ومزعجًا، يسعى على الدوام للفت أنظار كل من حوله بمقالب سخيفة.

أعترف لكِ بذلك، بمنتهى الصراحة، لأنك وحدك الآن من تملكين قرار موتي أو حياتي.

لطالما أقدمت على تصرفات بلهاء، لا لشيء إلا لجذب انتباه الآخرين. كنت أفعل أي شيء لأصبح لا شيء.

كتبت على الجدران، وعلى طاولات الفصل "جنرال آس"، أو "الجنرال حمار"، كان هذا هو اللقب الذي اخترته لنفسي. حين سألتني "وولفي" معلمة اللغة الفرنسية عن الأمر، قلتُ كاذبًا بأن هناك من يتعمد إيذائي وإهانتي، لا لشيء إلا لأنني مجرد فتى قروي، أقول لكِ يا "دورنتينا"، أنني فتى ريفي.

لكن في الحقيقة يا "دورنتينا"، أي شخص عاقل يفعل ذلك بنفسه؟ يكتب اسمًا مقززًا كهذا على الطاولات والكراسي الجديدة القادمة من فرنسا رأسًا؟ من يفعل ذلك سوى خنزير غبي مثلي؟ أي شخص يمتلك ذرّة عقل يطلق على نفسه اسمًا كهذا؟

هذا المنطق، على الأرجح، هو الذي جعل المعلمة تقتنع بتحليلي الكاذب. الآن، أعرف أنها كانت صديقة "بلوسوم" الوحيدة في المدرسة الثانوية بأكملها.

أتذكَّرُ حرصها الدائم على عدم التفوّه بأي كلام جارح أو مسيء أبدًا. وإذا أرادت أن تعبِّر عن اعتراضها على شيء، كانت تستخدم نفي الكلمات الطيبة، مثلًا، قالت لي مواسية بأن الشخص الذي يطلق عليّ هذا اللقب السخيف ويكتبه في كل مكان:

– هو لا يكرهك. إطلاقــًا! هو فقط لا يحبك بشكلٍ كافٍ.

كانت الكلمات تنزلق على لسانها في سلاسة، وتنطق بها كأنها تقبِّلُ الهواء.

كانتا أجمل معلمات المدرسة الثانوية، هي و"بلوسوم". لا زلتُ أذكر شعرها الكثيف، وعينيها الباسمتين، وتهذيبها البالغ، ومبادئها المثالية. ازداد تقديري لها حين كبرتُ وفهمتُ جيدًا ما كانت تفعله. يكفي أنها الوحيدة التي كانت تحرص على التحدّث مع "بلوسوم" بين الحين والآخر، حتى لو كان ذلك يتم بسرعة في طريقهما لحجرة المدرسات.

كره الباقون "بلوسوم". كرهوها واحتقروها أيضًا.

إذا فعلت وفكرت في الأمر قليلًا، ستجد أن الكلمات القاسية ليست رائعة كما كنا نظن، كانت تقول: "لا بد فعلًا من أن شخصًا لا يحبك بشكلٍ كاف". كانت تفكر بأن أي إنسانٍ طبيعي كان ليخجل من لقبٍ كهذا، وقد كانت على حق. أعني، من الذي قد يحب أن يعرفه الجميع باسم "جنرال آس" 'General Ass'، أنا ممتنٌ للغاية لأن الجميع نسوا هذا اللقب المخجل. يصعب تصديق أن هناك من يتذكره في البلدة فقط لكراهيته لي. قلةٌ قليلة فقط هم من بقوا في البلدة. أغلب الظن أنهم لم يغادروها لانشغالهم بالحقد على زملائهم وجيرانهم ممن حققوا نجاحًا ملموسًا في حياتهم.

هناك رجلٌ واحد..

حين كنتُ أعود في زيارة للبلدة، أتعمد السير بسرعة بجوار الأشجار التي تظلل جانبيّ الطريق الرئيسي، حتى أتفادى قراءة نشرات النعي المثبتة على الجذوع، وصور أصحابها الباسمين؛ وفي كل مرة يقفز أمامي رجلٌ له ابتسامة واسعة من خلف الشجرة الكبيرة التي تتوسط الميدان، وهو يضحك ويصيح مناديًا إياي بلقبي القديم. كان يتعمد فعل ذلك لإحراجي، أو على الأقل ليري الجميع أن نجاحي ليس له علاقة بأولئك الذين عرفوني حينما كنت لا شيء. يتردد صدى صوته في المكان، يصطدم بالأبنية المحيطة بالميدان، ثم يعود ثانية

ليخترق آذان المدرّسين المتقاعدين الذين يلعبون الشطرنج والطاولة في الظل، بعيدًا عن أشعة الشمس؛ وآذان الجالسين حول النافورة الكبيرة التي يتوسطها تمثال لطفل عار يتبول. كانوا يرفعون رؤوسهم وسط سحب الدخان المنبعث من سجائرهم، محاولين تبيّن الشخص القادم.

هل تخيلتِ الصورة يا "دورنتينا"؟

الفصل صيف، والسخونة تنبعث من الأرض، والحرارة الشديدة تسبّب طنينًا في الآذان، لدرجة يصعب معها سماع خرير الماء من نافورة الصبي العاري. وفجأة، دون سابق إنذار، يصيح شخص ما بأعلى صوت:

- جنراااااااال آاااااااااااااس!

يتبع ذلك قهقهات مرتفعة، مزعجة جدًا. يختلط صوت الضحك مع خرير الماء. وبطبيعة الحال، وكما هو متوقع، يدير الجميع رؤوسهم لمتابعة المشهد للحظات. يراقبونني وأنا أضع حقيبة السفر المليئة بالكتب والمسودات والبرطمانات الفارغة – نعم، برطمانات فارغة! – أمدّ يدي لأسلّم على الشخص الذي يقهقه بشكل هستيري، حتى يخيّل إليّ أنه يوشك على التبول في بنطلونه من فرط الضحك المتواصل. يرفع يده محييًا إياي بتحية عسكرية ساخرة.

هل أدركتِ من هذا الشخص يا "دورنتينا"؟ هل خمنتِ من هو؟

لا عليكِ. سأخبركِ أنا يا عزيزتي، ليس سوى "هوت هيد هوك"، زميلي منذ المدرسة الإبتدائية، حين جئتُ للبلدة للمرة الأولى. زاملني أيضًا لفترة قصيرة في المدرسة الثانوية.

إنه الوحيد الذي لم ينسَ أبدًا لقبي القديم.

وكأنه يقف في الميدان منتظرًا إياي، دائمًا يقف منتظرًا الصمت التام، فقط لكي يتردد صوت ضحكته العالي كالرعد. ضحكٌ يلتصق بالأشجار، وبالحيطان، ويخترق فتحة المياه الرفيعة الموجودة بتمثال الصبي في النافورة. الصبي يتبوَّل، والمياه تتبخَّر، وصوت قطرات المياه على الأرضية الرخام يتردد في المكان، محركًا معه دخَّان سجائر الجالسين حول النافورة.

تخيّلي يا "دورنتينا" أن هذا كان يحدث مرتين شهريًا في أول عامين أمضيتهما في دراسة الأدب المقارن. في الواقع ظل هذا يحدث حتى التحق "هوت هيد هوك" بالجيش، الذي غادره بعد فترة كضابط احتياط. سمعت بعد ذلك أنه انضم إلى الجيش الإتحادي، كملازم ثاني، ثم لم أسمع عنه شيئًا لسنوات طويلة، إلى أن جاء بصحبة "إيكو لاودماوث" إلى بيتي، واصطحباني إلى هنا، وكأنني مقبوض علي.

بينما كنا في الطريق إلى هنا، داخل سيارة الـ"جيب" التي راحت تتقافز على الطريق كما لو كانت جرادة، أخبراني أن جماعتكم تطلق النار علينا من ذلك الجانب من النهر، وأننا نرد عليكم بإطلاق المزيد من النار، من الجانب الآخر. ذلك اليوم، حين ابتعد "إيكو لاودماوث"، قام "هوت هيد هوك" بمناداتي باللقب القديم للمرة الأخيرة، ولم يكررها ثانية.

والآن، وبينما أتكلم عنه، ينتابني إحساسٌ قوي بأنه يقف خلفي. أستطيع أن أشعر بأنفاسه التي أعرفها جيدًا.

لكونه أسوأ طالب في الصف حينها، كثيرًا ما عوقب بإجلاسه وحيدًا في الزاوية الخلفية للفصل، عقب وضع طرطور ورقي كبير على رأسه، إمعانًا في إذلاله. لكنه في بعض الأحيان، كان يختار الجلوس بجانبي.

التحق بفصلنا بعد مرور شهرين على بدء العام الدراسي، عقب طرده من فصله الأصلي لتطاوله على مدرّس الرياضيات، ووصفه إياه بالـ"كلب". في حقيقة الأمر، حتى قبل أن ينضم لفصلنا، كان يعرف بأنه مغفلٌ كبير، مغفلٌ أكبر مني أنا شخصيًا.

كان مزعجًا. شديد الإزعاج، كـ"ذبابة خيل"، كما اعتادت جدتي أن تقول.

على أي حال، أنا لم أكن أستمع إليه، لأنني كنت منتبهًا فقط لـ "بلوسوم"، والتي كانت قد بدأت للتو في شرح ثاني درس من الدروس الثلاثة التي أعلنت عنهم الأسبوع الماضي. ومع ذلك ظل "هوت هيدهوك" يتحدث معي ويثرثر عن السبب الذي جعل المعلّم يطرده. لاحظت "بلوسوم" الأمر، فراحت تكرر جملة واحدة فقط، بنبرة تحذيرية:

- كنا في الفصل، حين دخل علينا ناظر المدرسة.

لكنه واصل حديثه، دون أدنى اهتمام:

- إذا حُرِم عالِم الرياضيات من المشاعر والعواطف، فسيظل قادرًا على حلّ المسائل الرياضية. ولكن إذا حرمنا كلبًا من الحب، فسوف يمرض. لن يكون الصديق الوفي للإنسان، دون أن يمتلك قدرًا من المشاعر. هل فهمتَ ما أقول؟ أعني أن عالِم الرياضيات أسوأ وأحقر من كلب. هذا كل ما قلته يا أخي! لا أكثر ولا أقل. فماذا فعل ذلك البغيض؟ ألقى بقطعة الطبشور التي كان ممسكًا بها في سلة المهملات، وغادر الفصل. ما رأيكَ أنت؟ هل هذا سبب كاف للغضب؟ إنها حقيقة! الكلب أفضل من المتخصصين في الرياضيات.

كان يهمس بصوت مرتفع بعض الشيء، وهو يضحك، ويزفر باحتقار.

ورغم أنني لم أفهم نظريته على الإطلاق، إلا أن عدوى الضحك انتقلت لي، فرحتُ أضحك كالمجنون، وأنا أغطي فمي بطرف كُمّ الجاكيت المدرسي.

وقفت "بلوسوم" أمامنا، وبنفس نبرات التهديد، واصلت قراءة الجملة ذاتها عدّة مرات:

- كنا في الفصل، حين دخل علينا ناظر المدرسة.

بينما كانت تقرأ الجملة، وتعيدها وتكررها، دخل علينا الناظر فعلًا بصحبة "أبراهام لاودماوث"، إبن "إيكو لاودماوث" من زيجته الأولى. عبث الناظر بكمّ ذراعه الأقصر قليلًا من الذراع الأخرى، وهو ينقل نظراته الحائرة بيننا و"بلوسوم"، ثم اقترب منا بينما كان "هوت هيد هوك" لا زال يهمس بلا مبالاة. قال:

- كانت حياتنا ستختلف عمّا هي عليه الآن، لو لم يتطور الإنسان والنبات ولم يرتقيا معًا.

لم أستطع كبح ضحكاتي. أضاف هامسًا وهو يشير بطرف عينه إلى الناظر:

- لو تم تطبيق نظرية النشوء والترقي بشكل صحيح، لَخُلِق ابن الحرام هذا، بيده القصيرة والثانية الطويلة، على هيئة خيارة! ولكان الآن يزيّن طبق سلطة، ولكن من المستحيل أن يكون رجلًا.

ظل يتمتم بطريقة غريبة، وكأنه يشهق الهواء فقط دون زفير.

وبطبيعة الحال، تم طرده من هذا الفصل أيضًا. بعدها بفترة، حين كان الناظر يسلّمه جائزة مسابقة الرماية، هجم عليه وعضّ أذنه اليسرى!

عقب ذلك، صارحني أمام نافورة الولد العاري:

- ظننتُ أنه خيارة! لو أن تلك النظرية التافهة عن التطور لم تكن موجودة، لما حدث شيء البارحة، ولتطورت البشر والنباتات كلٌ على حدة، أمَّا إذا تحوَّل القرد إلى إنسان، حينها فقط يمكن للخيار أن يصبح خيارًا.

أكمل قائلًا:

- لو اتبعنا هذه الطريقة، ستتعقد الأمور. ستتعقد بطريقة خطيرة للغاية. لم نعد نعرف كيف نفرّق بين الإنسان والخيار!

مالَ بظهره فاتحًا فمه، ليتلقى فيه الماء المنسكب من النافورة. الكل يعلم أن هذا الماء غير صالح للشرب. أعلم أيضًا أنني لم أكن أفهم شيئًا من نظرياته. ولأنني لم أكن حاضرًا لأشهد حادثة عضه لأذن المدير، فقد حاول "هوت هيد" أن يقلِّدها لي.

بعد فصله من مدرستنا، التحق بالثانوية الزراعية في البلدة المجاورة. وهناك أيضًا تعمّد مضايقة معلّم الرياضيات بمقارنته بالكلاب. لكن الرجل كان أكثر تفهمًا وتسامحًا، وتجاوز عن الإساءة، وساعده في إتمام امتحاناته العملية مع الأبقار، حتى يتخرج وينال شهادة الثانوية.

بعد ذلك، قابلته مرة واحدة أمام النافورة. أبلغني بحماس بأنه تم استدعاءه لأداء الخدمة العسكرية. لم أره بعدها أبدًا، إلا حين ناولني البندقية في سيارة الـ"چيب"، واضعًا إياها على ركبتيّ.

والآن، بعد كل ما قصصته عليكِ عن ذكرياتي معه، لا شكّ أنكِ فهمتِ أي نوع من الرجال هو. لا يختلف أبدًا عن رئيسكِ الذي لا يزال واقفًا خلفك.

بالمناسبة، لا زلتُ أتساءل إن كان هو ذاته "فاتوس ديديلـــّـي"، الشاعر الغائي من "كروجي"؟ أعتقد أنه تمامًا مثل "هوت هيد هوك"، يريد الإنتقام

من الطبيعة. رأيته يقطف أزهار الربيع التي ظن أنها تتطفل على صدرك بعنف، ويسحقها بين أصابعه. هل هذا هو الشاعر الغنائي الرقيق الذي أعرف؟! إذًا، فهناك بالفعل خللٌ في التطور.

تخيلي الآن يا "دورنتينا"، أنا وأنت في هذه القصة، لديك ذلك الكسيح في الخلف، وأنا لدي "هوت هيد هوك"، الرجل الذي لا يعطي الطبيعة حقها أيضًا، ولكن مع كل هذا، أجدكِ أمامي على الضفة اليسرى من النهر.

حتى مع هذه العدسة التي أستخدمها لا أستطيع رؤيتك بين زهور الربيع الصفراء. لهذا لم أستطع إيجادك، أو لأكون أكثر دقة، عندما وجدتك، كنت بالفعل قد رأيتني وجعلتيني هدفًا لكِ. أنتِ الطبيعة. أنتِ الزهور الصفراء. أنتِ ضفة النهر بكل ما عليها وما حولها.

في مكان ما خلفك، وراء شجرة البندق ربما، يستلقي الرجل ذو اللحية الكثة والذراع الواحدة على الأرض، وهو يشعر بكراهية بالغة تجاه الطبيعة الهادئة، والشمس الساطعة، والزهور النضرة، وحقيقة وجودي في الجهة المقابلة لكِ، ووجودك في الجهة المقابلة لي، وقلبي الذي لا يزال ينبض بالحياة.

من الذي يتوجب عليه أن يتعلم كيف يصبح رجلًا؟ ولماذا؟ ولكن، ما الذي يتوجب علينا فعله؟ تنقصنا نهاية القصة يا "دورنتينا"، وأنتِ وحدكِ التي تملكينها بالطبع. وبعدها لن يكون هناك أزهار ربيع تلقي بظلالها اللامعة عليكِ، كمرآة مصقولة؛ ولا نباتات شوكية أمامي، ولا نحلات وفراشات تتطاير حولنا برشاقة. لن يكون هناك نهر، ولا شمس تسكب أشعتها على القلعة.

أتخيل للحظة أنكِ، من مكانكِ هناك، ترسلين لي كل الجمال الذي يمتلىء به العالم. يدفعني ذلك لفتح عيني اليسرى كي أودع الحياة كرجل.

أدرك الآن فقط أنني طوال حياتي كنت أعيش في الجانب الخطأ من الحياة، الجانب الذي تعيشين فيه رافضةً السماح للحياة بأن تربّت على ظهركِ مواسية، أو أن تعانقني كصديقة مخلصة، أو كإحدى قريباتي المُحبّات. أدرك الآن فقط بأنه لم يتبقَ لديّ شيء سوى هذه الحياة الجافة التي خلّفتها ورائي.

اعتدتُ دائمًا أن أختار عكس ما يتوجب عليّ فعله. أن أسير في الإتجاه المعاكس. حين أتجه إلى مكان يبعد عني نحو ساعة واحدة، أنتقي طريقًا طويلًا مليئًا بالمطبات، يوصلني في عشر. أخوض مصاعب ومشكلات متعددة، لأحقق نصرًا صغيرًا لا يُذكر. أتخذ قرارات سريعة حين أثمل، ثم أؤجل تنفيذها إلى اليوم التالي، حين أفيق من سَكرتي، ثم أؤجلها إلى اليوم الذي يليه، وهكذا. جميع قراراتي تنتمي إلى مستقبل لا يعيش فيه أحدٌ أبدًا.

أن ترجىء حياتك للمستقبل، يعني أن تعيش على الدوام أسير الماضي. ماضٍ زائف في حالتي. أكاذيب أعيشها، ثم أعمل جاهدًا على تنفيذها لتتحقق، وهو ما أفشل فيه كل مرة. ولهذا أمضي أغلب وقتي في عَيش كذبة، مدّعيًا أنها حقيقتي. في أحيان قليلة يحدث بمحض الصدفة أن تتحقق إحدى أكاذيبي القديمة وتصبح واقعًا؛ لكن ذلك لم يشعرني بالسعادة أبدًا. يكون وقت الفرح قد مضى وانتهى، تنبأتُ بحياتي قبل أن أعيشها.

حياتي حكاية لم يعد من المُجدي أن أعيشها الآن يا "دورنتينا". وحدكِ تملكين حياتي كما تفهمينها، وأنا أقرأها من ذاكرتكِ بينما أسردها الآن. هذه هي الحياة.

أكرر مرة أخرى:

- هذه هي الحياة يا "دورنتينا".

لا يوجد موتٌ يتذكّر نفسه. كما لا يوجد موت يستطيع تأجيل نفسه. ما يتم تأجيله، أو ما يؤجل الآن، ما أظن أنه تأجل – ليس الموت؛ فالموت لا يؤجل نفسه. كل شخص في هذه الدنيا يحمل وقته معه. وقته هو فقط، إذ لا يستطيع حمل وقت غيره.

وهكذا، وهكذا..

اعذريني يا "دورنتينا"، فكل ما أقوله هراء لا معنى له.

أنظر إلى الزهور أمامكِ. من حركتها الدائبة، أستطيع أن أخمّن أن قلبكِ يخفق بسرعة. لا شك أنكِ تشعرين بالتوتر. توتر يتركز في طرف إصبعكِ الثابت على الزناد. قلبي أنا أيضًا يخفق بسرعة عظيمة، أسمعُ نبضاته وهي تتردد في حلقي.

ما رأيك يا "دورنتينا"؟ هل الموت خالد؟ هل الحياة خالدة؟

في ورشة الكتابة في آيوا، اعتدنا أن نتناقش في مسألة الحياة والموت. كان أكثر المتحمسين لهذه المناقشات هي زميلتنا البولندية "آنا كوميتزكا"، التي كانت تقلب حرف الواو إلى فاء، بلهجتها الثقيلة.

في يوم عودته إلى "كوكوتا"، أعلن "أميجو إيبرتي" قائلًا:

– أعتقد أن الحياة، وليس الموت، هي التي تتسم بالخلود واللانهائية.

غادرنا قبل الموعد المحدد بثلاثة أشهر، لأن أمه "بيلار تيرنيرا" أصيبت فجأة بفقدان الذاكرة، ولكونه المتعلم الوحيد في "كوكوتا" فقد اضطر للعودة ليدوّن قائمة بكل محتويات المنزل، قبل أن تزداد حالتها سوءًا. كان والده "لويس براجارت ميجيل لوبيز إيبرتي" قد أرسل له خطابًا يخبره فيه بالأمر. استأذنته "آنا كوميتزكا" – التي كانت تجيد قراءة الكوكوتية، ولا تسأليني كيف أو لماذا

– في قراءة الرسالة. ذكر الأب الحزين أن جميع سكّان "كوكوتا"، منذ الأربعاء الماضي، يعيشون واقعًا لا يعرفون عنه شيئًا، وأنهم جميعًا في حالة نسيان متزايدة. قال الأب:

– أنا بدوري سأنسى كل شيء عمّا قريب. تعالَ قبل أن أنساكَ أنتَ شخصيًا.

بعده بقليل، غادر "فاتوس ديديّلي" أيضًا. تواصل معي قبل إصابته في المظاهرة. كتب لي من "كروجي":

– نسي الجميع هنا معنى الكلمة المكتوبة. يتذكرون فقط شيئًا واحدًا هو الثأر.

دوّني قصصهم عبر حكايتي يا "دورنتينا"، لأن النسيان آخذ في الإنتشار هنا أيضًا، على ضفتيّ النهر، وهذا هو سبب الأحداث التاريخية المنسية؛ وسبب تحوّل القتلة والمجرمين إلى أبطال أسطوريين. غدًا يصنعون لكل منهم نصبًا تذكاريًا يخلّده، ويملأون الميادين بهذه التماثيل.

عمليات القتل تحولت إلى عمليات حسابية. الضحايا مجرّد أرقام، والقاتل بمثابة مقام الكسر الموحد الذي يقسم الموت. عليكِ أن تقسميني يا "دورنتينا". علينا أن نتوقف عن الإصغاء إلى الطلقات المتوالية التي يتردد صداها حولنا، كصدى قادم من عمق التاريخ.

بعد القتال المندلع بين الطرفين، استحال أشخاص من جماعتي وجماعتكِ إلى سُحُب بيضاء، ستغرقنا غدًا بأمطار كئيبة، تهتز لها الأزهار والنباتات المحيطة بنا، وسيسيل الماء حولنا ثم يصبّ في النهر في نهاية المطاف.

من يدري كم مطر من هذا النوع انتهى في نهرنا يا "دورنتينا"؟

النهر الذي اعتدت النظر إليه من نافذة فصلي المدرسي. لا شك أنكِ أنتِ أيضًا كنتِ تحبين النظر إليه من فصلك في الدور الثاني.

أتذكر جيدًا أنني حين عدتُ من مكتب الناظر، لم تكن المعلمة قد بدأت الدرس بعد. جلستُ بجوار "أبراهام لاودماوث" معتقدًا أن "بلوسوم" كانت تنتظر رجوعي لتبدأ ثاني درسٍ من الدروس الثلاثة التي قالت أنها ستدرسها لنا الأسبوع الماضي. كنت أراقب خصلات شعرها الملتفة بالقرب من رقبتها، حين لمحت من الشباك "هوت هيد هوك" وهو يقف على الجسر. بصق في الماء، ثم أفرغ محتويات حقيبته المدرسية في النهر. سبحت الكتب قليلًا ثم غاصت في الماء، وعاودت الطفو ثانية، وبدأت تتقافز بين الأمواج الهادئة.

أدركت أن "بلوسوم" بقيت صامتة طوال هذا الوقت، لا لشيء إلا لأنها كانت تتابع المشهد. وأجزم أنها أحست بالحزن، لأنها دائمة التعاطف مع الجميع، رغم أن أغلب الناس لا يستحقون سوى الإحتقار. ربما شعرت بالشفقة على "هوت هيد"، لا أعرف.

في تلك الأيام، لم تكن قد فهمتْ بعد أن بلدتنا الفاسدة تعرف عنها كل شيء. نعم، بلدتنا تنضح بالفساد يا "دورنتينا". يحبون الثرثرة وتأليف قصص مخزية عن الآخرين، وهو ما فعلوه معها بالضبط. لا أذكر معظم تلك الحكايات الحقيرة. يعشقون النميمة. أي حوار بين اثنين هو عن شخص ثالث بالضرورة. أفضل النكات والضحكات، بالنسبة لهم، هي التي تنشأ عن السخرية من الغير. من المستحيل أن يتكلموا عن الأمور الحياتية اليومية كغيرهم من الناس. وحتى وإن كانوا يتحدثون عن حياتهم اليومية، تجدينهم يتمتمون ويهمسون، وبالكاد تفهمين ما يقولون، ولا تعرفين هل هم يشتكون من شيءٍ أم هم سعداء.

إذا لم تواجههم بثبات وقوة، فسوف يجلدونك بألسنتهم ويؤلفون عنك القصص.

سامحتهم معلمتي بعد ذلك. ولكن، روحها ليست أبدية، لا توجد سوى روح واحدة، وهي لا تستطيع أن تسامح للأبد.

رغم أنها لم يكن لها أدنى علاقة بمسألة فصل "هوت هيد هوك" من المدرسة، إلا أن ألسنة الناس زعمت العكس تمامًا.

بعد أن راقبتْ التلميذ المفصول حديثًا وهو يلقي بكتبه ودفاتره في النهر، بعينيها الحزينتين، أعطته ظهرها وتنهدت، ثم أكملتْ الدرس بهدوء. قرأتْ علينا:

- دفنها "تشارلز" في ثوب زفافها. ألبسها حذاءً أبيض، ووضع إكليلًا من الزهور حول رأسها الذي غطَّاه بقطعة من القطيفة الخضراء. تناثرتْ خصلات شعرها فوق كتفيها. فعل كل ذلك بشكل يليق بامرأة شريفة.

# 8

الآن أعرف أن الدرس الثاني كان "مدام بوفاري" لجوستاف فلوبير، كما اختلطت عليّ الأمور في الأيام التي سبقت حصّة "مدام بوفاري"، ظلّت الأمور غير واضحة بالنسبة لي خلال الأسبوع الجديد أيضًا. امتزج الخيال بالواقع، أو الواقع بالخيال، لا يهم؛ فحين قرأت المعلمة الجملة الأولى التي تقول "دخل الناظر.."، رأيناه يدخل علينا فعلًا بجسده الضئيل ووجهه الشاحب وبدلته الكحلية التي لا يغيرها أبدًا، والتي يغطي كمّها الأيسر يده وأصابعه تمامًا، لأن ذراعه الأيسر أقصر من الأيمن. وحين يحرّك ذراعه القصير يبدو كمّه خاويًا. اعتاد أن يتحرك بخفة بالغة، دون صوت، كما لو كان شبحًا!

حين دخل علينا، كان يصطحب "أبراهام لاودماوث" الذي أمضى ثلاث ساعات تقريبًا في تصليح كرسي خشبي قام بخلع أرجله كلها أثناء حصة الجغرافيا.

وعندما انتهى "أبراهام" أخيرًا من وضع الكرسي في مكانه، والجلوس عليه، أشار لي الناظر بهدوء بأن أتبعه خارج الفصل. نظرت لي المعلمة بدهشة، وأغلقت كتاب "مدام بوفاري". لاحظتُ أن الناظر يحمل في يده شهادة تقدير وميدالية. عقب خروجي مباشرة، رأيت الناظر يركض متألمًا، ممسكًا بأذنه، ثم اختفى خلف أشجار الجميز نهاية الممر. خلال لحظة، قفز "هوت هيد هوك" من الشباك، والميدالية الضخمة تلمع على صدره. بعد ذلك، لمحته وهو يرمي كتبه في النهر.

ذهبتُ إلى مكتب الناظر، حيث شاهدت فور دخولي نسخًا من دفاتري على الطاولة الخشبية الكبيرة التي تتوسط الحجرة، بالإضافة إلى بعض الصور الفوتوغرافية للّقب الذي اخترته لنفسي مكتوبًا على جدران المدرسة. بجوار الطاولة المليئة بالخدوش وقف المفتش "وولي ووكر"، أو "ديك ماك بولز" كما يلقّب بشكل ساخر. سدّد لي نظرات نارية، بينما اهتز طرفا شاربه الذي يشبه شارب جدي "نيك نيكلز" من أيام الرايخ الثالث. نقل نظراته بيني والأدلة التي فرشها متجاورة على سطح الطاولة. ارتفعت شفته العليا، وارتفع معها شاربه عتيق الطراز، وهو ما يعني أنه في أقصى حالات الغضب.

أطرقت رأسي وقد تملكني الإحساس بالخجل. ظللتُ ناظرًا إلى الأرض، فلمحت حذاء الناظر الذي غطته بضع قطرات من الدم الجاف. كان قد غاب قليلًا ثم دخل الغرفة بضمادات على رأسه، أقرب ما تكون لعمامة بيضاء. جلس بجوار الشارب الغاضب لـ"وولي ووكر". حاولت أن أتفادى النظر إلى تلك العمامة، فطفت ببصري في أنحاء المكتب. توقفت لدى صورة كبيرة لشخص يضحك بطريقة هستيرية. إنه نفس الشخص الذي تحمل مدرستنا اسمه. حين أتذكر الآن ذلك اليوم، يخيّل إليّ أنه كان يضحك بتلك الطريقة بسبب ضمادات الناظر العجيبة، التي غطت أذنه وحاجبيه وجزءًا من رأسه. لعله كان يضحك على خصلة الشعر المصبوغة بشكل رديء، التي أفلتت من أحد جوانب العمامة.

ودون ذكر اسم الشخص الذي كان يعتلي رؤوسنا من داخل البرواز الضخم، فإنني سأكتفي فقط بالقول بأنه كان أعظم وأهم شخص على الإطلاق قام بحُكمنا، وأنني أحببته بشكل لا يوصف، وتمنيت أن أكون – يومًا ما – محبوبًا مثله بنفس الدرجة. تزايد إعجابي به حين شاهدتُ مرّة فيلمًا وثائقيًا تدور

أحداثه خلال الحرب العالمية الثانية. في وسط القوات المتقاتلة، والقذائف الجوية المنهمرة بغزارة، صوَّرته الكاميرا وهو يقف بثبات وثقة، وقد ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه. قلت لنفسي حينها:

- يا للشجاعة! يا للذكاء!

قررتُ في تلك اللحظة أن أصبح مثله، ولكن لأنه لا يمكن لأحد أن يحمل لقب "مارشال" غيره، فقد قررت أن أصبح "جنرال آس"، وهو أقرب ما يكون لشخصيته على الأقل.

كنتُ متأكدًا من أن هذا ما سيسعد أمي حقًا، فالنجاح بالنسبة لها يتلخص في أمرين اثنين، لا ثالث لهما؛ أن يحمل الإنسان رتبة عسكرية عالية، أو أن يكون طبيبًا.

حين كنت أستغرق في الكتابة، في دفاتري وأوراقي، على ضوء شمعة – إذ كانت خطوط الكهرباء أبعد من أن ترسل شحناتها إلى قريتنا – كانت أمي تتنهد بأسى واضح، حتى توشك أنفاسها أن تطفىء لهب الشمعة، لأنها لم تفهم أبدًا جدوى الكتابة، واعتبرتها مضيعة للوقت. كانت تقول ناصحة:

- عليك أن تكون طبيبًا، أو جنرالًا في الجيش، حتى يهابك الناس ويقدّروك. إن لم يخافك الناس، فلن يحترموكَ أبدًا.

عادةً، كانت تردد ذلك وهي تنشر الثياب المغسولة على الحبل الذي يعلو الفرن، أو وهي تعدّ لنا بعض السجق من لحم الخنزير البرّي الذي لا يحبه أحد.

المهم، في ذلك اليوم، اضطررتُ وبإشراف مباشر من "وولي ووكر" شخصيًا، وتحت ناظريه، إلى مسح "جنرال آس" من على جميع الأسطح التي كتبت عليها.

أمَّا الجدران التي فشلت في طمس الإسم من عليها، فقد تبرع جدّي "نيك نيكلز" لبناء سور حجري يحيط بالمدرسة كلها. دون مقابل بالطبع. لكن هذا لم يضايقه كثيرًا، إذ تفنن في تصميم السور بشكل جمالي متقن، وحفر اسمه في أحد الأركان كوسيلة لتعريف الناس بمهارته، وتخليدًا لتاريخه في عالم البناء.

بعد أن انتهيت من محو كتاباتي في أغلب الأماكن، توجهتُ إلى الحظيرة، نعم، هذا ما كان يطلق على الفصول الدراسية حينها. "حظيرة"، كالتي نربّي فيها المواشي بالضبط!

المهم، في طريقي للحظيرة، لمحتُ "وولي ووكر" بأذنيه الشبيهتين بورق الشجر، وهو يتحسس جسد معلمة الجغرافيا بشغف، تحت شجرة الجميز. نفس المدرّسة التي اعتادت نشر شائعات مخجلة عن "بلوسوم". تجاهلتُ وجودهما وأكملت طريقي وأنا أتمنى بشدة لو أن أحدهما كان صبَّارًا.

حين دخلت الفصل، كانت المدرّسة تنظر بشرود عبر النافذة. جلستُ بجوار "أبراهام لاودماوث". وحينها فقط فتحتْ كتابها وبدأت تقرأ علينا سطورًا منه بصوت مرتعش بعض الشيء. صوتٌ يدنو ويبتعد ويعلو قليلًا ثم يخفت. كنت أعرف بأنها ستذكرنا أولًا بدرس الحصَّة الماضية، حتى ندخل جميعنا في جو الرواية. تخيَّلتُ "إيمَّا بوفاري" في عربة تشبه العربة التي كانت "آنَّا كارنينا" تجلس فيها وهي تخبر زوجها بأنها تحمل طفل "فرونسكي". والآن، "إيمَّا بوفاري" تخبر "تشارلز" بأنه أعمى: "أنت أعمى يا تشارلز. أنت لا ترى شيئًا".

لكنه ابتسم وواصل النظر إلى الأشجار اليانعة المزهرة من حوله.

"بلوسوم" أيضًا يانعة ونضرة في عينيّ.

واصلتْ القراءة بصوتٍ مبحوح:

- قبل أن تتزوج، ظنت أنها في حالة حبّ. لكن السعادة التي يفترض أن ترافق هذه المشاعر لم تكن موجودة، ولذلك ظنت أنها ارتكبت خطأ، وهو ما دفعها للتفتيش عن معنى الحب في كل مكان.

تنهدت المعلمة وأغلقت الكتاب ووضعته على مكتبها.

تسللت أشعة الشمس بينها والنافذة، صانعًة مستطيلًا من الضوء تسبح فيه ذرات الغبار اللامعة قليلًا. نفس المستطيل الذي أراه الآن يا "دورنتينا" بينكِ والقلعة، بل ووراء ذلك بكثير أيضًا؛ المسجد والكنيسة وهذا الجانب من النهر. ربما هذا ما يجعلني أراها الآن. ها هي تقف بيننا على شبكة أشعة الشمس البرّاقة التي تفترش سطح النهر.

يومها، انسابت ألوانٌ عديدة من النافذة، وتطايرت داخل الفصل. في الخارج، تغيرت ألوان السماء مع مرور الوقت، وبدت ككوب حليب أضيفت له بضع ملاعق من الكاكاو.

امتلأ "أبراهام لاودماوث" بالإحساس بالملل، حتى خيّل إليّ أن جسده الضخم قد انتفخ وتضاعف حجمه. راح ينقر بأصابعه على الطاولة أمامه، ويحكّ الأرض بمقدمة حذائه، ويؤرجح قدميه. لكن كل ذلك لم يشتت انتباهي الذي تركّز في أحداث الرواية، حتى أنني بدأت أسمع وقع الخيل التي تجرّ مركبة "مدام بوفاري" على الطريق، بوضوح تامّ.

نظرة واحدة إلى "أبراهام" الجالس بجواري، أكدت لي أنه سئم من "إيمَّا بوفاري"، كما سئم من "آنَّا كارنينا" قبلها. الأمر الوحيد الذي كان يبعث التسلية في نفسه يا "دورنتينا" هو كتيبات ومجلات الكوميكس. كان من عُشَّاق البطل "زاجور" ومساعده وصديقه "تشيكو"، أو "دون تشيكو فيليبي كاييتانو لوبيز مارتينيز جونزاليس". اعتاد نزع الصفحات الداخلية لكتبه المدرسية، ولصق مجلاته المصورة مكانها. أثناء الحصص، يستغرق في قراءتها، واضعًا إياها أسفل طاولته؛ وإذا سأله أحد المعلمين سؤالًا، أجاب بغمغمات غير مفهومة. لكن ما فعله والده قبل أسبوعين، جعله يتوقف عن هذا الأمر.

فقبل أسبوعين من ذلك النهار، اقتحم والده "إيكو لاودماوث" الفصل، حاملًا مجموعة من الكتب والكرَّاسات. وقف صامتًا للحظة، ناظرًا حوله بعينين جاحظتين، كأنه تَيس، ثم رماها دفعة واحدة أمام "بلوسوم" وهو يصيح:

– هل هذا هو الأدب الذي تعلمينه لأولادنا يا أستاذة؟! هل هذا ما يدرسه ابني لديكم؟

تناول أحد الكتب، فاردًا إياه بين يديه كما لو كان يمسك طائرًا من جناحيه، وهو يبتسم ابتسامة عريضة. داخل غلاف الكتاب المدرسي، تم لصق مجلة إباحية ذات صور فوتوغرافية خليعة جدًا. أحنت المعلمة رأسها وجسدها وقد اعتراها خجلٌ واضح، وسارعت بمغادرة الفصل. وضع المجلة على مكتبها ولحق بها. دخل الناظر بسرعة، كما لو كان يقف خارج الفصل في انتظار هذه اللحظة. بادر من فوره إلى جَمع المجلات من على سطح المكتب، ووضعها تحت إبطه متجهًا إلى الباب، لكن أعدادًا منها سقطت على الأرض، وسارعنا جميعًا بالوقوف حوله لمشاهدة ما تيسر منها، ففرد معطفه الطويل أمامنا حتى يعيق رؤيتنا. التقطها في عجالة، ووضعها تحت إبطه ثانية، ووثب خارجًا من الفصل بخطوات واسعة كالمهرّجين.

في اليوم التالي مباشرة، قامت الإدارة بتعليق ورقة تأنيب على لوحة الإعلانات في ساحة المدرسة، تم خلالها توجيه اللوم والتأنيب لـ"بلوسوم" لمحاولتها نشر الفاحشة والرذيلة في المدرسة. ولعدّة أيام، لم تستطع معلمة الجغرافيا إخفاء ابتسامتها السعيدة التي كادت أن تشق وجهها لنصفين! حرصت "بلوسوم" على تجنب الجميع، حتى مدرسة اللغة الفرنسية التي كانت تتبادل معها حوارات مقتضبة في بعض الأحيان. انتابني شعور بأن معلمة الأدب المفضّلة لدينا جميعًا، وإن لم تكن مكروهة، فهي لم تكن محبوبة بما يكفي. لم أعرف السبب، وكل ما كنت متيقنًا منه هو أنها الأجمل والأذكى والأكثر طيبة بين جميع العاملين في المدرسة، وإنها اعتادت مغادرة غرفة المعلمين بمجرد أن يبدأ أحدهم في تناول سيرة زميل غير موجود. عرفتُ هذا بالطبع في وقتٍ لاحق.

ما أودّ قوله يا عزيزتي هو أنها كانت نزيهة ونقية؛ أو هذا على الأقل ما ظننته حينها.

وقبيل رحيلها إلى "أونتاريو" أو "مانيتوبا"، إلى بطلها "زاجور" أو "تشيكو"، أقرّ "أبراهام لاودماوث" بحقيقة ما حدث. قال بأن الشخص الذي يقف خلف قضية المجلات الإباحية ليس سوى معلمة الجغرافيا "راسكا"، في محاولة منها لفصل "بلوسوم" من وظيفتها. ورغم أن ذلك لم يتم، فإن منفذ العملية "إيكو لاودماوث" تلقى هدية لا بأس بها هي "موتوسيكل" مستعمل، بينما حصل "أبراهام"، كما أسرّ لي بنفسه، على مبلغ جيد من المال، مكّنه من شراء الأعداد الثلاثة والثلاثين التي كانت تنقص مجموعته من مجلات "زاجور"، ومن بينها كان العدد الثامن، الذي يحمل عنوان "المجرمون البيض".

ربما كان ما حدث للأب وابنه بعد ذلك هو الثمن الذي توجب عليهما دفعه لقاء هذه الخطة الحقيرة. لا أعلم حقيقةً.

لم أعد أسمع احتكاك عجلات العربة بالطريق. لكن شرودي في حفيف ثوب "بلوسوم" البنفسجي وهي تسير بيننا، وصرير حذاء "أبراهام" على الأرض، جعلاني أشعر بأنني داخل العربة، بجوار "إيما بوفاري"، وأن شعرها الأسود المنسدل على كتفيها، يلامس ذراعي، ويتحرك كلما حركت رأسها، وأذناها الصغيرتان بالكاد تظهران تحت شعرها الثقيل. وجهها متورد. صباحٌ مبهج، كصوت الديك الواقف على سور الإسطبل. صباحٌ لطيف، ونسيم جميل تطايرت معه خصلات شعرها الناعمة وهي تنزل من العربة، وتلامس الأرض بحذائها البنفسجي الأنيق.

لم أنتبه وقتها إلى أنني كنت أحدِّق إلى حذاء "بلوسوم" الملائم لثوبها الذي يلمع بعض الشيء، أحدِّقُ في بطنها، وصدرها الناهد، وفستانها الذي ينساب في ثنيات ناعمة متسعة بين ساقيها. طافت نظراتي الحائرة بين فستانها وأصابع "أبراهام" التي استمرت في الدق عل الطاولة. تنفست المعلمة وأكملت بصوتها البح. أحسست وكأنها استيقظت من نومها للتو، وأنها كانت تحكي لنا عن حلمٍ. تساءلت وهي متلبسة شخصية "إيمَّا بوفاري"، وهي تتأمل أضواء باريس المتلألئة التي تشبه بحرًا بنفسجي اللون:

- "يا إلهي! لماذا تزوجت؟".

استطردت شارحة:

- كانت موقنة بأن أمامها فرصة أخرى لتقابل رجلًا أفضل من "شارل" الذي يفتقر إلى الوسامة. طمأنت نفسها بأنها ستحظى بشخص وسيم وجذاب وخفيف الظل، كأزواج صديقاتها.

واصلت القراءة بصوتها المتلوّن، بينما تركّز اهتمامي على الإصغاء لحفيف ثوبها. أعرف جيدًا هذا الصوت، وأشعر بأنه يناديني؛ احتكاك الفستان بأجزاء جسدها المختلفة يصدر همسًا لا يعرفه غيري. ملامسته لثيابها الداخلية الحريرية لها أزيز خافت تميزه أذناي وحدي. هفهفته على ركبتيها هي منتهى الإثارة.

تنتشلني كحتها الخفيفة من أفكاري، فأنتبه:

- في أحد الأيام، التقت بـ"ليون". ظل يحبها بصمت لفترة طويلة، وهو في صراع بين خوفه من أن يهينها، وإحساسه بالحرج إن هي قابلت مشاعره بالرفض. كثيرًا ما استسلم لدموعه بسبب إحساسه بالعجز وافتقاره للعزيمة المطلوبة. في وجودها، تخذله شجاعته تمامًا. أمّا هي، فكانت تنتظر أن يفاجئها الحب بغتة بقوة عاصفة، كتنين يهبط من السماء ليقتلعها من جذورها وينطلق بها بعيدًا. وفي انتظار هذا الحب العاصف، بدأت تسأم من كل شيء حولها، واستحال السأم مع الوقت إلى كراهية شملت الجميع، بمن في ذلك ابنتها الوحيدة "بيرتي".

تنهدت "بلوسوم" وصمتت للحظات. لكن ثوبها ظل يصدر أصواتًا أشعرتني بالقلق الذي يعتمل في روحها.

تزايد إحساس "أبراهام" بالملل، فراح يهز ساقيه تحت طاولته، إلى أن رفعها بركبتيه دون أن يقصد، فنزلت بقوة مرتطمة بالأرض. التفتت الفتيات بهلع نحونا. عاد "أبراهام" بمقعده إلى الوراء، وضرب الطاولة بقبضتيه وصاح بطريقة مسرحية، مقلدًا بطله "زاجور":

- مجرد التفكير في هذا الأمر خيانة! سأقطع رأس هذا الجبان! باسم كل الطبول في غابة "دارك وود".

حوّلت البنات نظراتهن تجاه المعلمة، التي اكتفت بإعادة ترتيب طيّات ثوبها، ثم جلست على مكتبها. شقت الشمس طريقها بين الغيوم، وعاودت الظهور. لمست بأشعتها ثديها الأيسر، ثم الثدي الأيمن. ورغم أن "بلوسوم" لم تلاحظ ذلك، إلا أنها وبحركة تلقائية طافت بيدها على فتحة فستانها، بيتما قلّبت صفحات الكتاب بيدها الأخرى، قبل أن ترفع رأسها نحونا. واصلت القراءة متجاهلة "أبراهام":

- بدأ "ليون" يشعر بالضجر من مشاعره التي لا جدوى منها، فقرر السفر إلى باريس ليدرس القانون. ودّعها في لقاء قصير، بسبب وقته المزدحم. أحسّت "مدام بوفاري" عقب هذا اللقاء باليأس يعصف بها؛ كما لو أنها بيتٌ مهجور تعبث الرياح بين جنباته الخاوية.

راح "أبراهام" يصفر بفمه مقلدًا صوت الريح، لكنها واصلت تجاهله، وأخبرتنا أن "إيما" بدأت تجد "ليون" أكثر وسامة وجاذبية، وأضافت:

- رغم سفره وابتعاده عنها، إلا أنه كان لا يزال متواجدًا بالنسبة لها.

نظرتْ عبر النافذة إلى السماء التي أصبحت داكنة فجأة، كقطعة شوكولاتة غامقة. لعقت شفتيها قبل أن تستطرد:

- أرادت أن تلحق به وأن ترمي بنفسها بين ذراعيه وتصارحه بحبها.

ضرب "أبراهام" الطاولة بيديه بقوة، وصاح:

- عاهرة!

قالت "بلوسوم" بصوت هادئ:

- أخرج من هنا.

قال بجدّية تامّــة:

- ولكن من يعرف ماذا ستفعل إن أنا خرجت؟

راح يضرب الأرض بقدميه، دون أن يتحرك من مقعده.

هذا يكفي يا "دورنتينا". لا أستطيع مواصلة هذه الذكريات تحديدًا. سوف أخبركِ لماذا، فبعد ثلاثة أعوام سافر "أبراهام" إلى "مانيتوبا" أو "أونتاريو"، لا يهم حقيقـةً، ومعه "فيث" حبَّه الأول والأخير. ولسبب ما، حين ذهبت لوداعه أحسست بأنه سيغادرنا إلى أرض الخيال وأبطال مجلاته الذين عشقهم طوال حياته. بعد فترة، تلقيت منه بطاقة بريدية من مكان يدعى "ديد وود" في جنوب "أونتاريو". كتب على ظهرها متفاخرًا بأنه يعيش هناك حياة أفضل بكثير من حياته هنا. انقطعت أخباره عني بعد ذلك للأسف، ولم أعرف إلا الجمعة الماضية، قبل بضعة أيام فقط يا "دورنتينا" من مقتل أبيه، بأن "أبراهام" قد قُتِل. عُـثر عليه ميتًا بالقرب من منطقة "فورت آتكينسون"، بعد أن أُصيب بسهمٍ مسموم.

أرسلت حفيدته الصغرى، بعد ذلك، خطابًا قالت فيه بأن السهم كان مزودًا بعَلَم أبيض في نهايته، كُتب عليه: "باسم كل طبول غابة دارك وود، لا تلومنّ إلا نفسك". كما ذكرت بأنه بعد بضعة أيام زارهم رجلٌ قصير وسمين، عرّف نفسه بأنه "تشيكو فيليبي كاييتانو لوبيز مارتينيز جونزاليس". بلّغهم وسط دموعه بأنه قام بدفن أبيهم تحت شجرة حور، وأنه حفر على جذع الشجرة

التي أسماها "زاجور" العبارة التالية: "كان القدر أسرع من العدالة". كما نصحهم بأنهم إن أرادوا مستقبلًا نقل جثمان والدهم ودفنه في مكان آخر، ولم يكن هو موجودًا، فما عليهم سوى السؤال عن موقع الشجرة التي تحمل اسم "زاجور"، وألّا يقولوا أكثر من ذلك.

بعد مدّة، بعث هذا الرجل رسالة إلى "إيكو لاودماوث" يخبره فيها عن كيفية لقائه بـ"أبراهام". قال بأنه تعرّف إليه في شجار كبير، وأن الراحل كان يضرب بشجاعة وقوة بالغتين وهو يصرخ كما لو كان داخل مغامرة مصوّرة "بام".. "بوم".. "طاخ"، وكان يردّد بين الحين والآخر: "باسم آلاف الجماجم وطبول غابة "دارك وود"، وهكذا.

كما كتب هذا الصديق بأنه وخلال المشاجرة ذاتها، حشى غليونه وهو شارد الذهن بالبارود. أذهله الإنفجار الذي حدث أمام عينيه وأنفه عمّا حوله. لكنه استطاع سماع صوت "أبراهام" وهو يقاتل بشجاعة. حين استعاد قدرته على الإبصار بعد قليل، رأى "تشيكو" صديقه الجديد وقد اخترق السهم جسده. وكما في الروايات المصورة، لم يفارق الحياة على الفور وإنما ظل يصارع الموت. خلال ذلك، لم يتوقف لسانه عن لعن فتاة تدعى "فيث"، ذاكرًا أنها هجرته وابنتيهما من أجل رجل من "مانيتوبا" يغطي الوشم جسده.

أضاف في خطابه أيضًا بأن "أبراهام" التقى هذا الرجل في "فورت آتكينسون" قبل وفاته بيوم واحد، وقام بمهاجمته من الخلف، وخنقه طويلًا. قرر أصدقاء الرجل أن ينتقموا من "أبراهام".

ذكر أيضًا بأنه قبل أن يدفنه، عثر في جيبه على صورة فوتوغرافية صغيرة، أرفقها بالخطاب.

أراني "إيكو لاودماوث" الصورة التي ضمت ولده و"فيث" وابنتيهما، وهم يقفون أمام شلال. كانوا ويضحكون وينظرون إلى شيء ما يقع خلف تسعة تلال، وتسعة قبور. ثم تناولها مني، ووضعها داخل جيبه.

اختتم الرجل رسالته بالقول بأن كل ما ذكره صحيح وحقيقي تمامًا.

حين سمعتُ ذلك، كدت أن أضحك وأن أخبر "إيكو" بأنه سقط ضحية شخص مرح يحب المزاح؛ فالقصة التي قالها مكانها الوحيد هو كتب المغامرات المصورة. لكن قبل أن أفتح فمي، كان يناولني شهادة وفاة ابنه المكتوبة باللغة الإنجليزية، والمذكور فيها بأن "أبراهام لاودماوث" قد توفي قريبًا من "فورت آتكينسون". حملت الشهادة ختمًا واضحًا يتبع سلطات "أونتاريو".

هل تصدقين ذلك يا "دورنتينا"؟ ختمٌ واضح من السلطات المعنية يؤكد وفاته في "أونتاريو"!

ومرة أخرى، أعجز عن تحديد الحقائق والأكاذيب، هل مات حقًا أم زوّر شهادة وفاة مزيفة؟ هل مات كشخص حقيقي أم كبطل أسطوري خارق كالذين تزخر بهم مجلاته؟ هل يمكنك الإحساس بالموت بدون أدلة مادية؟

ما علينا، فلنعد الآن إلى "بلوسوم" ودرسها. استحالت السماء إلى لون الشوكولاتة الداكنة، والمعلمة لا تزال تنظر إلى "أبراهام" في انتظار أن يخرج من

الفصل. لكنه ظل يحك الأرض بحذائه، ببرود تامّ. نظرتْ حولها بعينين حزينتين، وزفرت في ضيق ثم أكملت:

- ظهر "رودولف" و...

قاطعها "أبراهام" صائحًا:

- كنت أعلم ذلك! بل كنت متأكدًا من ذلك! عندما أتزوج "فيث" سأبقيها مقيدة. النساء عاهرات بطبعهن يا أخي! سأفعل ذلك باسم كل طبول غابة "دارك وود"!

كان يتحدث وهو يجز على أسنانه ويمسك يدي بقوة ليقنعني بما قال.

عاودت "بلوسوم" تجاهلها له، وأكملت السرد بصوت هادىء:

- أمسك "رودولف" بذراع "مدام بوفاري"، واصطحبها إلى منزلها. ودّعها أمام الباب. صباح اليوم التالي، كان ينتظرها أمام بيتها ومعه حصانين أحدهما بسرج نسائي. انطلقا معًا حتى وصلا إلى قمة التل. توقفا هناك. بدا الوادي من تحتهما كبحيرة مترامية الأطراف. واصلا ركوب الخيل حتى بلغا أطراف الغابة. بين حفيف أوراق الشجر، وأصوات أجنحة الطيور وهي تتنقل بين الأغصان، قررا النزول عن حصانيهما.

قال "أبراهام"، وهو يغطي فمه بيده الضخمة:

- والآن، ترى ماذا سيحدث؟ تابعوا معنا الحلقات القادمة من المغامرة لتعرفوا.

وكأنها لم تسمع شيئًا، أكملت "بلوسوم" درسها بهدوء بالغ:

- ربط "رودولف" الخيول. سارت "إيما" بين النباتات الكثيفة. مدّ ذراعه ليساعدها وأمسكها من خصرها. قادها إلى بحيرة صغيرة، تتخلل سطحها أمواج هادئة. همس باسمها وهو يعانقها، فتنهدت. اشتبك ثوبها بمعطفه. خبّأت وجهها في خجل وهي تبكي، وهي تمكّنه من نفسها بين أشجار الغابة.

علّق "أبراهام":

- هذا أمرٌ متوقع طبعًا، في الغابة، وسط الأشجار! لو كنت أنا لاقتلعتها كالعشبة الضارة، هي والغابة.

استطردت "بلوسوم":

- بين الأشجار الظليلة، لمعت بعض الأغصان التي تساقطت عليها خيوط الشمس. بعد أن انتهى لقاءهما العاطفي، بدأت دقات قلبها تهدأ وتنتظم ثانية، وعاد الدم للإندفاع في شرايينها كشلال. صباح اليوم التالي، قابلتْ "رودولف" مرة أخرى. اعترفت له بحبها، وهو لا يتوقف عن مقاطعتها بقبلاته الناعمة، وهي لا تتوقف عن مطالبتها له بأن يقول لها بأنه يحبها، ويحبها، ويحبها، وبأن يناديها باسمها. اكتسبت عادة جديدة، وهي مغادرة المنزل فور خروج زوجها منه. تغيِّر ثيابها بسرعة، وتهبط الدرج المؤدي إلى حافة النهر، وتتوجه إلى الـ"كابينة" التي صارت مكان لقاءهما الدائم. في طريقها إليها، تمر عبر حقول زراعية، فيغطي الطين فردتيّ حذاءها الرقيقين دون رحمة.

همست "بلوسوم" بالعبارة الأخيرة، وهي تمعن النظر إلى حذائها.

عندها فقط، أدركت أن الأمور تختلط على "بلوسوم" أيضًا، فلا تعرف الفرق بين الواقع والخيال، وبين الفن والأدب من جهة، والحياة من جهة أخرى. أظن أنها كانت تجد ذلك مسليًا. عقب ذلك بسنوات، صارحتني بأن الحقيقة التي نجدها في الكتب، أكثر منطقية وعقلانية من وقائع حياتنا اليومية، وقالت:

- بعض الناس يستطيعون مواصلة حياتهم داخل أكذوبة غير قابلة للتصديق. ولكن لا يوجد كتاب يقوم على الأكاذيب غير المقنعة، وإلا لفشل فشلًا ذريعًا.

أردتُ في تلك اللحظة أن أخبرها عن جميع أكاذيبي التي استطعت تحويلها لحقائق، لكنني التزمت الصمت.

سوف أخبركِ بالمزيد عنها يا "دورنتينا". سوف أخبرك تحديدًا عن الأمر المتعلّق بالنهر. ذلك النهر، هناك، في الأسفل. أنتِ تسمعين صوت جريانه، أليس كذلك؟

منذ ذلك اليوم، يلازمني طيفها بثوبها البنفسجي وحذائها الأنيق، وحقيبة يدها الحمراء، وقبعتها المتراقصة على أمواج النهر.

هل كان بإمكاني أن أفعل شيئًا من أجلها يا "دورنتينا"؟ شيئًا أكبر؟ شيئًا أكثر؟

داخل الفصل، قامت "بلوسوم" من على مقعدها ببطء شديد، واستندت بيديها على مكتبها. هبّت رائحة عطرها، وتطاير شذاها في المكان. لا زالت تلك الرائحة عالقة بأنفي؛ مزيجٌ من أوراق التبغ الندية في حقولها، في الصباح الباكر، وعبير النرجس والريحان قبيل الغروب، مع أريج أزهار الربيع في ليلة مقمرة. خلفها، في الجزء غير المسوّر من ساحة المدرسة، تساقط مطر خفيف كقطرات من الشوكولاتة السائلة. ألقت حبَّات المطر، خارج النافذة، بظلالها

على ثدييها، فخيّل إليّ أنهما كعكتان صغيرتان تزينهما كريمة الشوكولاتة. أحسست بطعمها على لساني. اختلستُ النظر إلى "أبراهام"، كان لا يزال يحكّ الأرض بحذائه، ويضع يديه المتعرقتين على سطح طاولته. بدأ يطلق شخيرًا من أنفه، كما لو كان ثورًا هائجًا يتأهب لنطح من أمامه. لم يكن أمامه سوى "بلوسوم". فكرتُ حينها بأنه لو ظهر "رودولف" الآن لهاجمه "أبراهام" وخنقه بأصابعه دون تفكير. ربما مثلما سيفعل مع ذلك الرجل في "أونتاريو" بعد أعوام كثيرة. لكن الواقع أنه لم يفعل ذلك مطلقـًا، إذ سمعت بعد وفاته بسنوات أن القصة بأكملها مختلقة، بل لم يكن لزوجته عشيق من الأساس! وكان هو من خانها، وأحبّ فتاة من "مانيتوبا" أخبرها أن اسمه هو "زاجور". حين علمت "فيث" بالقصة، طردته من المنزل ككلب ذليل. أما بالنسبة لمسألة موته، فقد توفي في مستشفى للأمراض الصدرية، قريبًا من "فورت آتكينسون".

ولكن قبل سنواتٍ من موته، حين كان لا يزال يجاورني داخل ذلك الفصل، جلس متحدّيًا معلمته، التي قامت عن كرسيها، فارتفع طرف ثوبها وهي تنزل من على القاعدة المرتفعة قليلًا التي يوضع عليها مكتب المعلمين. حين فعلتْ ذلك، لمحتُ جانبًا من ركبتيها المضيئتين، وأحسستُ وكأن قطع من الشوكولاتة الشهية تذوب داخل فمي.

واصلتْ القراءة من كتابها:

- وبقدر ما منحت نفسها وعواطفها لأحدهما، بقدر ما كرهت الآخر. بدأت ترى عيوب "شارل" وتشعر بضآلة عقله وتفكيره. حين يزورها "رودولف" تملأ المزهريتين الزرقاوين بأجمل الورود، وتزين نفسها وحجرتها، كأنها محظية تنتظر أميرها. صارت خادمتها تجهز لها أرق الملابس الداخلية بشكل

يومي. أصبحت نظراتها متحدية، وكلامها بالغ الجرأة، ولم تعد تتردد في التنزه معه أمام أعين الجميع، وهي تدخن السيجار.

سكتت "بلوسوم" لبرهة ثم أضافت:

- عمدت إلى صبغ شفتيها ليصبحا أكثر إثارة. انبعث من طيّات ثيابها ومن جسدها الشهي أريجٌ فاتن يسيطر على الحواس.

لاحظتُ الرعشة التي انتابت جسدها بأكمله يا "دورنتينا" لكنها تمالكت نفسها سريعًا وأكملت الدرس:

- حين يعود "شارل" إلى البيت، تتظاهر "إيما" بالنوم. وبعد ذلك، وبينما تصغي لأنفاس طفلتها النائمة في مهدها، تنظر بشرود إلى القمر وهي مستغرقة في التفكير في "رودولف". لا يزورها النوم إلا فجرًا. صباح أحد الأيام، تسلمتْ منه خطابًا يخبرها فيه بأنه سيسافر إلى الخارج، وأنهما قد تسنح لهما الفرصة مستقبلًا لأن يلتقيا ثانية، وحينها سوف يجلسان معًا ليستعيدا ذكريات حبهما القديم.

قرأت الرسالة وهي مستلقية، وقد فغرت فمها في دهشة وصدمة، وقد علاها الشحوب وانهمرت الدموع من عينيها. أحست بضعف شديد. ولأكثر من أربعين يومًا، لازمها زوجها تاركًا مرضاه، موليًا إياها كل رعايته واهتمامه. سهر بجوارها ليالٍ طويلة، يقيس نبضها ويضع على صدرها كمادات باردة.

حين تناولتْ لقمة واحدة من الطعام، بكى "شارل" من فرط السعادة والإرتياح.

بعد أن استردّت شيئًا من صحتها، اصطحبها زوجها إلى حفل في دار الأوبرا في "روين". هناك، قابلت "ليون" الذي سافر لدراسة القانون في باريس. عقب

بضعة أيام، نجحت في أن تقابله على انفراد. كانت قد نست "رودولف"، كما تناست وجود "شارل" في الحياة من الأساس. أبلغت زوجها بأنها ستقابل "ليون" ليصدّق على بعض الأوراق القانونية الخاصة بها. غادرت بمفردها في عربتها الخاصة وتوجهت إلى فندق "بولون"، حيث أمضت معه ثلاثة أيام كاملة، تبادلا فيها شتى فنون الغرام. كان الفراق صعبًا على كليهما، لكنها وعدته وهي تحتضنه قبل مغادرتها بأنها ستجد أعذارًا تتيح لها لقاءه مرة واحدة في الأسبوع على الأقل.

أكملت "بلوسوم" القراءة:

- حدث ذلك بالفعل، وفي الفندق ذاته، وبنفس الطريقة العاصفة، وعلى نفس الفراش الكبير المصمم على شكل قارب. تدلّت الستائر حولهما، وهفهفت أطرافها بجوار الوسائد الوثيرة. لكن أيًا من الأشياء الجميلة التي ازدانت بها الغرفة، لم يكن أبدًا في جمال وجهها الناعم، وبشرتها ناصعة البياض.

اختتمتْ هذه الفقرة بتذكيرنا، بصوت متهدج:

- كانت في حالة حب، كجميع بطلات الروايات الأدبية والمسرحيات والقصائد.

أغلقت الكتاب ووضعته على طاولتها، ثم مشت بضع خطوات باتجاه شبَّاك الفصل. استدارت نحونا، واستندت بظهرها على إطار النافذة. أرسلت شمس الغروب أشعتها الخافتة داخل الفصل، فبدت الظلال كخيمة تغطينا جميعًا. نظرت "بلوسوم" إليّ، فتقافز قلبي من السعادة، وتسارعت نبضاته.

واصلت "بلوسوم" السرد:

- "صارت تعود إلى البيت في ساعة متأخرة، لتجد "شارل" في انتظارها كل ليلة. تقبّل ابنتها بفتور، ولا تتبادل معه كلمة واحدة. وبدأت تدرك أن طبيعة علاقتها بـ"ليون" أصبحت مجرد مشاعر من الضجر المتبادل. كان هذا مؤلمًا لها، وشعرت بأن الوضع بأكمله غير محتمل. تاقت لأن تطير كعصفور حرّ في سماء صافية. تناولت إناءً من الزجاج الأزرق وأزالت غطاءه، ثم مدت يدها داخله وقبضت على حفنة من مسحوق أبيض، وضعتها في فمها".

صمتت معلمتنا لبرهة، ثم راحت تصف لنا يدا "إيما" اللتان ارتختا على أغطية سريرها، وهي تحتضر. غامت عيناها كمصباحين خفت ضوءهما. ركع "شارل" بجوارها، ممسكًا بيديها وهو يرتجف.

قرأت علينا "بلوسوم" نهاية القصة:

- "مدّت يدها الشاحبة، وربّـتت على رأسه وقالت بصوت متحشرج "أيها الأعمى"، لكنه لم يفهم كلماتها، التي لم يسمعها جيدًا في الأساس. واصلت النظر إلى وجهه الدميم، وهي تلعن في سرّها السمّ ومفعوله البطيء، ثم أطلقت ضحكة عالية قبل أن تنهار على وسادتها. ارتفع نحيب شارل".

بينما كان "شارل" يبكي كطفل صغير، وقفت "بلوسوم" بجوار النافذة وهي تتابع فراشة صغيرة تحاول اختراق الزجاج. دارت قليلًا وابتعدت، ثم عادت ثانية لتضرب الشباك المغلق بجناحيها مرّات عديدة، وحين انتابها اليأس أخيرًا، ابتعدت وذابت في السماء كقطعة سكر في فنجان شاي.

تعالى صوت بكاء مكتوم في الصفوف الأمامية، حيث تجلس الفتيات. تحركت أيديهن تمسح دموعهن المتساقطة.

قال "أبراهام" بضيق:

- لو واصلت الملعونات البكاء بهذه الطريقة، فسيغرقن أعضائي!

وليؤكد نظريته، راح يحكّ أسفل بطنه بضجر.

قامت "بلوسوم" من مكانها، وسحبت فستانها للأسفل قليلًا فغطى ركبتيها، ثم سجّلت أسماءنا في دفتر الحضور والغياب. تناولت كتابها وقرأت علينا الفقرة الأخيرة منه:

- "دفنها "شارل" في ثوب زفافها. ألبسها حذاءً أبيض، ووضع إكليلًا من الزهور حول رأسها الذي غطَّاه بقطعة من القطيفة الخضراء. تناثرت خصلات شعرها فوق كتفيها. فعل كل ذلك بشكل يليق بامرأة شريفة".

أغلقت الكتاب واتجهت إلى باب الفصل. انسابت أشعة الشمس الغاربة من النافذة وتساقطت عليها، محولـَة إياها إلى طيف داكن.

لكزني "أبراهام" بكوعه بقوة، وقال ساخرًا:

- ستخترقها بعينيك!

لم يتحرك أي منا من مكانه، وظللنا نحدّق في الباب، إلى أن أدخل مشرف الدور "بريك جونسون" رأسه الشبيه برأس ثور من الباب وصاح:

- ماذا تنتظرون؟ انصراف! انتهى الدرس.

كان هنا يا "دورنتينا". منذ ليلتين. ترك موقعه دون استئذان ليتناول مشروبًا في بار "الديك الحليق"، على بُعد ثلاثمائة متر من الكنيسة. عاد إلى موقعه فجرًا، سائرًا بين القبور، حين أقبل الكابتن نحوه.

قبل شروق الشمس، كان كابتن "هوت هيد هوك" لا يزال يقف هناك، موجهًا بندقيته إليه، في حالة تأهب لإطلاق النار عليه إن هو فكَّر في الدفاع عن نفسه.

# 9

وراء الكنيسة، تقع الخيمة الصغيرة لقائدنا. وهناك واحدة أكبر منها لنا نحن القنّاصين الثمانية. نعمل بالتبادل، يتولى نصفنا المراقبة فيما ينام النصف الآخر. أما القائد، فلا نعلم أبدًا متى يعمل ومتى يستريح، متى يكون في الخندق ومتى يكون داخل خيمته. كثيرًا ما نتفاجأ به واقفًا خلفنا بصمت، يراقب كل حركة نقوم بها ونحن على خط النار، يبحث عن أي إشارة على خوفنا أو ارتباكنا، وهما الأمران المحظوران علينا جميعًا؛ أو يتأكد من عدم تمتعنا بالشجاعة الزائدة أو الإندفاع، وهو الأمر الأكثر خطورة.

في كل صباح، يوقفنا أمامه قبيل توجهنا إلى الخندق، ليقول لنا:

- على القنّاص أن يكون صبورًا وهادئًا، ومدركًا لحقيقة أنه هو أيضًا يمتلك جسدًا، لا عدوّه فحسب. أن تكون بعيدًا عن العدو لا يعني أبدًا أنك بعيد عن الموت. كل جسد يحمل موته معه. كلنا لدينا أجساد. حتى الربّ نفسه يمتلك جسدًا، لذلك فإنه أكثرنا معرفة بمسألة الموت. لولا الموت لما كان هناك مبررٌ للحرب.

ويستطرد دائمًا:

- الإنسان مجرد خيارة تعرف أنها ستموت، ولذلك عليكم أن تتحلّوا بالمسؤولية. تقدّموا نحو موتكم بحكمة.

لم ينسَ "هوت هيد هوك" مرة واحدة يا "دورنتينا" أن يشبّه الإنسان بالخيار. وفي كل مرة، حين أسمع ذلك، أتذكّر على الفور عندما عضّ أذن ناظر المدرسة.

يحلق ذقنه يوميًا قبل شروق الشمس، فاتحًا صفحات كتاب صغير، ساندًا إيّاه بين أغصان شجرة الكمثرى، وهو على الأغلب أحد مؤلفات "كريشينتسو" المتعلقة بالتاريخ المختصر للفلسفة، كما أظن. وأعتقد أن جميع الآراء التي يرددها على كل من حوله، وكأنها من بنات أفكاره، ليست سوى اقتباسات من هذا الكتاب، والأكيد أنه لا يفهم أي منها كما يجب أصلًا. وأخيرًا، حين أوشك صبري على النفاد، سألته بالأمس عن مسألة الربّ وجسده التي يرددها دائمًا. أشاح بيده وابتعد، صاعدًا البرج، ليرى ما يحدث على الجانب الآخر. حين عاد، تناول ذراعي وأنزلني معه إلى الخندق، وقال:

– كيف يمكن للربّ أن يخلق الإنسان، لو لم يكن يعلم الهيئة التي ينبغي أن يكون عليها؟ في البدء لم يكن هناك سواه، ما يعني أنه لم يكن هناك سوى هيئته، فخلق الإنسان عليها.

قال ذلك وغادرني دون الإهتمام بسماع رأيي. ذهب إلى الموقع الذي كان يقف فيه "بريك جونسون" قبل بضعة أيام، والذي غادره دون استئذان ذاهبًا إلى بار "الديك الحليق". وقف هناك حاملًا بندقيته، وهو في حالة استعداد لإطلاق النار عليه إن حاول الدفاع عن نفسه. أوقفنا بمحاذاة الحائط. نظرنا حولنا يمنة ويسرة، ولكن نظراتنا في نهاية الأمر كانت تعود فتستقر عليه، على "بريك جونسون" الذي أخبرنا قبل سنوات أن الدرس قد انتهى، عندما كنا في حالة شرود جماعي عقب درس "مدام بوفاري" الذي ألقته علينا "بلوسوم" بصوتها الآسر.

سار "هوت هيد هوك" أمامنا طويلًا، مشهرًا بندقيته في وجه "بريك جونسون" وهو يتفرس فيه. بين الحين والآخر، يتعثر في الصلبان المثبتة بين الحشائش. يتمالك نفسه قبل أن يقع، ويلعن الموتى الذين يرقدون في طريقه. أخيرًا، قفز فوق أحد القبور الرخامية رافعًا ساقيّ بنطلونه، ثم راح يتقافز بضعة مرات محاولًا إنزالهما عن رجليه المتعرقتين. وقف قليلًا في حالة صمت، منتظرًا انفجار قذيفة في حقل بطيخ قريب. تخيلتُ انفجار البطيخ وتطاير بذوره السوداء في كل مكان! لكن صوت الكابتن أجبرني على ترك تخيلاتي. سمعته يقول:

- كان على هذا الرجل، إن أمكن يعني أن نطلق عليه صفة "رجل"، أن ينتحر.

أضاف وهو يبصق في اشمئزاز:

- لأسباب وطنية بالطبع.

واصل قفزاته وهو يمسك بالبنطلون بإحدى يديه، خوفًا من سقوطه، وقال بغيظ:

- لقد أعطيته الـ"آكيوراسي" لا غير! عليه اللعنة! إنها أفضل بندقية يمكن أن يحلم بها أي قناص في العالم. فنلندية. صناعة شركة "لابوا"، ومطورة من قِبل خبراء أمريكيين. رصاص فضي ينطلق بصمت تام، ويمكن أن يصيب عدوًا يرتدي واقيًا للرصاص من الدرجة الرابعة من على بعد ألف وثلاثمائة متر. رصاصة واحدة من تلك البندقية، بآلاف من بنادقنا!

صاح في "جونسون":

- إثبت مكانك ولا تتحرّك أيها الخيارة!

واصل كلامه الغاضب:

- كان هذا الـ"رجل" مسؤولًا عن العمليات الكبرى فقط. الأعداء المهمين تحديدًا. مهمته الأخيرة كانت القضاء على قائدهم، ذلك الرجل ذو الذراع الواحدة واللحية الكثة، وعينيه اللتان تشبهان الحفرتين، فماذا فعل هذا الحقير؟ ترك بندقيته الثمينة في الخندق! السلاح الذي لا يقدّر بثمن! وغادر المكان بأكمله متوجهًا إلى "الديك الحليق" لتناول البيرة.

غمغم "بريك جونسون" بصوت هامس، مصححًا:

- النبيذ.

أحسّ "هوك" بالإستفزاز، فاقترب منه بسرعة موجهًا بندقيته إلى رأسه. ارتجف الجندي بارتباك واضح، وحاولتُ أنا كتم ضحكاتي يا "دورنتينا".

صرخ "هوك" بغيظ:

- كان هو في "الديك الحليق" بينما العدو هنا يقترب من مؤخراتنا الحليقة!!

ثم قال:

- ثلاثة من أصحاب اللحى الطويلة وصلوا إلى منتصف الجسر، تسبقهم عربة تحمل قشًا، يقودها حمار. لكن نائبي "إيكو لاودماوث" تصرّف في اللحظة المناسبة، مستخدمًا سلاحه الـ"آر.بي.جي". انفجرت العربة على الفور، وانطلقت منها شرارات ملونة، كما لو كنا في عرض للألعاب النارية! كانوا ينوون تفجيرنا، هنا، في مكاننا هذا. لو استطاعوا تنفيذ خطتهم لكنّا كلنا الآن مجرد أشلاء متناثرة. كل الشكر لنائبي "إيكو لاودماوث".

أضاف بعد برهة:

– لم يتبق من الحمار سوى أربعة حوافر فقط. أنا أشعر بالحزن على الحمار!

صاح في وجه "جونسون":

– أما أنت أيها الجاهل، فأنت مجرد خيارة حقيرة!

استدار مبتعدًا محتضنًا بندقيته، محاولًا تفادي الصلبان بالميل بجسده على الجانبين. بدا كشخص يتزحلق على الثلج. التفت نحونا بغتة، فتعثَّر في حجر وفقد توازنه، وفيما كان يسقط على الأرض اندفعت رصاصة من سلاحه.

في تلك اللحظة، سقط "بريك جونسون" على ظهره وهو يركل الهواء بساقيه، كسلحفاة مقلوبة.

نعم، كان له منظر السلحفاة يا "دورنتينا".

انقلب على بطنه، وزحف بصعوبة إلى جدار الكنيسة. وفجأة، استقامت ساقاه، ثم ارتختا وسكن جسده تمامًا.

حين استعاد "هوك" توازنه وقام واقفًا، كنا لا نزال جميعًا في حالة جمود، كتماثيل حجرية ذاهلة.

بعد ثوان، بدأ "جونسون" يتحرك ببطء شديد. فتح عينيه كشخص يستيقظ من النوم. تحسس وجهه، وأدرك أخيرًا أنه لا يزال على قيد الحياة.

أطلق القائد صوتًا مرتفعًا، هو مزيج من الضحك والبكاء، ثم أفرغ رصاص البندقية في كفه.

في الجهة الجنوبية من الجسر، باتجاه الضفة الغربية للنهر، ارتفعت أصوات طلقات نارية متوالية.

رمى "هوك" أغلفة الرصاص أمامنا، فرأينا أن أطرافها ليست مستقيمة وأنها جميعًا فارغة. حِرنا في تحديد الذخيرة التي يعبّىء بها سلاحه. أعاد ملء البندقية برصاص حقيقي هذه المرة، ثم أصدر أوامره بتزويد "بريك جونسون" ببندقية قنص جديدة، وقال له:

- سوف أمنحك فرصة أخرى، رغم أنك خيارة لعينة!

اصطحبه الكابتن إلى البرج. ما إن وضع قدمه هناك، حتى انطلقت نحوه رصاصة أصابته بين عينيه بالضبط. في زمن لا يتجاوز النصف ساعة، قمنا بحفر قبر له بجوار نصب البطل المجهول، ليسهل تمييزه مستقبلًا إن أراد أحد إعادة دفنه في مكان آخر. تساءلت إن كان هناك من سيبحث عنه أصلًا، أو يفكر في استعادة رفاته. مرّت أعوام كثيرة منذ زيارة أي فرد من عائلته للمدينة، عقب هجرتهم إلى "آليس سبرنجز" في أستراليا، التي استقروا فيها بأسماء جديدة اختاروها لأنفسهم. هو الوحيد الذي رفض المغادرة، وفضّل البقاء في بلده، من باب الوطنية. وبسبب الوطنية، لم يكن يشرب إلا النبيذ المحلّي، ولا يطرب إلا للأغاني الملحمية الشعبية الفلكلورية التي تقطر أسى وحزنًا. كان الرجل وطنيًا بحق يا "دورنتينا". حتى الجنازة كانت وطنية، مثل صاحبها.

وقف "هوت هيد هوك" على القبر، مخاطبًا الجندي الراحل:

- "جونسون"، أيها الوطني حتى النخاع، كلنا لدينا أجساد، وللرب أيضًا جسد. الموت أمرٌ مقدّس. اللعنة! أعني، أود أن أقول أن القبور مثل بيوت

الدعارة بالضبط. تلك البيوت مفتوحة للجميع، والقبور كذلك. البارحة، كنتَ في "الديك الحليق"، واليوم أنت هنا. أعني أن الموت والحياة لعبة واحدة. المهم أن تكون أنت لاعبًا جيدًا. أنت وطني حقيقي يا "جونسون". لم تخشَ الحياة، ولم تهاب الموت. أنت خيارة وطنية واجهتْ كل المصاعب بجسارة.

بعد أن انتهى "هوك" من خطبته، فرد قطعة من علم البلاد كنا قد عثرنا عليها بالصدفة، على جثمان "جونسون"، ونثر عليه حفنة من التراب الرطب. عزف "أوتو تشيربي" مقطوعات من موسيقى أناشيد وطنية مختلفة. بللنا شيئًا من البارود وكتبنا به على الصليب "البطل جونسون".

عرفه الكلّ باسم "جونسون"، رغم أن اسمه الحقيقي هو "بول بريكر".

في الليلة ذاتها يا "دورنتينا"، قامت جماعتكِ بالهجوم علينا. حاولوا السيطرة على الجسر، واحتلال أرض المقبرة. أعتقد أن خطتكم تركزت على الدفع بمن أمامكم للوراء، لإعادة تعيين الحدود. خلال هجومكم الأول، قضينا على أشجع رجالكم، الذين تقدّموا الصفوف الأولى؛ ثم جاءت من بعدهم صفوف من المقاتلين الأقل شجاعة، يجمع بينهم جميعًا الرغبة الصادقة في الموت بلا مقابل. في اعتقادهم بالطبع، هناك مقابل عظيم، إذ سينتقلون إلى الجنة رأسًا. الجنة، أنتِ تعرفينها ولا شكّ يا "دورنتينا"، حيث الأنهار والخمور والحوريات.

في مكاني في برج الكنيسة، الذي أوقفني فيه "هوك" بديلًا لـ"جونسون"، رأيتهم يتقدّمون في موجات متدافعة كالنمل، يقفزون فوق موتاهم، موتى وجرحى، لكنهك يتقدّمون بثبات. جموع بشرية لا نهائية، وكأنهم يتم تصنيعهم خلف تلك التلال، يتكررون، لم أستطع تصديق عيني عندما رأيت عددهم، وكأن

آلة طبع تطبعهم. عبر منظاري الليلي، لاحظت أن الأصغر عمرًا هم الأكثر إصرارًا وحرصًا على التقدّم للأمام؛ الفتيان ذوي القمصان السوداء وعصابات الرأس التي كُتب عليها كلمات سوداء غير مفهومة، بأحرف متجاورة كالجراد. كانوا ينزلون ماء النهر، يمسكون الرصاص بأسنانهم، غير مبالين بالموت الذي يتهددهم على ضفته، إذ كانت جماعتنا تنتظرهم هناك وتقضي عليهم أولًا بأول، بمجرد اقترابهم، قبل أن يضعوا أيديهم على مخزون المياه، الذي بدا واضحًا أنهم كانوا يريدون السيطرة عليه بأي ثمن. لكن أعدادًا جديدة منهم ظلت تواصل الظهور، وكأنهم يخرجون من أجساد موتاهم. قبيل الفجر، لم يعد أمامنا سوى استخدام طائرات الهليكوبتر "إم آي – 24" لإبادتهم. كان المنظر رهيبًا. راقبت ما يحدث بذهول من موقعي في البرج. ركضت مجموعة من أولئك الشبّان تحت إحدى الهليكوبترات ووجهوا نحوه سلاحهم الـ"أيه. كيه – 47"، فجَّروا هذه لتقصفهم الهليكوبتر التالية، فتطايرت أشلاءهم الحمراء في كل مكان، كبطيخ مفتّت. استحال ضوء القمر إلى اللون الأحمر. هواء بلون الدم انتشر في كل مكان. من يدري كم شخصًا قُتِل في تلك الليلة يا "دورنتينا"؟ حتى الطيور التي لجأت مرتاعة للإختباء داخل برج الكنيسة، كان لها رائحة الدم. رفعت رأسي لأراها، فوجدت أنها سنونو، وأن الدم يقطر من أجنحتها.

لم أطلق رصاصة واحدة من بندقيتي الـ"بلاك آرو" حتى حلول الفجر. لكن ما إن اعتلت الشمس الكنيسة، حتى لمحت بجوار الحائط الشرقي للقلعة فتى في قميص لونه "كاكي"، مثل قميصكِ بالضبط. كان قد وضع بندقيته على حامل، ووجّه فوهتها تجاه البرج حيث أقف. أمسك بإحدى يديه قبعته الـ"بيريه" السوداء، فيما راح يمشط شعره باليد الأخرى. أدركتُ أنها النقطة

التي ضربوا منها النار على "بريك جونسون". ألصقت عيني على منظار الليزر، وحدّدت منتصف جبينه كهدف، ولكن قبل أن أضغط على الزناد لاحظت أن على جيب قميصه الأيسر شعارٌ لطائرٍ أسود. أطلقت رصاصتي بين جناحيّ الطائر. مات الشابّ قبل أن ينزل يده التي تحمل المشط. مات دون أن يفرق شعره، ودون أي شعور بالخوف. لا يمكن أن تخاف شيئًا تجهله.

في تلك اللحظة أحسست بنوع من الراحة التي لم أعرفها منذ جئت إلى هنا. صدقيني يا "دورنتينا"، أقسم لكِ، لأول مرة أستمتع بالإنتقام. متعة تقارب تلك التي انتابتني حين شاهدت قصتي القصيرة التي تدور حول المرأة التي قُتلت داخل القطار في طريقها لزيارة أهل زوجها، منشورة للمرة الأولى في جريدة الطلبة.

ذلك الصباح الذي قتلتُ فيه الفتى الممسك بالمشط، أحسستُ بعبير دافئ يلفّ جسدي، رفرفة طيور بداخلي. هل النجاح نوعٌ من الانتقام يا "دورنتينا"؟ ولمن نوجّه هذاالإنتقام عبر نجاحنا؟ لا أدري.

واصلتُ المراقبة عبر منظاري، وأنا أفكر إن كان بإمكان طرف واحد التغلّب على الجيش بأكمله، وإن كان بإمكانكم السيطرة على الخزّانات التي تزود نصف المدينة الواقعة على الضفة الغربية للنهر بالمياه.

استمرّت جحافل من جيش المرتزقة في النزول من الجبل. جماعات تلو أخرى، وكلهم بلحى طويلة وكثة. كانوا مصرّين على عبور النهر وتحطيم الأسوار وفرض سيطرتهم على خزّانات المياه.

كانوا قد نجحوا في ذلك بالفعل في القسم الشمالي للجبهة. حُرِم مئة ألف شخص من المياه، منذ مئة يوم وأكثر يا "دورنتينا". هذا ما قاله "هوك". إنه يعرف هذه الأمور جيدًا.

بعد أن نجحنا في القضاء على المجموعة الأولى من المهاجمين، الذين تساقطت جثثهم في الخنادق المملوءة بالماء حول الخزانات، فاجأتنا المجموعات التالية بلا مبالاتها. قاموا بأداء الصلاة بهدوء. رأيتهم يركعون ويسجدون، ثم ما إن ينتهوا من صلواتهم حتى يقفوا في مواجهة الرصاص المنهمر عليهم، بعضهم كانوا يتلقون أكثر من رصاصة قبل السقوط. قبل حلول الظلام، رأينا أنه لا بدّ من تدخّل طائرات الـ"سوخوي" المقاتلة. الـ"سو – 25"، أو كما تعرف بين الناس بـ"فروج فوت". الشبيهة بالطائرات الأمريكية "أيه – 10" أو الـ"ثاندر بولت".

المهم، القلّة القليلة ممن نجوا، بشكل أو بآخر، من هجوم الطائرات، نجحوا في الفرار إلى القرى المجاورة، مدّعين بأنهم قرويين تضطهدهم السلطات. علّق "هوت هيد هوك" على الأمر بقوله:

– إنهم يعرفون أين ينتظر مراسلي التليفزيون أولاد الحرام، ولهذا يجرّون جثامين قتلاهم خلفهم بعد أن يلبسونهم ثيابًا مدنية.

نعم يا "دورنتينا"، شاهدتُ بنفسي جثث المقاتلين تلك وهم يسحبونها على التلال، لتظهر في اليوم التالي على قناة "سي إن إن" كضحايا مدنيين.

في الليلة التالية، كنت واقفًا على الجسر، في النقطة التي ترك فيها "جونسون" سلاحه وتوجّه لشرب النبيذ. الخندق الرئيسي يا "دورنتينا" يبدأ في أول الجسر وينتهي هنا. الخنادق الجانبية تربط الضفة بأكملها، بدايةً من الخزّانات إلى الكنيسة، ومن الكنيسة إلى أعلى نقطة في الوادي حيث أقف الآن.

أمطرت السماء بغزارة بضعة مرات قبل انتهاء النهار. هطل المطر بغزارة لثلاث مرّات متقطعة. مع حلول منتصف الليل، توقف القتال تدريجيًا، ثم عمّ الهدوء الشديد المكان. انعكست صورة القمر الأصفر فوق النهر. كنَّا ثلاثة داخل الخندق. جلسنا في صمت. كان القائد قد منعنا من إصدار أيّ صوت أو حركة، لأن القمر كان يضيء جانبنا، كما أن الهدوء التام ضاعَف صدى الأصوات بين جدران القلعة. وحتى لا نخسر رصاصاتنا دون طائل، اقترح "هوك" خطة ذكية، أن نلف قطعًا من الـ"ألمونيوم فويل" حول أجزاء من نباتات الضفة. ظن بعض المقاتلين غير المتمرسين في جماعتكم يا "دورنتينا" أنهم نجحوا في كشف أماكننا، إذ ظنوا أن بريق الألمونيوم هو اللمعان الصادر عن أسلحتنا، فقاموا بإطلاق الرصاص تجاه تلك الشجيرات، كاشفين بذلك عن أماكنهم لنا. خلال دقائق معدودة، استطعنا القضاء على ثلاثة منهم. ثم التزمنا الصمت ثانيًة، لأننا لم نعرف مكان "هوت هيد هوك". ربما كان بعيدًا أو قريبًا أو خلفنا. اعتاد أن يتسلل إلى الخندق بخفة بالغة، نتحير معها إن كان الظل الذي نراه هو ظلّه أم ظلّنا نحن.

مع تقدّم الليل، أمطرت السماء مطرًا خفيفًا. هل تتذكرين؟

لبستُ غطاءً واقيًا يمنع عني البلل. لكنني كنتُ جائعًا جدًا. أصدرتْ أمعائي أصواتًا عالية، حتى ظننتُ أن الناس على الجانب الآخر يسمعونها. تحسستُ بيدي في الظلام الدامس بحثًا عن الشنطة التي تحوي الخبز المتبقي من الغداء. عثرتُ عليها وأخرجت الرغيف، ورغم أنه كان مبللًا بعض الشيء إلا أنني بدأتُ في التهامه. عقب بضع لقمات، سقطت قذيفة قريبة. أعدت الخبز إلى الشنطة، وانحنيت في مكاني منتظرًا الوميض الذي سينتج عنها في جهتكم. انتظرت

طويلًا دون أن يحدث شيء. حين أخذ الظلام ينسحب شيئًا فشيئًا، وبزغ الفجر، رأيتُ الفتى الذي حلّ محل "جونسون" وهو يرقد بجانبي كما لو كان مستغرقًا في النوم. كان دمه قد سال حتى وصل إليّ. أخرجت رغيف الخبز. كان أحمر اللون. امتصّ الدماء كقطعة إسفنج. سالت منه خيوط حمراء على يدي.

في تلك اللحظة، تغيّر كل شيء يا "دورنتينا". أحسست بالغثيان وبالأسى. شعرت برائحة الصبي تجتاح كل ذرّة فيّ. ضربتُ مؤخرة رأسي بجوانب الخندق اللينة وأنا أعضّ يدي بقوة حتى أمنع الصراخ الذي خشيتُ أن يفلت مني ويسمعه "هوت هيد هوك". أخذت أبكي وأهذي بغمغمات لا أتذكرها الآن، دون توقف. وخلال ذلك، ظلت قطعة الخبز تنزّ دمًا، مسببة لي غثيانًا لا يوصف. استمرّ الولد في التحديق فيّ بنظرات ثابتة، كأنه في حالة دهشة وعدم تصديق.

هل كان يستغرب قدرتي على تناول قضمات من ذلك الرغيف، أم كان يستغرب موته يا "دورنتينا"؟

لا أدري.

ذلك اليوم، أخرجني "هوت هيد هوك" من الخندق وأعادني إلى البرج. خلال سيرنا قال أشياء لا أذكر معظمها عن الشجاعة والجبن. تحدث عن الأسماك الكبيرة والصغيرة. أذكر أنه قال أن السمكة الكبيرة تسبح بمفردها على الدوام، أمَّا الأسماك الصغيرة فإنها تتحرك في مجموعات، وأنه سيعيدني للبرج لهذا السبب. لأكون بمفردي، بعيدًا عن أي شيء. بعيدًا عن الدماء. بعيدًا عن الخندق. قال أن الخنادق تمتلئ بالدماء، لتواجد الأسماك الصغيرة بها. التفتُّ برأسي

نحو الخندق، فخُيّل إليّ أنه يمتلىء بنهر من الدماء، وأنني جثة تطفو على سطحه ثم تتحول إلى سمكة.

حين صعدنا سلم البرج، قال لي:

- اقتل، ثم انسَ الأمر على الفور.

أومأ برأسه تجاه المسجد. أسندت بندقيتي على فتحة البرج. وضعت عيني على المنظار. رأيتُ خيالًا يتحرك داخل المنارة. أردت أن أقول شيئًا، لكن الكابتن عاجلني بركلة في مؤخرة حذائي، وسألني:

- هل تعلم ما هي أكبر مشكلات الموت؟

أجبته وأنا أتابع الخيال الذي انعطف جانبًا داخل المنارة:

- كلا. لا أعلم.

- لن يخبرك أحد أنك ميت!

ركلني مرة ثانية، وأطلق ضحكة متحشرجة كصوت فأر، وهو يهبط الدرج.

هذا صحيح يا "دورنتينا". الأمر كذلك فعلًا. الموت يلازمنا ويلتصق بنا طوال الوقت؛ ونفارق الحياة دون أن يبلّغ أحدنا الآخر بالأمر.

# 10

– سوف تلاحظ الموت فقط حين يحوم حولك بوجه تعرفه. دون هذا الوجه، الموت مجرد مسافات تدور وتقترب منك، كقطة تحاول معرفة ما إذا كنت ستضربها أم ستربّت عليها بحنان. سأخبرك الآن عن وفاة أبي واختفاء أمي، والخطاب الذي أرسلته لي من "ياسنايا بوليانا".

هذا ما قالته "بلوسوم" حين زرتها في بيتها للمرة الأولى. كانت تقف أمام الشبّاك الذي لم تستطع ستارته الخفيفة أن تقلل من الضوء القوي المنبعث من خلاله. أكثر ما يلفت الإنتباه في هذه الغرفة هو الكميات الهائلة من الكتب التي تضمّها. الحائط المواجه للنافذة مغطى بالكامل بأرفف تصل إلى السقف، رصّت عليها مجلدات ضخمة، بأغلفة ذات ألوان حائلة تميل إلى الرمادي. لاحظت أن أغلبها روايات روسية متكررة، بطبعات مختلفة، بعضها مترجم إلى لغات سلافية متعددة. هناك نسخ كثيرة لـ"الحرب والسلام" و"آنا كارنينا". حاولتُ أن أحصيها عدّة مرّات، لكنني فشلت، لأنني ظللت أنسى الرقم الذي وصلت إليه كلما بدأت في عد كتب رفٍ جديد. كل ما استطعت رؤيته هو أن الأرفف وصلت للسقف، وكانت الكتب مرصوصة بطريقة أفقية لأنه لا توجد مساحة لكي يتم رصهم بطريقة رأسية.

تطل نافذة الغرفة على الجانب الخلفي للبيت، حيث رُبطت ثلاث دراجات هوائية بسلاسل معدنية إلى العمود الحديدي الضخم الذي يتوسط الساحة. أتذكر كيف أن الأطفال في الماضي كانوا يلعبون هناك لساعات، وسط صخبهم المتواصل وضحكاتهم. أنا أيضًا كنت آتي إلى هنا أحيانًا. أختار دومًا الدراجة متوسطة الحجم. أواصل اللعب حتى الغروب.

غروبٌ شبيه بهذا الذي تخترق شمسه ثوب "بلوسوم"، وتدغدغ أشعته الخافتة يَدَيَ وأنا أجلس أمامها وأراقبها وهي تعتلي مقعدًا صغيرًا دون ظهر، مغطى بقماش مطرز. تمدّ يدها لتحضر كتابين من على رفّ علوي، ثم تنزل من عليه. تقول:

- كلها طبعات أولى. حين كنت صغيرة، وحين كنت لا أزال أعتقد بأن كل الحكايات حقيقية، اعتادت ماما "كاتارينا" أن تجلسني هنا، على هذا المقعد نفسه الذي كان له غطاء مختلف وقتها، لتقصّ عليّ حكاية طويلة عن امرأتين شهيرتين، إحداهما تدعى "آنا" والأخرى "ناتاشا". كانتا جميلتين جدًا، وتجمعهما بأمي علاقة ودودة قائمة على التفاهم المتبادل. كنّ كثلاث شقيقات. كثيرًا ما قالت لأبي:

- لو أنني مكان "آنا"، لفعلتُ الشيء ذاته.

أو عبارة مثل:

- لو أن "ناتاشا" مرّت بنفس موقفي هذا، لتصرّفتْ مثلي بالضبط.

وكانت تردد دائمًا:

- لا أحد يفهمني سوى "آنا" و"ناتاشا" فقط.

فيما بعد، ظهرت "ماشا" أيضًا. لكن الحديث عنها كان مصحوبًا بالدموع والبكاء على الدوام:

- وجدتُ "ماشا"، وسوف تقف إلى جانبي إن أنا قررتُ الرحيل.

كانت تقول ذلك وهي تقلّب صفحات الكتب المتناثرة حولها على الأرض. لم أفهم حينها إن كان ذلك نوع من التهديد، أم محاولة لتبرير تصرّف ما أمام والدي. لا أدري.

واصلت "بلوسوم" حديثها:

- ولفترة طويلة، ظننتُ أنهن صديقاتها، رغم أنني تعجبت من عدم زيارتهن لنا، وعدم مرورهن عليها لتناول القهوة كغيرهن من معارفها وزميلاتها في العمل. كانت أمي معلمّة للغة الروسية في المدرسة الإبتدائية القريبة من الكنيسة، كما تعرف. وصديقاتها اللواتي كن يترددن على منزلنا هن "كوليتّ" و"فيث" و"سيلفي" و"جانين". لم أشاهد أبدًا أي "آنا" أو "ناتاشا" أو "ماشا". سألتها مرة عن سرّ عدم مقابلتنا لهن، رغم أنها لا تكف عن الحديث عنهن. تحيرت قليلًا، ثم احتضنتني وقالت بأنهن لن يحضرن أبدًا، لأنهن لا يعلمن الطريق إلى هنا، لكنها ستنضم إليهن يومًا ما لأنها تعرف مكانهن. انتابني الرعب وقتها من أن تغادر دون أن تخبرني، وصرت لا أنام إلا وأنا أضع إصبعي الصغير في عروة ثوبها المنزلي، حتى أبقيها بجانبي.

اصطحبتني لمقابلة الأب "سيلينتيوس" في الدير. أراحتني الزيارة قليلًا، لكنها فشلت في محو الخوف من قلبي.

صمتت قليلًا، وضمّت ركبتيها إلى بعضهما، ثم قالت:

- بعد ثلاثة أيام من تخرجي، غادرت "كاتارينا" دون رجعة. وبعدها، وأنا أعيد ترتيب الكتب على الرفوف، عثرت على هذين. انظر!

فتحت الكتابين اللذين أنزلتهما من على الرف المرتفع.

- في كل صفحة، وضعتْ خطًا بقلم الرصاص تحت اسميّ "آنا" و"ناتاشا". وفي كل صفحة، كما ترى، رسمتْ فراشة صغيرة. انظر! "آنا"، "ناتاشا"، فراشة. وهنا، "آنا"، "ناتاشا"، فراشة، وهنا، وهنا أيضًا.

أردفت قائلة:

- لعلك لاحظت أن اسم "ماشا" غير موجود، أليس كذلك؟ "كاتارينا" كشفت السر قبل تخرجي ببضعة أشهر.

قامت من مكانها، وأعادت الكتابين على الرف، ثم سحبت مجلدًا آخر باهت اللون، أكثر من أي غلاف آخر، وقالت:

- هذه يومياتها. هنا جدتها. دعني أوضح لك الأمر، أمي هي حفيدة "ماشا"، خادمة الكونت "تولستوي" الكاتب الشهير. في مذكراته السرية، كتب "تولستوي": "قابلتُ ماشا بالصدفة اليوم، ومنحتُ زوجها حصانًا". هذا كل ما في الأمر. مجرد جملة واحدة! لكنها عصفت بكيان أمي، التي أصبحت تظن أنها حفيدته، ولذلك حرصتْ على شراء جميع مؤلفاته وكأنها تردّ له ثمن

الحصان. بعض الكتب هنا ورثتها أمي عن جدتها "ماشا". ابنها الوحيد، أي جدّي لأمي، والذي يدعى "آليكسي بيتروفيتش كرازنوف" كان مهندسًا وعضوًا في الحرس الأبيض. هاجر من روسيا، عقب الثورة الحمراء. كان أحد الثلاثين ألفًا الذين استقروا في هذه الأنحاء. وُلِدت ماما "كاتارينا" هنا.

استطردت:

- انظر إلى الخطوط التي وضعتها هنا، وهنا، أظن أنها كانت تبحث عن نفسها بين هذه السطور. ربما فشلتْ في ذلك. هل تعلم أنني أنا أيضًا ينتابني أحيانًا شعورٌ بأن مكاني الحقيقي هو داخل الكتب؟ جسدي مكوّن من كلمات، روحي عبارة عن أصوات متعددة. النقاط والفواصل، وجميع علامات الترقيم تسبح على جلدي، وتسبب لي القشعريرة. أتساءل أحيانًا ما إذا شكّلتني أمٌ من لحم ودم، أم شكّلتني الكتب التي أحبها محبة الإبنة لأمها؟!

واصلت سرد حكاية والدتها:

- عقب ثلاثة أيام فقط من تخرجي، حملت حقيبة يدها الحمراء، ووضعت على رأسها قبعتها البيضاء، وقالت بأنها ستذهب لتصفيف شعرها. لم أعرف عنها شيئًا لعدّة أسابيع، ثم وصلني منها خطاب كتبته في منزل "تولستوي" الذي يحمل اسم "ياسنايا بوليانا"، وتحديدًا في المرعى الذي اعتاد حصان جدّتها "ماشا" أن يأكل فيه العشب، كما كتبت. هاكَ الخطاب..

سحبت "بلوسوم" ورقة رقيقة، مصفرّة اللون، من بين صفحات المجلد، وناولتني إياها. قرأت فيها:

"هنا في بيت الكونت، رحّب بي فتى مهذب، يتحدث بشكل جيد. سيعجبكِ إن رأيتِه. أنا متأكدة من ذلك. عيبه الوحيد هو الصلعة الخفيفة في مؤخرة رأسه. اصطحبني لزيارة القبر. مررنا في طريقنا بأشجار مختلفة. مجرد التفكير يا حبيبتي بأن الكونت لامس نفس الأشجار والأغصان، أشعرني بسعادة بالغة. أحسست بأن جدتي "ماشا" تراقبني من بين الغصون كثيفة الأوراق. كل شيء هنا يحمل رائحة حصاننا. صدّقيني. تلك الهدية الثمينة! أمضيت وقتـًا طويلًا عند القبر، ثم ذهبت إلى فندق القرية، بجوار بركة الماء الصغيرة التي يسبح فيها البطّ البرّي. قام على خدمتي رجل أشقر وسيم، اسمه "ماتفيف". رفض أن أعطيه بقشيشًا، وقال بأنه يرغب في قصّ الحكايات القديمة، لا أكثر. ومن خلال حكاياته عرفت أن جدي فرح بالهدية المتمثلة في الحصان فرحًا بالغـًا. وحين وضعت "ماشا" وليدها، ركب الحصان وهو يغني بسعادة لقدوم مولوده، وبينما كان منشغلًا بالغناء، ارتطم رأسه بغصن كبير أوقعه أرضًا، ولم يقم من وقعته تلك أبدًا. كان والدي يعرف هذه القصة عن أبيه، لكن ما لم يكن يعلمه هو أن الكونت ذكر هذا الحصان في يومياته. لم أكن أعرف شيئًا عن هذا الأمر يا ابنتي الحبيبة، إلا حين اشتريتِ لي كتاب مذكراته في عيد ميلادي. أشكركِ على تلك الهدية الرائعة. دعيني أخبركِ بأنني وجدت في متحف البلدة مخطوطًا قديمًا كتبه بيده، ذكر فيه: "كانت ماشا جميلة جدًا. لكنني لن أصف حُسنها الفتّان حتى لا يطاردني خيالها، كما كان يحدث في فترة شغفي بها. وحتى لا أقع في الخطيئة، فلن أمعن في ذكر تفاصيل جمالها، وسوف أكتفي بالقول أن بشرتها ناصعة

البياض، وجسدها بضّ، وأنها أنثى حقيقية". هل لاحظتِ يا حبيبتي أنها صفاتكِ أنتِ أيضًا؟ أنتِ تشبهينها. لقد استأجرتُ عربة، كالتي كان يركبها الكونت. بعد أن أودّع "ماتفيف"، ذلك الشابّ الذكيّ، فسوف أتوجه إلى "آستابوفو" حيث توفي الكونت. سأجلس في المحطة أراقب العربات الثانية في القطارات. تُرى، كيف خطرت له عبارة "ثأري هو مكافأتي"؟ أشعلي شمعـةً لوالدكِ، بالنيابة عني. سوف أرسل لكِ بطاقة بريدية حين أصل هناك يا حبيبتي".

علّقت "بلوسوم":

- مرّت أعوام كثيرة منذ تسلّمت هذا الخطاب، ولم تصل أمي إلى "آستابوفو" بعد.

أعادت الرسالة داخل المجلّد، وقالت:

- في الواقع، لا أحد يعرف إن كانت قد غادرت أصلًا أم لا. تمّ تسجيلها في قوائم الأشخاص المفقودين. أمَّا موتها، فإنه يحاصرني فعلًا، لكنني لا أستطيع التعرّف عليه طالما أنه لا يحمل وجهها.

ربّتت على الكتاب الذي وضعته على ركبتيها.

تسلّقت أشعة شمس الغروب ذراعيها، وتقافزت محاولـةً الوصول إلى ثدييها. عمَّ الهدوء، وكأن كل ما حولنا ينتظر حدوث شيء ما.

لا يزال البيت هادئًا في ذكرياتي يا "دورنتينا". يقع بيتهم على أطراف البلدة، وخلفه الحديقة العامة التي بها تمثال الولد الذي يتبول، يشبه ذلك الذي يتوسط الميدان. الماء المندفع من ولد الحديقة يتجمد خلال فصل الشتاء، فيتهافت السيّاح على التقاط الصور أمامه في إجازات الكريسماس، خاصةً عندما يتجمع الحمام البري على قوس المياه المتجمد الخارج من التمثال بعد أن تعبوا من البحث عن الطعام في أفنية المنازل. قبل النافورة بقليل، تنتهي

صفوف أشجار الزيزفون التي تبدأ من محطة الباص، بجوار الكوبري. حين كنت أعود في إجازاتي الجامعية، كنت أمرّ على هذه الأشجار في طريقي إلى بيت جدّي. على جانبي الطريق، وعلى كل جذع، وأينما التفتّ، تطالعني الصور الفوتوغرافية للراحلين، المتزينين والمتأنقين والمبتسمين. عندما أمر بهم، دائمًا ما كنت أشعر بأنه في مكان ما على هذا الطريق، مهما كان المكان، ومهما كان الزمان، سترحب بي ابتسامة مألوفة، الكثير من الابتسامات المألوفة، لأن هذه البلدة كانت صغيرة للغاية ليكون فيها موتى أغرابٌ. إن نظرت عن يميني أو عن يساري، فسأرى على الفور ابتسامة جديدة مألوفة على الشجرة، فقط تبتسم، لا تريد أن تتركني أمضي. هو بالتأكيد يبدو سعيدًا، بينما أشعر بالحيرة، فأنا أجد من الصعب أن أصدق أنَّه أيضًا انضم للحرس الشرفيين في هذا الشارع. هو لا يستطيع التحدث، وهذا بالطبع لأنه حارسٌ شرفي، ولكنني أستطيع أن أقرأ في عينيه ومن شفتيه أنه يريد أن يخبرني بأن الموت ليس غيابًا، بل هو فقط وجود بديل.

قالت "بلوسوم" فجأة:

– الموت موجود. لا شك في ذلك. كالهواء الذي يضغط علينا بقوة سبعة عشر طن. لكننا لا نشعر به مطلقًا، إلى أن يبدأ في الضغط بقوة على نقطة واحدة، هنا مثلًا، أو هنا..

نقّلت يدها على ثدييها.

تخيّلي يا "دورنتينا" سبعة عشر طنًا من الهواء الذي لا نشعر به أبدًا. يضغط عليكِ وعليّ دون أن نحسّ به. لكنه لو فعل ذلك على قلبينا، فسوف يتمّ تعليق صورنا على جذوع الشجر. أنتِ في جهتكم، وأنا في جهتنا من الشارع. نبتسم بفخر بالغ على الزيزفون. صورتينا ستنظران بعينين بسامتين على كل من يمر بهما. سنقف بفخرٍ، وسنرفع رأسينا، وهذا بالطبع لأننا الحرس الشرفيين للطريق الرئيس. بجوارنا، وفي زيّهما الرسمي، يطوف علينا "هوت

هيد هوك"، ورجلكِ، ذلك الأكتع ذو اللحية الكثة. الميداليات والأوسمة تتدلّى على صدريهما ببريق أخَّاذ تحت أشعة الشمس. الرجل ذو اللحية يسير حتى يصل أول الجسر، ثم ينصرف. هذا ما ينص عليه اتفاقنا معكم. "هوك" يسير حتى الولد المتبوّل في الحديقة، قريبًا من منزل "بلوسوم"، ثم يعود أدراجه. هذا ما ينصّ عليه اتفاقكم معنا. خلال كل ذلك، تظل ابتساماتنا الفخورة ثابتة مكانها. الموت، كما اتفقنا، لم يغيّبنا، بل حوّلنا إلى كيانين مختلفين.

الحياة مهرجان غريب يا عزيزتي.

أكرر:

- غريب.. غريب..

ها قد أتى ما إن جاءت سيرته!! ذلك الأكتع! لم ألحظ متى خرج من الخندق، ليقف فاتحًا ساقيه في تكبُّرٍ هكذا. لمحت خياله يسقط على بندقيتكِ، فخمّنت أن ذلك الملتحي الحقير يقف تحت شجرة البندق. كم أرغب في قتله! رغم أنني لا زلت غير متأكد إن كان هو "فاتوس ديديلـّـي" زميلي السابق أم لا. سأقتله على أي حال. أراه ينظر إليكِ باشتهاء واضح، يكاد أن يبتلعكِ ابتلاعًا. أراقب طرفيّ أنفه وهما يتسعان في انفعال. لا شك أنه يتمعن في ساقيكِ المنفرجين وأنتِ مستلقية. أنتِ تدركين أنه موجود ولكنك لا تستطيعين الإلتفات نحوه. أراه وهو يتأمل فخذيك. ألمح ابتسامته حين يطوف بنظراته اللزجة على مؤخرتك. وجهكِ ثابت، دون أي تعبير.

أدرك أن ما يضغط عليكِ ليس السبعة عشر طنًا فقط، وإنما ظلّه الأسود ونظراته الوقحة.

وفجأة، يستلقي بجوارك على أزهار الربيع. غير معقول! يلتصق بك. يستند إلى ذراعه الوحيدة ويهز رأسه بعنف وهو يتحدث. تهتز الزهور تحت لحيته الكثيفة. يشير نحوي. أعرف أنه لا يراني، لكنه يدرك في الوقت ذاته أنه لا بد من وجود شخص في هذا المكان، على هذا الجانب من النهر. يقترب برأسه من

رأسك، حتى تضيع لحيته وسط خصلات شعرك. يلمس يدك الممسكة بالبندقية. يلمسك! لا أدري إن كان يحبك أم لا. لا أستطيع رؤية وجهه تحت تلك اللحية. المؤكد أنه لا يعرف الحب ولا الكراهية، ولا أي مشاعر إنسانية. يزيحكِ من أمام سلاحك، بدَفعة قوية من كتفه، ويضع عينه على المنظار. في تلك اللحظة، يهبط غراب كبير على الشجيرات أمامي، ويحرّك جناحيه بقوة ليحافظ على توازنه. ربما كان الغراب هو الذي حماني، أو ربما غيّر هو اتجاه البندقية دون قصد، حين أبعدكِ بكتفه. لست متأكدًا. لكنني أراه وهو يزفر بضيق ويبتعد. هأنتِ، عدتِ إلى مكانك خلف سلاحك.

كان بإمكاني أن أضغط على الزناد، وكان سيموت من فوره، وننتهي من الأمر برمّته يا "دورنتينا". الغراب السحري الذي ذكّرني بشخصية "آرثر جوردون بيم" في رواية "إدجار آلان بو"، طار بعيدًا، وأعادنا إلى المجال البصري لبعضنا ثانيةً.

لا زلت أرغب في معرفة معنى حركات رأسه الهستيرية تلك. كم كنت أرغب في قتله حين رأيته ينظر لشعركِ بتلك الطريقة ونظراته المتلصصة إلى فتحة بلوزتك، والمتسللة إلى نهديك اللامعين. رأيته وهو يتشمم شعرك، وكيف عاد للوراء قليلًا ليراكِ بطريقة أفضل. أستطيع رؤيته وهو يدير رأسه ويقول شيئًا ما، يبدو غاضبًا، أعرف أنه كذلك بسبب حركة رأسه، فأنا لا أستطيع رؤية شفتيه.

يبدو أقصر منكِ. أستطيع تخمين ذلك من ظله الساقط على جسدك، يقبض على لحيته بجميع أصابعه، ثم يركل شيئًا لا أتبينه بقدمه اليمنى، وينزل في مكان، لعله الخندق الذي يصل إلى القلعة. الكابتن "هوك" يقول أن النفق الخاص بكم، القريب من المسجد، يبدأ من هناك، من جوار شجرة البندق. لكن الأكتع لم يستخدم ذلك النفق، إذ ألمحه قريبًا من الحائط الجنوبي للقلعة، ثم يختفي بين النباتات التي تغطي الأحجار الضخمة. رغم أنه لا يقف بجانبكِ الآن يا "دورنتينا"، إلا إنني أستطيع رؤية ظله بوضوح، كما لو كان لا يزال وراءكِ.

أشعر بالدوار والعطش.

ماذا ينبغي عليّ أن أفعل ليختفي ذلك الظل الملعون الذي يأبى مفارقتك؟ وذلك الغراب الكريه الذي يقف مستعرضًا نفسه على شجرة البندق فوقك؟ لو كان "آرثر جوردون بيم" هنا، لقال "يكفي هذا!"، لكن الظل باق. إنه بداخلي. كم أودّ مغادرة هذا المكان بأكمله، وأن أتوجه إلى النهر وأختفي هناك يا "دورنتينا".

في طريقي إلى هناك، أمرّ كطيف في الطريق الرئيسي. أنظر إلى الوجوه المبتسمة للأموات العديدين. لا أحد منهم يتعرّف إليّ. أمشي بخفة بالغة، دون صوت. أجد نفسي أمام بيتي. لا أحد هناك ليخبرني أني ميت، وأن رصاصة قنّاصة قد قتلتني اليوم، ظهيرة الجمعة، شمال الكنيسة. أمسك بأحد أغصان شجرة البرقوق، وأستعين به للقفز على السور الخشبي المحيط بمنزلي. الباب مقفل. اختفت النوافذ. أدخل الغرفة الكبيرة، وعندها فقط ألاحظ أن البيت لم يعد له سقف. الحجرة خاوية تمامًا إلا من مقعد خشبي بأرجل متهالكة تهدد بالتفتت، بالتحول إلى أوراق شجر، بالضبط كما في قصتي "استدعاء الأرواح". أجلس بحذر بالغ على الكرسي. يظهر غرابان، كذلك الذي يقف خلفك. ينحنيان لي. يهطل المطر فجأة. مطر قوي، حقيقي. ألاحظ أن الغرابين ذكر وأنثى. الذكر يشبه أبي. الأنثى تشبه أمي. يفتحان منقاريهما محاولين التحدث. لكن أصواتهما تخذلهما. نفشل في إيجاد وسيلة للتفاهم.

تقول "بلوسوم":

- اقرأ بتمهل. العنوان جيد، "استدعاء الأرواح".

كانت قد دعتني إلى منزلها لأقرأ عليها قصتي القصيرة الثانية.

أقرأ ببطء:

- "أخبراني لماذا، قولا على الأقل بأنكما اضطررتما لفعل ذلك". لكنهما لا يقولان شيئًا، ويكتفي كل منهما بدسّ رأسه في ريشه. "حسنًا، أخبراني أنكما

بخير". آه أيتها الروح المسكينة! أين ستختبئين من الألم والمصاعب؟ ارتفعت أصوات المطر، سمعت صوتًا: "من يستطيع إنقاذنا؟ من يقدر على منحنا الراحة والسلام في ذلك اليوم الرهيب؟ ستختفي الشمس وسيغيب ضوء القمر. يا للرعب. توبي يا روح عن كل مساوئك وعيوبك وآثامك، عن خطايا جسدك وعقلك".

بينما أواصل القراءة على هذا النحو، تغادر فراشة صغيرة مخبأها في أحد أركان الغرفة، وتقترب مني. تحطّ على كفي. أهمس:

- أيتها الروح الضائعة..

أجد نفسي على ذلك المقعد الخشبي، مرة أخرى. الغرابان يقفان على كتفيّ هذه المرة. أخاطب الفراشة: "أيتها الروح المقيدة.. تحرري.. طيري.. ابتعدي.. بعيدًا.. بعيدًا.. أخرجي من هذا الجسد". استمرّ المطر. تساقطت حباته الكبيرة على وجهي، وبللت قميصي. جاهدتْ الفراشة حتى لا يغرقها الماء المنهمر. صفَّق الغرابان بأجنحتهما، وخبّأ كل منهما رأسه تحت أحد جناحيه. التصقا بي طلبًا للدفء. "إحميني أيتها القوى السماوية. إحميني أيتها الملائكة، أيها الأنبياء والرسل والقدّيسين، وأنتِ أيتها الزهور الجميلة العَطِرة، إبكِ على قلبي الخطّـاء".

قاطعتني "بلوسوم" فجأة:

- جيد. لكنك لم تكتب هذا.

احمرّ وجهي، كوجه "آنا كارنينا" حين أحست بحرج بالغ. ضحكت معلمتي وهي تلاحظ يَدَيَ المرتعشتين. إنها محاولتي الثانية لكتابة قصة قصيرة، وزيارتي الأولى لبيتها.

كانت لا تزال تجلس على ذلك المقعد الصغير المجاور للمكتبة الضخمة، وقد شبكت ساقيها وفردت ظهرها المستقيم. على الرفوف وراءها، توزعت بعض البراويز التي تضمّ صورًا مختلفة، أغلبها لأمها في زيّ "ناتاليا كراسنوفا

نيكوليفينيا جونتشاروفا". صورة واحدة فقط لأبيها الذي أعرفه جيدًا. اعتدت أن أتردد عليه لأركب الدراجات في الساحة الخلفية. بدأت بأصغرها حجمًا، ثم المتوسطة بعد ذلك. صورة واحدة تضم ثلاثتهم. وصورتان لولدين استطعت تمييز أحدهما. كان الفتى الذي مات في حقل الذرة. نفس الصورة التي رأيتها في الجريدة، واقتبست منها قصتي. الولد الثاني أصغر عمرًا. نحيف مثلي، مبتسم. على خده الأيسر علامة مميزة. دققت النظر إليه. خيّل إليّ أنني أعرفه، لكنني لم أستطع تحديد من يكون بالضبط، وفشلت في تذكر اسمه. حين رأتني المعلمة أمعن النظر إليه، تناولت البرواز ووضعته على المجلّد أمامها. لاحظتُ الرجفة التي اعترت جسدها. لكنها سرعان ما عاودت الجلوس بشكل مستقيم، واضعة يديها بين ركبتيها.

قالت:

– عقب تخرجي مباشرة، التحقت بالعمل في المدرسة الثانوية. وكما أحبني معلمي وأنا طالبة في المدرسة، أحبني أيضًا أحد طلّابي. الدنيا مكان صغير، في نهاية الأمر، تتكرر فيه الأحداث والأقدار. استدعيته إلى حجرة المعلمين يومًا، وقصصت عليه حكاية أستاذي والبرق الذي حرقه. أخبرته عن ارتباط الفراشة بالروح. اخترعت هذه النظرية حتى أبعده عني. قلت له بأن الناس الذين يخادعون غيرهم من أجل شهواتهم الجسدية، يتعرضون لبرق يحرقهم ويحولهم إلى فراشات. لفتّ نظره إلى أنه يريد التباهي بأنه استطاع الحصول عليّ فقط. وحذرته من أن هذا ليس حبًا حقيقيًا.

وفيما كان يغادر حجرة المعلمين، لمحته إحدى المدرسات التي عاملتني بكراهية واضحة منذ يومي الأول في الوظيفة. لم أعلم حينها بأنها كانت خطيبة الأستاذ الذي أحبني وأنا طالبة.

استطردت "بلوسوم":

- ولأن لا شيء في هذه الحياة يحدث صدفَة أو اعتباطًا، فقد توفي هذا الطالب، وكان شاعرًا موهوبًا، أكثر موهبًة منك في الحقيقة، بنفس الطريقة. صعقه البرق وهو يقف في حقل ذرة، كما في القصة التي كتبتَها عن "ليلي". وللأسف، لم يصدق أحد أنه مات هكذا. قالوا بأنه سكب "جاز" على جسده، وأشعل في نفسه النار، بسببي. وادّعى بعضهم أنني طلبت منه ذلك كإثبات على حبّه لي، وأنني وقفت أراقبه وأتأكد من تنفيذه للأمر. فعلوا الأسوأ من ذلك، أظهروا خطابًا مجهولًا يفترَض أنني أنا التي كتبته، وقالوا أنني أغوي الطلبة ثم أعمد إلى قتلهم.

أضافت بأسى ودهشة:

- شبّهوني بالأرملة السوداء! قالوا إنني لا أختلف كثيرًا عن تلك العنكبوت القاتلة. هل تصدّق ذلك؟

صمتت للحظة، ثم قالت:

- اخترعوا الكثير من الإشاعات، ورددوا العديد من الأكاذيب والأحداث المختلقة. حين بدأت الأمور تهدأ بعد سنوات طويلة، أي منذ فترة قريبة، أدركت للمرة الأولى بأنني وحيدة. أنا هنا بمفردي، لكنني لم أعد بحاجة لأحد. حياتي لا ينقصها شيء، ولا أرغب في الزواج. لا أريد الإقتران بشخص، ثم أخونه. لأكتفي بخيانة نفسي، إن كان لا بد من هذا الأمر.

قامت من على المقعد، وأعادت الصورة والمجلّد إلى مكانيهما على الرف. اتجهت إلى النافذة. نظرت من خلالها لبعض الوقت، ثم التفتت نحوي مبتسمة، وقالت:

- لتعرف إن كنتَ كاتبًا جيدًا، عليك أولًا أن تكتب عن الحبّ.

هناك ثلاث دراجات هوائية وراء البيت، بأحجام مختلفة، وثلاث دوائر محفورة في العشب، يتوسطها عمود طويل. الدرَّاجة الصغيرة تتحرك في أصغر

الدوائر، والمتوسطة في الدائرة الأكبر قليلًا، والكبيرة في الدائرة الأخيرة متسعة الحواف. يربط بين كل منها والعمود سلسلة معدنية.

عقب وفاة والدها "جاك ميرشنت لونجنيك"، لم يعد هناك من يهتم بإصلاح وصيانة الدراجات التي تآكلت أجزاؤها بسبب الصدأ. لكن هذا لم يمنع بعض الأطفال من التسلل للمكان واللعب فيه، بين الحين والآخر. ورغم الأصوات المزعجة جدًا الصادرة عن الأجهزة الصدأة، فإن "بلوسوم" لم تنهرهم أبدًا أو تطرد أحدًا منهم. وعادةً يغادر الصغار بعد فترة قصيرة.

أصختُ السمع. حمل الهواء إلى أذنيّ صوت خرير الماء المنساب من جسد الولد، في النافورة القريبة. تمنيت أن أفعل مثله في تلك اللحظة.

كانت "بلوسوم" تلبس "روب" فوق ثيابها المنزلية، تتحرك أطرافه مع حركة ساقيها، مشكّلَة خطوطًا عميقة حول فخذيها. جلستْ على المقعد، وشبكت ساقيها واضعًة يديها فوق ركبتيها. انزلق أحد جانبيّ الروب والتصق بساق الكرسي الملساء، حيث تجمعت خيوط الشمس.

قالت:

- سوف أقص عليك حكايتي، واصنع أنت منها قصًة كيفما شئت. لكن عليك أن تتذكر أنه لا يوجد حياة تكفي وحدها لخلق قصة تستحق الكتابة. في الواقع يا صغيري الكاتب الحقيقي لا يحتاج لحكاية حقيقية. هل يحتاج الرجل الجائع لمعرفة تاريخ حياة الخبّاز؟ عليك ألا تكتفي بإعادة سرد الحكايات. عليك أولًا وقبل كل شيء أن تتعلم كيف تفرق بين المهم وغير المهم.

أعادت تسوية الروب وغطت رجليها، وقالت ضاحكة:

- على سبيل المثال، إن كنتَ تنظر إلى عينيّ، لا تشغل نفسك بالتفكير في ساقيّ!

واصلت ضحكها الهادئ، وهي تغمز لي بعينها ممازحة. لاحظت أنها تنظر إلى أذنيّ، فأدركتُ أنهما قد احمرّتا خجلًا. كان الكونت "تولستوي" محقًا حين دأب على وصف أذنيّ "آنا كارنينا" المحمرتين.

ابتسمت "بلوسوم" وقالت:

- تخيل الآن أنني أصغر سنًا بكثير، وأنني عذراء. الفتيات العذراوات أكثر جرأة في الحب. انتبه! أنا أتحدث عن الحب وليس الجنس. أتحدث عن المشاعر، وليس الحركات الجسدية الغريزية التي تجيدها الحيوانات منذ ولادتها. اعتدتُ مراقبته من هذه النافذة حين كان يأتي للّعب على أصغر الدراجات، تابعته وهو يستخدم الدراجة الأكبر فالأكبر. ومثل الباقين، كان يحرّك ساقيه بحماس بالغ، وكأنه مسافر إلى أقصى بقاع الأرض، لا أنه يلف في دوائر ثابتة طوال الوقت. اعتاد أن يبقى لساعات طويلة، حتى حلول الليل. يرفع رأسه وهو على الدراجة، ويتابع القمر بعينيه. وفي انتظار أن ينتهي الفتى، ينام أبي على كرسيه الهزّاز، ممسكًا بدفتر التذاكر في يده. الهدوء الشديد يعمّ المكان، ففي ذلك الوقت لم يكن الصدأ قد عرف طريقه للدراجات. كان أبي دائم المحافظة عليها.

كنت أرى رأسه وهو يطوف بهدوء في دائرته، مرة تلو الأخرى، تحت ضوء القمر.

أفلت جانب من ثوبها، كاشفًا عن فخذها، فأعادت تغطيته وهي تنظر إليّ. واصلتْ حديثها:

- في ليلة هادئة، وبينما كان أبي مستغرقًا في النوم، خرجتُ إلى الساحة الخلفية، وركبت الدراجة المتوسطة. أمسكت بيد الفتى لفترة طويلة، ورحنا نتأمل القمر. لمعت النجوم في السماء الفسيحة. جرّني نحوه من خصري، فوجدنا أنفسنا على الأرض، في المساحة الواقعة بين دائرته ودائرتي. أكملت الدراجات دورتها، ثم توقفت أمامنا. أزحت بأصابعي شعره عن جبينه، فالتمعت عيناه. لفحت أنفاسه رقبتي، وتسللت إلى جسدي بأكمله. استحال ثدياي إلى حبّتيّ خوخ نديتين. كاد العشب أن يتأوه من فرط الإثارة، حين رفع

ثوبي كاشفًا عن فخذيّ. احتضنت رأسه بقوة إلى صدري، ولم أعرف ماذا أفعل، هل أصرخ، أم أتنفس؟ اختلست نظرة إلى أبي. لم أعرف ما إذا كان كرسيه الهزاز يتحرك فعلًا، أم أن خيالات ضوء القمر هي التي صوّرت لي ذلك. رشّت النجوم حليبًا دافئًا على ساقيّ. سالت الجداول البيضاء على جسدي. لمع جلدي بقطع متناهية الصغر من الكريستال الأزرق البرّاق، على بطني وصدري وسَاقَيَّ الشاحبتين.

صمتت وراحت تعبث بيديها وأصابعها. وقفتُ أمام الشباك، ناظرًا إلى الدراجات، محاولًا تخيّل المنظر الذي رسمته "بلوسوم" بكلماتها.

أكملت حديثها:

– استلقينا على الأرض، ورحنا ندفع الدراجات. كانت تكمل دورتها ثم تعود لتتوقف أمامنا. كانت الدوائر تمثّل حياة أبي. إنها الشيء الوحيد الذي أصبح يجيد عمله بعد خروجه من السجن. كان قد حُكِمَ عليه بثلاث سنوات، بسبب كتاب أجنبي. لا، بسبب حبه البالغ لأمي، في الواقع. كان يجلس الآن على كرسيه. يختلج جفناه المغمضان. غادر الصبي فور طلوع الشمس وتساقط أشعتها الوليدة على هيكل الدرَّاجة الكبيرة. في تلك اللحظة سألت نفسي إن كان أبي قد أمضى الليل في مراقبتنا؟ وإن كان حياؤه المعتاد وخجله البالغ قد أجبراه على التزام الصمت؟

حين أعددت الإفطار، ناديته. لكنه لم يجبني. ظننت أنه يمازحني، فدفعته بيدي بخفة. تساقطت أعقاب التذاكر من يده، وسقط خلفها على الأرض. كان قد توفي. مات بنفس طريقة "شارل" زوج "إيما بوفاري"، إن كنتَ تتذكر.

أردفت "بلوسوم":

– دفنّاه في المقبرة القديمة، خلف الحديقة العامة، بجوار الأب "سيلينتيوس"، شقيقه. عندما تتساقط أوراق الشجر في فصل الخريف، يمكن رؤية قبر أبي من هذا الشباك. تركتُ مساحة فارغة على الحجر الرخامي الذي

يعلوه، ليُكتَب فيها اسم أمي. لكنها لم تمت. وإن كنت لا أستطيع الجزم بأنها لا تزال على قيد الحياة.

أضافت:

- عقب وفاة والدي، لم يأتِ فتاي لركوب الدراجة. نمى العشب وغطى كل شي في الحديقة الخلفية. لم أره لفترة طويلة جدًا.

نظرتْ من النافذة بشرود، وواصلت سرد حكايتها:

- ثم قابلته بالصدفة مع بداية العام الدراسي، في السنة التي تلت وفاة أبي. كان قد ترك المدرسة الفنية التي أوشك على التخرّج فيها، وقرر الإلتحاق بالصف الأول الثانوي العامّ. هددني بأن يتحول إلى فراشة بيضاء إن لم أوافق على الزواج منه.

أحسستُ بها خلفي. شعرت بدفء جسدها يمتدّ إليّ. غمرتني كميات هائلة من الإضطراب والإرتباك. شعرت بثدييها وهما يلتصقان بي، قطعتان من الآيس كريم توشكان على الذوبان، الحلمتان اللينتان تنزلقان على ظهري.

فجأة، قبلتني على جبيني.

أدارت تلك القبلة رأسي يا "دورنتينا"، وقلبت كياني تمامًا.

أمسكتْ بطرفيّ الروب جيدًا، وقالت:

- هذه ليست النهاية. لديك عندي قصة أخرى. حكاية ثالثة.

رافقتني إلى الباب وهي تقول:

- غدًا السبت. في السبت الأول من كل شهر أذهب لزيارة الدير. يمكنك أن تأتي معي إن أحببت.

قالت ذلك وأغلقت الباب ورائي، دون أن تهتم بجوابي.

أنتِ محقة يا "دورنتينا" في ابتسامتكِ هذه. لكنني لا أدري إن كنتِ تبتسمين بسبب إحساسكِ بالغيرة، أم بسبب الفضول؟

# 11

لعقت "بلوسوم" عود قش وبلّلته بلعابها، ثم طافت به على صدري الذي بدأ الشعر ينمو عليه، وقالت:

- نحن بمفردنا وعاريين تمامًا، مثل "ناتاشا روستوفا" و"آندريه بولكونسكي".

ابتسمتْ واستلقت على جانبها، فالتصق بي نهداها الصغيران. بين انحناءات جسدها التي ارتفعت أمامي كتلال ذهبية، استطعت رؤية باب مخزن القش والحبوب، وأشعة الشمس المتسللة عبر شقوق الجدران الخشبية. كنا مستلقيين على أكوام القش داخل المخزن، تعلونا الأعشاش التي بناها الحمام الأبيض في أركان السقف. أتينا إلى هنا لمشاهدة لوحة الملاك الجصّية في مبنى الكنيسة القديم، القريب من المخزن؛ أمَّا الكنيسة الجديدة فقد تمّ بناؤها بجوار المبنى الخاص بضيوف الدير.

وصلنا الدير في اليوم السابق، بقطارين مختلفين. استقبلنا على البوابة الأب "أجاثون" الذي وجدتُ صعوبة بالغة في فهم كلامه، إذ تتقاطع كلماته مع أنفاسه الثقيلة وزفراته المتواصلة. تحدث يا "دورنتينا" على النحو التالي، كلمة واحدة - شهيق طويل - صمت - زفير - كلمة أخرى بصوت يقترب من الفحيح؛ لم أفهم منه شيء، لكن "بلوسوم" فهمت كل ما يقول بمنتهى

السهولة. ناولَته كيسًا من الفاكهة، ثم قدّمتني له باعتباري طالب من منطقة "ساراتوف" يرغب في الكتابة عن اللوحة الشهيرة في الكنيسة القديمة. أغمض الأب عينيه وابتسم. أظن أنه عَرِف أنها كذبة. أخبرتني قبلها بأنه يعيش في الدير بمفرده، وأنه يجد صعوبة في التنقل في المكان على كرسيه المتحرك، إذ كثيرًا ما غاصت العجلتان الأماميتان في الجزء المغطى بالعشب من الساحة الكبيرة.

حين يتنفس، تصدر عنه أصوات مكتومة، كأسطوانة موسيقية مشروخة.

أتأمل عود القش في يد "بلوسوم"، ثم أسمع صوته لدى الباب. إنه يستعد للدخول. لا زلنا عاريين، نفترش ملابسنا. قلت لنفسي بأنه إن اقتحم المخزن، فسوف نضطر إلى الهروب خارج الدير بمنظرنا هذا، لكن معلمتي لم يبدُ عليها الإنزعاج بتاتًا. استلقت على ظهرها دون أن تهتم بإزالة القش العالق بين ركبتيها. مدّت الشمس حزمتين من أشعتها عبر شقوق الباب. تسلّطت إحداهما على الحلمة الكبيرة لـ"بلوسوم" فأضاءتها، واستقرّت الأخرى داخل سُرّتها فلمع بطنها كصحن من الكريستال، عاكسًا رقائق ضوئية ملونة تساقطت على ردفيها وفخذيها.

أحسستُ بالحرارة تندلع في ظهري، وكأن أحدًا أشعل القش تحتي. حاولت أن أتفادى أشعة الشمس، فاقتربت من "بلوسوم" واحتضنت جسدها، وغصت في ورودها وأزهارها، كانوا نفس أزهاركِ يا "دورنتينا"، غرقت، أصبحتُ فجأة قطرة تنحدر من حافة طبقٍ كريستالي، كنت أغرق يا "دورنتينا"، بينما تقوم هي بوضع القش في فمها ثم تخرجه وتضعه على خديها. صوتها انقسم إلى صوتين، وملأ المكان حولنا؛ أعشاش الحمام، الحائط، وشقوق الباب. امتزج صوتها العميق مع صفير أنفاس الأب "أجاثون" في الخارج، وهديل الحمام الذي يأكل من كفيه.

رفرف الحمام فوق الكنيسة، مشكّلًا سحبًا بيضاء متطايرة، بينما عادت أشعة الشمس الذهبية مجددًا؛ هربت خيوطها الذهبية عبر شقوق الباب إلينا، وانعكس على الحائط وكأن شيئًا لم يكن، وكأننا لم نكن هناك. أما نحن يا "دورنتينا"، فكنا لا نزال مستلقيين على القش، وقد ارتفع نهدا "بلوسوم" بشكل مستقيم، وظلا يرتفعا، ولكنهما توقفا فجأة وهبطا مع خروج الهواء منهما، قالت:

- الحب؟ ما هو الحب؟

أضافت وهي تبتسم ابتسامة عريضة:

- الحب كاذبٌ ممتاز، أمَّا الكراهية فلا تجيد الكذب. حين تحب شخصًا، تصدق كل ما يقول؛ أمَّا حين تكره أحدًا فإنك لا تصدق شيئًا تسمعه منه.

أردفت:

- أنصت إليّ جيدًا، فهذا موعد حكايتي الثالثة التي وعدتك بها. في هذه القصة نرى الأمير "بولكونسكي" مصابًا بجروح. يقترب منه ثلاثة فرسان، هم "نابليون" واثنان من مساعديه. قال القائد الفرنسي وهو يقترب منه: "إنها الطريقة المثلى للموت". ورغم أن الأمير لم يكن في كامل وعيه بسبب آلامه الفظيعة، إلا أنه فهم أن الكلام موجه له، وأن المتحدث ليس سوى "نابليون" شخصيًا. لا يتذكر شيئًا من الأحداث التي تلت هذا الموقف، إذ فقد وعيه تمامًا من شدة الألم الذي كان يشعر به. لا يتذكر أنهم حملوه على نقَّالة، وارتحلوا به مسافة كبيرة، وغيَّروا له الضمادات بانتظام. لا يتذكر شيئًا عنها هي أيضًا، لا شكلها ولا منظرها، ولا أنها انتظرت عامًا كاملًا على أمل أن يحتضنها بين ذراعيه، وتسمع صوته الذي يملأ قلبها بهجة. كان قد فقد ذاكرته.

سكتت "بلوسوم" وراحت تعبث بالقش، ثم قامت وارتدت ثيابها. فعلتُ مثلها، ولكن ببطء شديد وصمت تام.

صمتٌ تام يا "دورنتينا"، لأنني كنت أسمع صوت أنفاس الأب "أجاثون"، التي بدت لي متعبة ومعذبة. سمعتُ أيضًا صوت حبَّات الذرة وهو ينثرها على الأرض. ضرب بعضها الباب الخشبي. لكن الحمام لم يستجب لهذا الإغراء، وواصل طيرانه في السماء صافية الزرقة. لم تبالِ معلمتي بكل تلك الأصوات، وراحت تلعق وجهي ورقبتي بلسانها الرطب، لتزيل عنهما أعواد القش الملتصقة بهما.

كدت أن أموت من فرط الجمال!

أخيرًا، استكملت سردها للحكاية:

- أحس الأمير "آندريه" بأنه موشك على الموت. حبه لـ"ناتاشا" جعله يشعر أخيرًا بقيمة الحياة.

لكنها توقفت بعد هذه الجملة، أخذت تزرّر قميصي وتقبّلني بشرود، ورغم نظراتها الهائمة بعيدًا، إلا أنني شعرت بأن شيئًا ما فيها يجذبني إليها بقوة، وأنها تمتصني وتبتلعني وتلتهم روحي. أحسست بقدر ضئيل من الخوف يعتمل بداخلي، وذكّرت نفسي بأن باستطاعتها تحويلي إلى فراشة، مثلما فعلتْ مع أستاذها، ومع تلميذها. ربما كنت أنا حكايتها الثالثة، فراشتها الثالثة التي ستدقّ زجاج نافذتها بجناحيها لتخبرها بأنها تحبها. حاولتُ أن أبتعد بجسدي عنها قليلًا، لكن خطوتي أصدرت صوتًا مرتفعًا عندما وطأت القش. أحسست بأنفاس الراهب وهي تعلو.

واصلت "بلوسوم" حكايتها المتقطعة، بصوت مبحوح بعض الشيء:

– رغم أنه لم يكن بإمكانه رؤيتها، إلا أنه أحسّ بوجودها بجانبه منذ اليوم الأول لتمريضها له. مرّت أيامه الأخيرة بسلاسة، وبخطوات متوقعة؛ قام بالإعتراف وتلقى المناولة الأخيرة، وزاره الكثيرون لتوديعه. بعد أن غادرت الروح الجسد، دنت منه "ناتاشا"، وتأمّلت عينيه الثابتتين ثم أغمضتهما، لم تقبلهما، لكنها تساءلت وسط دموعها: "أين هو؟ أين ذهب؟".

أغمضت "بلوسوم" عينيّ، وطافت على جفنيهما بلسانها. حين فتحتهما أخيرًا، وجدتها في الجانب الآخر من المخزن، قريبًا من بابه الصغير. في محاولتي للحاق بها، كسرتُ برجلي عددًا من بيض الحمام. في تلك اللحظة، فُتِح الباب الرئيسي للمخزن بغتة واندفعت منه أعدادٌ ضخمة من الطيور وهي تحرّك أجنحتها بقوة. خلف طبقات اللون الأبيض التي امتلأ بها المكان، تبينت الأب "أجاثون" على كرسيه وهو يلوّح بذراعيه في الهواء، داعيًا الحمام للدخول.

بعد قليل، ومن الكنيسة القديمة، استطعنا رؤية صقرين يحومان حول الدير. كما رأينا الأب "أجاثون" منهمكًا في محاولاته الحثيثة لإغلاق الباب الكبير وراء الطيور.

عندما نزلنا إلى الساحة السفلية، وجدنا الراهب يمسك بمقصّ الزراعة الكبير، ويحرّكه بين يديه بعصبية بالغة تساقطت معها رؤوس أزهار التيوليب أرضًا، الواحدة تلو الأخرى.

حين اقترب منا، كنا مشغولين بتأمل اللوحات الجصية المجاورة للمدخل القديم. التفتت "بلوسوم" نحوه وابتسمت ولوّحت له بيدها محيية. أزلتُ بسرعة قطعة قش من شعرها. رسم علامة الصليب على صدره بسرعة

وبطريقة عشوائية. هل انتبهتِ لما قلت يا "دورنتينا"؟ بطريقة عشوائية! ثم أخذ نفسًا عميقًا وملأ رئتيه بالهواء، قبل أن يسألني إن كنت قد أحببت اللوحة. وقبل أن أجيبه، دعانا للذهاب معه إلى الداخل لتناول الإفطار.

في تلك اللحظة فقط، لاحظت أنه يستخدم في كلامه أكثر من لغة سلافية. وتتخلل حديثه مفردات قديمة، هجرها الناس منذ زمن. في الحوار الذي دار بينه و"بلوسوم"، والذي فهمت فحواه من ردودها، كان يسأل عني. امتدحتني وأثنت عليّ وأحاطتني بذراعها. أطلق ضحكة غريبة، مصحوبة بصفير انطلق من أنفه. قدّم لنا بيضًا مسلوقًا وقطعًا من جبن الماعز. ظل يراقبني طوال الوقت، ناظرًا إلى عينيّ وفمي، وهو يضرب الأرض بعصاه بشكل منتظم دون أن يأكل شيئًا. بعد أن انتهينا من تناول الطعام، كسر ثلاث بيضات من بيض الحمام في فنجان بلا مقبض، وأضاف لها بعض العسل وبضع قطرات من عصير الليمون. خلطها جيدًا، ثم صبّ عليها القليل من حليب الماعز. رسم الصليب حول نفسه بحركات دائرية غير مألوفة، ثم شرب المزيج على ثلاث دفعات. أسند ظهره على مقعده، ورفع رأسه متابعًا بعينيه الصقر المحلّق فوق الكنيسة. وفجأة، تحدّث بصوت طبيعي تمامًا:

- لولا تلك الحمامات وبيضها المليء بالمعجزات، لنسيتُ الكلام.

راقبنا جميعًا الغيمة الوحيدة التي تعلو البرج، والمطر المفاجىء القصير الذي ضربت قطراته زجاج النافذة، والشمس التي أرسلت أشعتها الساطعة في كل مكان. في تلك الدقائق، كان الجوّ كمن يضحك ويبكي في نفس الوقت.

استطرد الراهب:

- بمرور الوقت تقل المرَّات التي أفكر فيها مع نفسي. استسلم جلدي لمحاولة احتوائي داخله. يومًا ما، سيدخل هذا الدير وكل ما حوله في، ولكننا مع هذا لن نلتقي ثانيًة.

رغم أن شعره كان أبيض اللون بالكامل، إلا أنه لم يكن متقدمًا في العمر. لعلّه في سن "بلوسوم" أو أكبر ببضع سنوات فقط. لا يمكن أن تخمّن شيئًا عنه، بسبب لحيته وعينيه الشاردتين وفمه الذي لا يعرف الإبتسام.

أوقف عجلات كرسيه عدّة مرات، خلال سيرنا، ليتفحصني بنظراته. خيّل إليّ أنه يحاول أن يتذكر أين رآني من قبل، أو أن يستفسر مني عن أمر ما، لكنه لم يفعل شيئًا من ذلك. في نهاية الأمر، سألني عن لوحة الملاك، لكن قبل أن أجيبه، تدخلت "بلوسوم" وقالت بأننا سنعود ثانية لأستكمل بحثي. أطرق الأب "أجاثون" رأسه في صمت. بدا راغبًا في مصارحتنا بأنه لا يعتقد أننا سنأتي هنا مرة أخرى.

قبيل وصولنا لبوّابة الدير، انحنت "بلوسوم" وقبّلت يده. فعلت مثلها دون تفكير. لاحظتُ ارتعاش يده وهو يربّت على رأسي. قال:

- أنا...

سكت لفترة، ثم استجمع قواه وأكمل:

- أنا متعبٌ جدًا.

بعد أنفاس متوالية، أضاف بصوت مائل للهمس وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- أشعر بإرهاق بالغ، باشمئزاز من الحياة، برغبة قوية في أن تنتهي.

أخرج مفتاحًا صغيرًا معلّق برقبته، وقال:

- هذا مفتاح غرفتي في الطابق الثاني. أنتما الوحيدان اللذان ستستطيعان دخولها عقب انتقالي للجانب الآخر من الحياة.

أمسك يد "بلوسوم" بين يديه. تساقط مطر خفيف، مبللًا أوراق أشجار البندق القريبة. قال الراهب:

- والآن وقد وصلت إلى هذه المرحلة، فإن رغبتي في الموت تتزايد يومًا بعد يوم، بنفس الطريقة التي يرغب بها الإنسان في نومٍ مريح عقب يوم طويل مليء بالأحداث.

ختم حديثه بكلمة واحدة:

- شكرًا.

أفلت يد "بلوسوم" من بين أصابعه.

خلال رحلة القطار، أمطرت السماء لنحو نصف ساعة. مرّ القطار بأراضٍ مليئة بزهور الخشخاش الحمراء، نبت بعضها في فتحات القضبان. داستها عجلاته دون رحمة. تفتتت وطارت في الهواء، ثم التصقت بالنوافذ. أسندت "بلوسوم" كوعيها على الطاولة الصغيرة التي تتوسط مقعدينا. نظرت أمامها دون أن تغمض عينها ولو مرة، ودون أن تصدر عنها أي حركة . بدت غائبة تمامًا. عندما نطقت أخيرًا، قالت:

- بقي الثلث الأخير من القصة لأحكيه لك. بقيت "ناتاشا" وحيدة، ولم تجرؤ على مواجهة الحياة. أستطيع رؤيتها جالسة على أريكتها، تنظر إلى الباب المواجه لها، إلى الإتجاه الذي غادر منه إلى الجانب الآخر. المكان الذي كانت تظنه بعيدًا في الماضي.

أضافت "بلوسوم" بذهن شارد:

- لكنها تعرف مكانه على الأقل.

أنا أيضًا سأغادر عمّا قريب يا "دورنتينا". أنتِ تعرفين ذلك بالطبع، لأنكِ بدأتِ بمراقبتي قبل حتى أن أنتبه لوجودك. أنا أعرف المكان الذي سأغادر إليه. أراكِ تبتسمين بالجانب الأيسر من شفتيكِ، رغم علمكِ بأني محق. على أي حال، لن ينتظرني أحد على الأريكة ناظرًا إلى الباب الذي انتقلت عبره إلى وجهتي النهائية.

صفر القطار عندما مرّ بتقاطع. انعكس وجه "بلوسوم" على النافذة. قالت بنفس النظرات الشاردة، وبصوتٍ هامس:

- رأت "ناتاشا" وجهه، وسمعت صوته. ظلت تستعيد أحاديثه، وتضيف لها كلمات رائعة لم تسنح له الفرصة لقولها، أو نسي أن يتفوه بها. تشعر بأصابعه وهي تمسك بيدها، كما حدث قبل أربعة أيام من وفاته. يغمرها الأسى، فتنساب دموعها وهي تسأل نفسها: "من الذي يتحدّث إليّ؟ أين هو الآن؟". وحين تعجز عن العثور على جواب، تواصل التحديق في الباب بعينين متعبتين.

تنهدّت "بلوسوم" بعمق، ثم نظرت إليّ في دهشة وكأنها تتساءل عن سرّ وجودي على المقعد المقابل لها في القطار، الذي لم يبقَ أمامه وقت طويل حتى يدخل المحطة القريبة من النهر. أنتِ تعرفين المحطة التي أعني يا "دورنتينا". أنظري إلى الأسفل. لا يزال موقعها موجودًا، لكن المحطة نفسها قد تهدّمت.

كنا قد اتفقنا على ألا نغادر القطار سويًا. سأهبط أنا من العربة الأولى، وستنزل هي من الأخيرة. كان لا يزال أمامنا بعض الوقت قبل أن أبدأ بالتحرّك.

هل تبتسمين بسبب ما أقصّه عليكِ، أم لأنكِ تعرفين عني أمورًا أجهل أنكِ على دراية بها؟ هل تبتسمين لأنك تعرفين أشياء تتعلق بمصير روايتي الوحيدة التي أصدرتها عقب عودتي من "آيوا"؟ لعلك تبتسمين لأنك تعرفين جيدًا كيف سينتهي هذا الموقف، لأنه فقط الناس الذين يعرفون النهاية هم من يبتسمون على الأشياء التي يحكيها الناس الذين لا يعرفون النهاية. على أي حال اسمحي لي أن أعود إلى داخل القطار مرة أخرى.

سكتت "بلوسوم" لفترة من الوقت، ثم التفتت نحوي وقالت حين لاح النهر:

- نهاية الحكاية الثالثة مرتبطة بالخوف.

أضافت:

- في بعض الأحيان، تملَّكَ الخوفُ من "ناتاشا". لا رهبَة من الموت، وإنما من أن تفقد جمالها. وجدت نفسها تمعن النظر في ذراعها العاري، بحثًا عن التغييرات التي طرأت عليه مع مرور الزمن، وتراقب مطولًا وجهها في المرآة كل صباح، ثم تجهش بالبكاء.

مسحتْ على خدّي بظهر كفها. مرّ المحصّل بعربتنا، ثم خرج منها بخطوات متثاقلة. ربما كان ثملًا، أو ربما كان القطار مسرعًا على القضبان الحديدية.

قالت "بلوسوم" وهي تضغط بلطف على يدي:

- تنتهي الحكاية في المرآة. لكنك لا تستطيع رؤية الروح في مرآة.

أومأت برأسها تجاه الشباك، فانتبهت إلى أننا نوشك على دخول البلدة. قمت واقفًا، وغطيت النافذة بالستارة القصيرة، حتى لا يرانا أيّ من الواقفين على

رصيف المحطة. انحنيت تجاهها، وطبعت على شفتيها قبلة سريعة وخفيفة خفة الفراشة. قبل أن أخرج من العربة، غادرتْ مقعدها وقبضت على ذراعي، وقالت بصوت متهدج:

- أنا أحبك جدًا.

كررتْ:

- جدًا جدًا.

غطت فمها بيدها الأخرى.

ظننت لوهلة بأنني قد انتقلت إلى الجانب الآخر من الحياة، لكن صوتها الناعم أعادني إلى الواقع مرة أخرى:

- الحرية تكمن في المضمون، أما القدَر فهو إطار خارجي.

قالت ذلك ثم قبّلتني. دسّتْ مفتاح الدير في جيب معطفي.

كنت مشوشًا يا "دورنتينا". مشوشًا ومضطربًا. وضعت يدي داخل جيبي، وركضت باتجاه العربة الأولى، راجيًا ألا يلمحني أحد. ركضتُ طويلًا يا نور عيني لأنني كنتُ في العربة الأخيرة. أودّ لو أستطيع ترك بندقيتي لثوان معدودات، لأخرج لك المفتاح من جيب قميصي، لأريكِ أنه لا يزال معي. لا زال مِلكي يا عزيزتي.

ليتكِ تعلمين من هو الأب "أجاثون"!

لن تصدّقي ذلك يا "دورنتينا"!

# 12

أشارت "بلوسوم" بإصبعها، وهي تنظر عبر النافذة المفتوحة إلى الأب "أجاثون"، وقالت بصوت هامس:

– انظر! هل رأيت؟ إنه راهب ومع ذلك يجهل كيف يرسم إشارة الصليب على نفسه.

كانت تتحدّث وهي تطوف بإصبعها على جسدي، وتحاول مغالبة رعشة جسدها. كنا في يوم سبت، مرة أخرى. عدنا للدير بحجة مشاهدة لوحة الملاك للمرة الثانية. مضى الوقت ونحن لا نزال داخل حجرة النوم الخاصة بضيوف المكان. طارت حمامة بيضاء من النافذة وحطّت على السرير. راحت تراقبنا بعينين فضوليتين. بدت "بلوسوم" مغيّبة في عالمها الخاص وأفكارها ورغباتها المشتعلة وحركاتها المحمومة، فلم تلحظ الطائر في بادئ الأمر. حين أدركت الحمامة ما تفعله "بلوسوم" احمرّت، وصارت أشبه بزهرة خشخاش من فرط احمرارها.

شعرت بأن الموقف بأكمله عجيب يا "دورنتينا". لكن لم تكن هذه المرة الأولى التي تحدث فيها أشياء غير مألوفة خلال وجودي معها، فعلى سبيل المثال حين أكون في منزلها تبدأ الدراجات في الساحة الخلفية في التحرّك والدوران، دون تدخل من أحد. حينها، تبتسم بسعادة وتقول بأن ذلك لا يحدث إلا حين

تستبد بها الرغبة، أو كما تعبّر عن الأمر: "حين تشتعل شموع جسدي". في تلك الأوقات تهمس لي بكلمات لها رائحة المعجزات. كلمات لا ينطقها الناس عادةً.

كنا إذن لا نزال في حجرة النوم التابعة للدير يا "دورنتينا". الغرفة المطلّة على الساحة، لأكون أكثر دقة. الحمامة التي كانت تقف على ظهر السرير الخشبي، بدأت تترنّح، ثم اهتز جناحاها وسقطت على الفراش. ظهرت دوائر حمراء على الملاءة، وبدأ حجمها يكبر وتقترب منّا. جررت "بلوسوم" نحوي. التصق صدرها بصدري. عبر النافذة، رأيت حمامات بيضاء تتساقط ميتةً من السماء. أردت أن ألفت نظرها لما يحدث، ولكن قبل أن أفتح فمي، أدارت رأسها إلى حيث أنظر وشاهدت المنظر بنفسها.

قالت بصوت أجش:

- في بعض الأحيان، شيء ما يقتل حماماته وهي تطير. خلال طيرانها، تتوقف فجأة في عرض السماء، ويحمرّ ريشها، ثم تسقط على الأرض. خلال العام الماضي، امتلأت أرض الدير بحمام أحمر ميت. من يدري ما السبب؟ لعله مرض، أو لعل ذلك يحدث بسبب خطيئة ما.

أضافت بعد برهة:

- ألا تجد جهله برسم علامة الصليب غريبًا؟

استرقنا النظر إلى الأب "أجاثون"، الذي أحاطت به أعداد عظيمة من الأجنحة البيضاء في وسط الساحة. انعكست أشعة الشمس على مناقير الطيور.

جلست معلمتي على حافة الفراش، حيث توقفت الدائرة الحمراء عن الإتساع، وبدأت في ارتداء ملابسها. قالت:

- الأب "سيلينتيوس"، شقيق والدي، كان رئيس هذا الدير. تُوفي قبل ثلاثة أعوام، تاركًا الأب "أجاثون" بمفرده هنا. حافظتُ على زيارتي الشهرية للمكان. لا أظن أن أحدًا غيري دخل هنا عقب وفاة عمي. يعيش "أجاثون" كناسك، بل إنه قام بنحت صومعة لنفسه في الجزء الحجري من الكنيسة القديمة. يقضي أغلب وقته هناك، حين تسمح ظروفه الصحية بذلك؛ أي حين لا يجعله الربو والروماتيزم حبيس كرسيه المتحرك؛ أما عندما يشتدّ عليه المرض، فيطوف الساحة بكرسيه، يصلي على مسبحته، ويكلّم طيوره.

ارتدت البلوزة، وحبست صدرها تحت الأزرار التي أقفلتها بإحكام، ثم أسرّت لي بأمر سأخبرك به الآن يا "دورنتينا". هذه هي المرة الأولى التي أكشف فيها هذا السر. الرجل الذي يجلس بوداعة محاطًا بالحمام، ليس راهبًا، بل ولا ينتمي لرجال الدين من الأساس. حين كان في أول شبابه، تعرّض لمأساة رفض الإفصاح عنها. حين لجأ إلى الأب "سيلينتيوس" رحّب به وسمح له بالإقامة في الدير. وبمنتهى الامتنان، ساعده في إدارة المكان، وتولى أعمال التنظيف، ثم قاما معًا ببناء المخزن في الساحة العلوية، وقررا سويًا أن يقوما بتربية الحمام.

في أحد الأيام، وكان عدد الطيور قد تضاعف وأصبح كبيرًا، قال للرجل المُسِن بأنه لم يعد قادرًا على البقاء، وأنه ينوي الرحيل إلى مكان بعيد لينسى الماضي، رغم تيقنه من أن ذكرياته لن تفارقه أبدًا. أخبرها الأب "سيلينتيوس" بأن آلام الماضي كانت تظهر على وجه الشاب بوضوح. ربطت علاقة خاصة بينه والحمام، بكلمة واحدة منه تطير أو تعود أو تتناول الحبوب. باختصار، تطيع

كل ما يأمرها به. في اليوم الذي غادر فيه، وقف فاردًا ذراعيه في الساحة، وقد غطَّاه الحمام. بدا كصليبٍ حيّ.

افترق الرجلان على محبّة خالصة، كما لو كانا شقيقين. أهداه الأب "سيلينتيوس" أيقونةً تمثل الملاك المرسوم في الكنيسة القديمة، ومنحه مبلغًا من المال، ثم اصطحبه إلى محطة القطار. بعد بضعة أشهر، أرسل بطاقة كتب على ظهرها بأنه وصل وجهته النهائية، رغم أنه لم يذكر اسم المكان. لكن الرجل العجوز عرف من الطابع البريدي أنه مكان بعيد، وخمّن بأنه لن يعود قبل وقت طويل، لأنك لا تسافر إلى جهة بعيدة كهذه، لتبقى فيها فترة قصيرة.

أخبرتني "بلسوم":

– لم يكن يتحدث عنه إلا حين يطعم الحمام، ولكن مع مرور الوقت لم يعد يأتي على ذكره ونسيه شيئًا فشيئًا. وحتى الطيور لم تعد تفتقده، وتكاثرت بأنفسها دون الحاجة إلى رعايته. في أحد الشتاءات القارسة التي تكاثفت فيها الريح والعواصف والأمطار والثلوج في أجواء بالغة القسوة، ماتت كل طيور الدير، ولم يبقَ منها إلا حمامتين اثنتين اختبأتا تحت أكوام كثيفة من القش. حين توجّه عمّي إلى المخزن بعد فترة، اكتشف وجودهما. في فصل الربيع، خرجت ثمان حمامات من ثماني بيضات، كلها في لون الثلج الناصع. بعد ذلك، صار كل حمام الدير أبيض اللون.

في أحد الأيام، بعد أعوام كثيرة يا "دورنتينا"، بينما كان رئيس الدير يعمل خلف الكنيسة، ظهر في الساحة رجلٌ ملتحٍ. طاف طويلًا حول شجرة الكرز، متأملًا الحمام وهو يطير في السماء.

بعد أن عرّف بنفسه وفسّر كيفية معرفته بمكان الدير، أدرك الأب "سيلينتيوس" أن هذا الرجل هو نفسه الفتى الذي لجأ إليه منذ ثمانية عشر عامًا. إنه الشاب الذي اعتاد الوقوف مطولًا أمام الأيقونات، باكيًا بحرقة. صار له الآن مظهر رث ومتعَب. ولسبب ما، بدا مسنًّا ومريضًا. يتحرك بصعوبة، ويبذل جهدًا واضحًا ليتكلم. تابع الحمام بعينيه الحمراوين، الذاهلتين، ثم لثم يد الأب "سيلينتيوس" وتوسَّل إليه هامسًا أن يسمح له بالبقاء في الدير، لأنه ليس لديه مكان آخر يقيم فيه. قال له:

– أريد التوبة. أريد أن أنسى كل ما يتعلق بالحياة؛ فالحياة مجرد فكرة تنتهي بنسيانك لها.

صلّى الراهب العجوز من أجله ومن أجل روحه المعذبة، ثم منحه أحد أثوابه. منحه أيضًا اسمًا جديدًا هو "أجاثون"، الأب "أجاثون"، رغم أنه لم يرسَّم كراهب.

قالت "بلوسوم" وهي تراقب الراهب وهو يجمع الطيور الميتة:

– حين كنت آتي لزيارة عمي، يحييني الأب "أجاثون" ويسارع بالمغادرة إلى الكنيسة القديمة أو إلى المخزن. في تلك الفترة، كان لا يزال يحفر صومعته في الصخر. كان يعمل منذ الفجر وحتى موعد الصلوات المسائية. في بعض الأحيان، كان يحاول أن يتحدث معي، لكن أزمة الربو تتغلب عليه، فيعجز عن الكلام. في أحد الأيام، أعدّ له عمي مزيجًا من بيض الحمام والعسل والليمون، وبعد أن شربه تحسنت حالته قليلًا، وبدأ يتنفس بشكل أفضل. لكنه – مع ذلك – التزم الصمت.

اقتربتُ منها، ورفعت شعرها، ثم طبعت قبلة على رقبتها وسألتها:

- ماذا سيفعل بهذه الطيور النافقة؟

حاولتْ غلق النافذة بيدٍ مرتعشة، ولما فشلت تركتها وأسندت ظهرها إلى صدري.

جلس الأب "أجاثون" على كرسيه المتحرك وقد امتلأ حِجره بحمامات ميتة، ثم اتجه نحو الكنيسة تتبعه بعض الطيور، وهي تتقافز على العشب وراءه.

أجابت "بلوسوم" وهي تفتح الباب وتبدأ في هبوط الدرج:

- إنه يدفنها في مقبرة الدير، كما لو كانت رهبانًا!

سرتُ خلفها على السلّم الخشبي الذي انبعث صرير قوي من دَرَجاته، كأنما يوشك على أن يتحطّم تحت أقدامنا.

حين رأيناه، كان يتحرك بكرسيه وسط القبور. بدا كطائر أسود ضخم وسط الحمام الأبيض.

قالت "بلوسوم":

- أغلب الظن أنه يودّ إخبارنا شيئًا، لكن يبدو أن أمرًا ما يمنعه.

أضافت بعد قليل، وهي تتفادى النظر إليّ:

- على أي حال، إنه يثق بك.

صعدنا السُلَّم الحجري المؤدي إلى المبنى القديم. قلت لنفسي بأنني سأرى لوحة الملاك أخيرًا هذه المرة.

سمعتُ احتكاك فخذيها وركبتيها تحت تنورتها الوردية الضيّقة. هبّت نسائم متوالية، ضربت أذني. كان الإحساس مزعجًا ولطيفًا في نفس الوقت. فتحت فمي لأقلل من تأثير الهواء على أذنيّ، ولحسن الحظ لم تلحظ "بلوسوم" ما أفعل إذ كانت تضيّق عينيها وتغمضهما باستمرار، بسبب الشمس القوية التي اعتلت رؤوس الأشجار، مرسلَة أشعتها نحونا.

التفتت إليّ ثم قالت:

- الأب "أجاثون" رجل دنيوي، يختبىء في الدير مدّعيًا أنه راهب. هناك سببٌ وجيه لذلك بالطبع، لكن لا أحد يعلم أنه هنا؛ فرغم شكوك البعض في أنه قد لجأ إلى أحد الأديرة، ورغم بحثهم الدؤوب عنه، إلا أن أحدًا لم يخطر على باله أن يكون أحد الرهبان.

اتجهنا نحو باب الكنيسة الذي كان مغلقًا بقطعة خشبية. قامت بإزالتها، فأصدر الباب صريرًا طويلًا، ثم انفتح أمامنا.

في المدخل ذي السقف المنخفض الذي لا يتجاوز المتر ونصف بأي حال من الأحوال، اضطررنا للإنحناء قليلًا. ما إن تقدمنا لبضع خطوات، حتى عقدت الدهشة والمفاجأة لساني، فالجانب الداخلي للكنيسة جزءٌ من كهف حجري تمّت تغطيته بالجصّ وطلاؤه باللوحات الدينية. في السقف، وقف الملاك فاردًا جناحيه الكبيرين، كأنما يغطينا بهما، مانحًا إيانا إحساسًا بالأمان. تأملته جيدًا. شعرت بأنه يراقبني. تمّ رسمه بدقة بالغة، حتى خيّل إليّ أنه حقيقي وأنه قد ينطلق عائدًا إلى السماء في أي لحظة. ربما كنا في الجنة، دون أن نلاحظ.

حيث ينتهي جناحاه، هناك فتحتان دائريتان تدخل منهما حِزمٌ ضوئية متقاطعة. تابعت النور المنسكب إلى الداخل، بافتتان، ثم انتبهت على صوت "بلوسوم" وهي تقول:

- في العام الذي مات فيه الأب "سيلينتيوس"، وتحديدًا في اليوم الأربعين من وفاته، جئنا إلى هذه النقطة معًا، أنا والأب "أجاثون"، الذي كان يسير على قدميه في ذلك الوقت، ولم يكن قد بدأ في استخدام المقعد المتحرك بعد. هنا، في هذا المكان بالضبط، أفضى إليّ بسرّه. كان يبكي. قال بأنه ترك الدير هربًا من ذكرياته، ثم اضطر للإلتحاق بجيش الدولة التي سافر إليها واشترك في حربٍ لا يستطيع نسيان تفاصيلها.

أضافت:

- أخبرني بأنه تزوج أرملَة ذلك الشتاء، ثم ذهبوا إلى منزله واصطحبوه معهم قائلين بأنه، وغيره، يجب أن يحلّوا محل من ماتوا. قاتل دفاعًا عن البيت الذي وُلِد فيه أبيه، كما أخبرني، ثم استمر في القتال دفاعًا عن بيوت أشخاص لا يعرفهم. لكنه فشل في حماية زوجته. قتِلَت داخل منزلها، بصحبة طفلتها ذات الستة أعوام. تعرضت الأيقونة التي أهداها له الأب "سيلينتيوس" للحرق، ولم يبقَ منها سوى عين الملاك اليسرى. في تلك الفترة، عُيّن قائدًا على جميع مناطق "سيرمينتزا". لم يقتل أحدًا بسلاحه، بشكل مباشر، لكن رجاله عمدوا إلى هدم المساجد، وتشريد أعداد ضخمة من الناس، ونفيهم خارج البلاد. بالإضافة لذلك، قام جنوده بأسر عددٍ من الأفراد الداعين للسلام، وربطهم على أعمدة التليفونات، لإذلالهم. ورغم جهله بأغلب تصرفاتهم وحماقاتهم، إلا أنه كان متيقنًا من أن الناس سيحمّلونه المسؤولية، ولن ينسوه ولن يغفروا له. لكن ما

حدث هو العكس، فالناس ينسون بسرعة، إذا رغبت السُلطات في ذلك. في بادىء الأمر، تضامن معه العديدون وأثنوا عليه؛ لكن نفس الأشخاص أعلنوا تبرؤهم منه واشمئزازهم من أفعاله، حين صدرت الأوامر بذلك.

ذاكرة الشعوب قصيرة.

في سبيل تحقيق النجاح، والنجاح يأتي سريعًا عقب انتهاء أي حرب، يفعل الناس أي شيء. في هذه الحالة، اجتمعوا على خيانته لإثبات ولاءهم. أخبرني بأن الناس تفضِّل تصديق الحكايات والمواقف التي يردّدها الآخرون، على ما استقرّ في ذاكرتهم من أحداث حقيقية.

وهكذا وجد نفسه مطاردًا. كانوا يبحثون عنه، رغم أن العثور عليه لم يكن ضمن أولوياتهم، فقد كان هناك بضعة أشخاص يسبقونه في الترتيب على قائمة المطلوبين.

في إحدى ليالي هروبه، عثر بالصدفة على قبر زوجته. ورغم أنه لم يكن متأكدًا من أنهم دفنوا صغيرتها معها، إلا أنه قام بإشعال شمعتين بدلًا من واحدةعلى القبر، وثبّت القطعة المتبقية من الأيقونة على الصليب الذي يعلوه.

بعدها، وجد نفسه بمظهره الرث ولحيته الكثة وشعره الذي غطَّاه الشيب، يهبط من القطار، في المحطة القريبة من الدير.

استطردت "بلوسوم":

- حين صارحني بحكايته، كان قد مر على مطاردة السلطات له نحو ست سنوات. لم يخطر خلالها على بال أي من المسؤولين أنه أصبح راهبًا يقيم داخل دير.

لسبب ما، بينما كانت "بلوسوم" تقصّ عليّ الأمر ونحن نقف تحت جناحيّ ملاك الكنيسة، خيّل إليّ أنه بطل الحكاية، وليس الأب "أجاثون".

عندما انتهت من من كلامها يا "دورنتينا"، ظهرت فراشة بيضاء من حيث لا أدري، كالمعجزة، ووقفت على يدها اليمنى. وضعتها داخل كفها المفتوح، ثم خلعت فردتيّ حذائها وراحت ترقص بحركات دائرية، وهي تغني بصوت هامس:

- إن كنتَ تحبني، إن كنتَ تعشقني، اخلع حذاءك وألبسني إياه، وخذني معك نسير في الحقول ونقطف الكمثرى.

نزلت دمعة من عينها وهي تستكمل الأغنية:

- آه يا كمثرى، يا روح البنت الحلوة!

ثم نظرت إليّ بطرف عينها، كما تفعلين أحيانًا يا "دورنتينا"، وواصلت غناءها بمقطع جديد:

- إن كنتَ تحبني، إن كنتَ تعشقني، اخلع حذاءك وألبسني إياه، وخذني معك نسير بين الكروم ونقطف العنب، آه يا عنب، يا عيون البنت الحلوة!

طارت الفراشة فجأة، واختفت داخل عين الملاك. علّقت "بلوسوم":

- لأول مرة تحطّ الفراشة عليّ. عادةً، تلتصق بزجاج النوافذ ثم تختفي.

رسمتْ إشارة الصليب، وارتدت حذاءها وركضت بسرعة خارج الباب المفتوح، كأنها تهرب من شيء. أغلقتُ الباب، وأعدت الخشبة مكانها، ولحقت بها. سألتني ما إن رأتني:

- هل رأيت السعادة في عينيه عندما سمع أغنيتي؟

- مَن؟

- الملاك.

أضافت بعد برهة:

- إنها أغنية مقدونية قديمة. كل قصيدة هي قطعة حب وأنفاس حياة. كل فراشة هي همسة شخص، أو صوته المَنسي.

كانت تلهث قليلًا وهي تهبط السلالم الحجرية الكبيرة المؤدية إلى الساحة. رأينا الأب "أجاثون" وهو يُدخِل الحمام المتبقي إلى المخزن. لم نذهب إليه، وتوجهنا إلى حجرة النوم مباشرة. كانت الملاءة قد تشرّبت دم الحمامة، وأصبحت حمراء اللون. أمسكتها "بلوسوم" من أطرافها، وأزالتها عن الفراش بالطائر الميت داخلها. لا أدري أين وضعتها، لكنها عادت سريعًا بغطاء آخر، فردته على الفراش. انبعثت في المكان رائحة طيبة هي مزيج من الريحان وبخور اللُبان.

قالت:

- لا زالت حجرة عمي تحمل رائحته الخاصة. اعتاد الأب "سيلينتيوس" أن يضع الريحان وقطع البخور في كل مكان. كان يقول بأن الريحان هو رائحة الحب، واللـُبان هو رائحة الروح.

جلستْ على السرير، وجلستُ أنا على المقعد الخشبي المجاور للشبّاك. امتدّ الصمت في أرجاء الغرفة. نظرنا إلى الصليب الكبير الذي يعلو مبنى الكنيسة، والذي أرسل ظلًّا غريبًا سقط داخل حجرتنا.

كسرت "بلوسوم" الصمت، حين قالت:

- هناك سرٌّ إضافي أودّ إطلاعك عليه. لقد حاولتُ الإنتحار أكثر من مرة. مرتان على وجه التحديد. تخيلت أن الأمر سهل، كما نجده في الكتب مثلًا، لكن الأمر صعبٌ جدًا في الواقع. بدأتُ أنتظم في زيارتي للدير عقب تلك المحاولات الفاشلة. أردت البحث عن التوبة في أجواء من السلام والهدوء التام، أمام أعين القدّيسين. أردت أن أصلي طويلًا. الصلوات هي حوارنا مع الربّ. في العامين الأخيرين اللذين سبقا موت عمي، مكثتُ هنا لفترات أطول. رغبت في تأمل حياتي وأفعالي في هذا السكون الذي يغلّف المكان. هذا السكون هو الذي أخبرني بأنّي أعيش حياة ليست حياتي، في زمنٍ ليس زمني. أحيا ظروفًا خلقها لي أشخاصٌ من حولي، وفقًا لرغباتهم وأهوائهم؛ أخبرني أنه لا يمكن للمرء أن يغيّر شيئًا في حياة كهذه، فإمَّا أن تتقبّل العيش على ذلك النحو، أو ترفض الحياة بأكملها.

أردفت:

- الحياة حفلٌ راقص مليء بالصخب، لكنك لا تستطيع إنهاءه متى شئت. أنت لا تملك الحق في ذلك، لأنكَ لستَ مدعوًا أصلًا. ومع ذلك، حاولتُ وقف الحفل مرتين. في المرة الأولى تناولتُ السمّ. في المرة التي تليها حاولت أن أرمي نفسي تحت عجلات العربة الثانية من قطار شحن. عندما فشلت المحاولتان، أدركتُ أن عَيش الحياة هو اختيار وليس قدر. في الواقع، هذه الجملة التي أصبحت ضمن قناعاتي ليست لي، وإنما قالها عمي حين أخبرته بأن القطار كان أسرع من قراري. سكتَ قليلًا ثم صارحني بأنه أمضى سنوات في السجن دون أن يرتكب ذنبًا. تسبّبت وشاية، ومكيدة مدبّرة، من بعض أقرب أصدقائه في الحكم عليه بستة أعوام. فور انتهاء مدّته، توجه إلى الدير. قال بأنه أحسّ

بخيبة أمل تجاه جميع أصحابه، حتى من تعرّف إليهم في الزنزانة، لكنه لم يغضب من أي منهم. قال بأن كل إنسان يحمل صليبه معه، ولديه ما يكفيه من الهموم. أدرك عمّي أن التعامل مع الناس يجلب الخيبة، أمَّا التعامل مع القدّيسين فيشعرك بأن هناك من يفهمك. قال بأن الناس يدفعونك لارتكاب الآثام والإبتعاد عن الطريق القويم، وإنك إن تقبّلت ذلك ولم تقاوم فإن نهايتك ستكون مأساوية دون شك. أتذكر أيضًا أنه قال أن الأشرار هم أشخاص أغبياء في الأساس، وما الذي تتوقعه من أمثالهم سوى التلذذ والإستمتاع بمعاناة الآخرين؟ لفت نظري إلى أن أهم شيء هو فهم الأسباب التي تدفعنا لاختيار الموت أو استكمال الحياة. واختتم حديثه بالعبارة التي ذكرتها لك منذ قليل: "عَيش الحياة هو اختيار وليس قدر".

أضافت "بلوسوم":

- أذكر أنه تأمل طويلًا في يديه المعروقتين، ثم قال بأن حتى سقراط كان سيتعرّض للتعذيب والصلب، لو لم يتم تسميمه قبل ظهور المسيح بنحو أربعة قرون!

غادرنا الحجرة مع أول الغروب الذي بدأ ينشر ظلامًا خفيفًا على أرجاء الدير. قالت "بلوسوم" بأن الأب "أجاثون" سيكون الآن في صومعته، ولن نتمكن من توديعه. أضأنا شمعتين داخل الكنيسة، ثم خرجنا وأغلقنا البوابة الكبيرة خلفنا. كان السكون يحيط بكل ما في المكان.

خلال سيرنا تجاه المحطة، قالت "بلوسوم":

- لديك الآن مادة لا بأس بها تساعدك على الكتابة. أمامك فرصة لأن تصبح مؤلفًا جيدًا، أعني كاتبًا يُقبِل الناس على قراءة أعماله.

أضافت ضاحكة:

- لو كان الموضوع لا يستحق الكتابة، فلتبحث عن موضوع يستحق القراءة.

استطردت بجدّية:

- عليك أولًا أن تنهي المرحلة الثانوية بالطبع، ثم تلتحق بالجامعة وتتخرج فيها، وهكذا. وبعد ذلك، إن أردت، يمكنني مساعدتك في الحصول على منحة الكتابة الإبداعية التي توفرها جامعة "آيوا". لديّ صديق منذ أيام الجامعة يعيش هناك الآن. يكتب السيناريوهات الخاصة بالإعلانات التلفزيونية والأغاني المصوّرة. سنتحدّث معه. يمكنه مساعدتنا.

توقفت وانحنت لتمسح حذاءها بمنديل ورقي، ثم قالت:

- بعد أن تصبح مشهورًا، سأكون أنا قد تحولت إلى فراشة. عندما أحط على يدك، لا تنسَ أن تتلو عليّ قصيدة لطيفة، أو تسمعني كلمة طيبة تسعدني.

قبّلتني على جبيني، وشبكت ذراعها بذراعي، وقالت:

- كل روح تستحق فرصة جديدة.

كان القطار خاويًا تقريبًا. على صوت عجلاته وهي تضرب جانبيّ القضبان بشكل رتيب، استغرقتُ في نوم عميق، وحلمت بالأب "أجاثون". كان يقف على باب الدير. ناولني ورقة مطوية وحمامة حمراء، وودّعني قبل مغادرته لي. ورغم أننا لم نتبادل كلمة واحدة، إلا أن نظراتنا المتبادلة جعلت أحدنا يفهم الآخر جيدًا.

# 13

تلقيت رسالة من "بلوسوم"، بعد مرور عام كامل تقريبًا على آخر لقاء بيننا، تطلب مني فيها أن أقابلها في بيتها، في إجازة نهاية الأسبوع، لأمر هام ومُلحّ. أكّدت عليّ أن أحضر معي مفتاح الدير.

عدت إلى بلدتي بالقطار، وهو أمرٌ لا أفعله كثيرًا، فرغم حصولي على خصم كبير عند شراء تذكرة القطار، كوني طالب جامعيّ، إلا أن الرحلة بالباص أسرع وأسهل. نزلت من القطار حاملًا حقيبتي الثقيلة. قبل سنوات، كانت هذه الحقيبة أثقل بكثير مما هي عليه الآن، فقد اعتاد جدّي أن يضع لي فيها قبل سفري برطمانات مليئة بأطعمة تكفيني مدة طويلة. كنت أعود بالبرطمانات الفارغة، وبالكثير من الملابس المتسخة.

وكما في كل مرة، حملت الشنطة وسرت بسرعة وبرأس منكس، وأنا أتحاشى النظر إلى الأشجار على الجانبين، حتى لا أفاجأ بوجوه جديدة على جذوعها، قد يكون أحدها من معارفي. لم يعد "هوت هيد هوك" موجودًا في البلدة، يا "دورنتينا"، ليظهر لي من خلف نافورة الولد المتبوّل وهو يطلق دعاباته السمجة. خلال سيري، تحسست المفتاح داخل جيبي، وقررت أن أعيده إلى "بلوسوم"، معتذرًا لها عن عدم قدرتي على إبقائه معي أكثر من ذلك، لأنني في حالة قلق دائم

من أن أفقده أو أن يسرقه مني أحد. قلت لنفسي بأنه ينبغي عليّ أيضًا أن أذكّرها بوعدها لي بالمساعدة على الإلتحاق بدورة الكتابة الإبداعية في جامعة "آيوا".

حين اقتربت من منزلها، لاحظت أن الحشائش الطويلة الكثيفة تغطي كل شيء تقريبًا، وأن أجزاءً كبيرة من الدراجتين الصغيرة والمتوسطة قد تآكلتا بسبب الصدأ؛ لكن الدراجة الكبيرة كانت لا تزال في حالة جيدة، فركبتها ودرتُ بها بضعة مرات، إلى أن ظهرت "بلوسوم" في الشباك بابتسامة سعيدة، أضاءت وجهها، كما ينير البدر ظلام الليل. خلال لحظة، كنت داخل الغرفة المليئة بالكتب، وأنا أحمل شنطة السفر في يدي.

في البداية، قابلتني بتحفظ ملحوظ، كما لو كنتُ شخصًا لا تعرفه. بعد أن جلست، وقفت بجواري ومررت أصابعها بين خصلات شعري، ثم قالت:

- مات الأب "أجاثون" الشهر الماضي، لكن أحدًا لم يعرف حتى الأمس. سوف يكتبون في الصحف أن مجرمًا آخر من مجرمي الحرب قد فارق الحياة.

توقفت يدها على قمة رأسي وهي تقول:

- كلنا مجرمون ومصيرنا الموت، بسبب الخطيئة التي ارتكِبت في جنة عدن.

أطلقتْ ضحكة عميقة، وأضافت:

- لا يمكن لأحد أن ينقذنا من هذا المصير.

ثم ضمّتني إلى صدرها وأضافت:

- اعتاد الأب "سيلينتيوس" أن يقول بأن الحياة نفسها خطيئة عقابها الموت، وأنه يُسمَح لكل واحد منّا بأمنية واحدة فقط، مثل المحكوم عليهم بالإعدام بالضبط.

احتضنتها وأنا أتشرب كل كلمة تنطق بها، بأذنيّ وعينيّ وروحي، بلهفة وشوق. أدركت فجأة أن الكلمات كالفراشات، ترفرف حولك بهدوء، ثم تلتصق داخل صدرك وتصير جزءًا منك، تصبح كلماتك، رغم أنك لستَ صاحبها في الأساس. يحدث كل ذلك دون أن تلاحظ. بل إنك تبدأ في استخدامها دون أن تنتبه إلى أنك تفعل ذلك.

الكلمات خطيرة يا "دورنتينا".

انتزعني صوتها من أفكاري:

- لقد شنق نفسه على شجرة الكرز. انتزعت الحمامات ورق الأشجار بمناقيرها، لتتمكن من رؤيته من بعيد. عثر عليه الفلّاح الذي اعتاد إحضار العسل له شهريًا.

أردفت بعد لحظة:

- ربما لم يستطع تحمّل الخطيئة أكثر من ذلك.

أسندتُ رأسي إلى صدرها، واستطردت:

- ما هي الخطيئة، على أي حال؟ الحياة نفسها خطيئة. لقد قررت منذ زمن أن أعيش في هذه الحياة، رغم الخطايا التي أرتكبها بكامل إرادتي. أنا التي

اخترت نزع ثيابي وتعرية نفسي وتعليمهم كيف يمارسون الجنس على النحو الأمثل. أنا التي شجعتهم على اكتشاف ذواتهم وإشباع رغباتهم، عبر تجربة أمور جديدة، ومن خلال إسعاد المرأة التي يحبون. ولكن حين يبدأون في الإحساس بالخوف والحرج من أن يعرف بأمرهم أحد، يبادرون بإنهاء هذه الخطيئة، وبدء أخرى جديدة.

قبّلتني على جبيني، ثم أجلستني بجوارها على الأريكة الحمراء المواجهة للنافذة. قالت فجأة:

- لديّ صديقة تعمل الآن في المكتبة العامة في المدينة، ومتزوجة من طبيب بيطري طموح. حين كنا لا نزال ندرس في الجامعة، اعتادت أن تستقبل أصدقاءها في حجرتها، وبعدها نسمع صراخها المرتفع: "الثعبان! الثعبان قادم!"، فكان الذكور الشجعان يفرّون من غرفتها وهم عراة. لعلّك لاحظتَ أن الرجل الذي يمارس الخطيئة يلقى تقديرًا واحترامًا من المجتمع، فيوصف بـ"الذكر" و"الشجاع". المهم، أدرك الجميع بعد فترة أن تلك الصيحات ليست تحذيرًا، وإنما مجرد كلمات تستخدمها المسكينة عندما تشعر بالنشوة.

واصلتْ:

- الكثير من النساء، من مختلف الأعمار، يستخدمن ألفاظًا وأصواتًا متباينة في مثل هذه المواقف. لكل امرأة عارية كلمة تعبّر عن استمتاعها بالخطيئة. أمَّا الرجال العراة، فإن الجبناء منهم يحافظون على صمتهم ولا يمتلكون كلمات خاصة من هذا النوع. يظنون أن السكوت سيحميهم.

قالت بصوت هامس، وهي تلعق وجهي:

- هناك أمرٌ أرغب في مصارحتكَ به. منذ فترة، ولا يهم متى بالضبط، اكتشفتُ أنني حامل. الأب، الذي كان قد هجرني، تردّد على البلدة أكثر من مرة، وفي كل مرة تعمّد أن يتجاهلني وكأنه لا يراني. قررت الاحتفاظ بالجنين، نكايةً به، لا أكثر ولا أقل. أردت أن أجلب طفلًا بائسًا إلى هذا العالم، لأحرج والده فقط. ثم فكرتُ في الأمر، لأكون أمًا، يجب أن تكون لديّ الرغبة الصادقة في إحاطته بالمحبّة والرعاية، لا ولادته فقط. حين صارحت الأب بعدها بأنني خضعت لعملية إجهاض للتخلص من الجنين، أظهر سعادة بالغة. تجمع بيننا الآن علاقة أقرب للصداقة، رغم أنني لم أعد أراه منذ إغلاق القاعدة العسكرية ورحيل الجنود. لا يعرف بقصة الإجهاض غيري أنا وهو. بكيتُ بعدها لثلاثة أيام متواصلة، ولم أستطع النوم. طاردني خيال أبي على كرسيه الهزّاز، وصورة أمي وهي تقلّب صفحات الكتب بسرعة بحثًا عن "ماشا"، وأطفالي الذين لم يولَدوا وهم يلعبون على الدراجات وراء البيت، ويكبرون عامًا بعد آخر. ثم بدأت أخرج، على هيئة النساء المرتديات ملابسهن. أنت تعرف أن هناك صنفين من النساء؛ المرتديات ملابسهن، والعاريات. بدأت أدّعي البراءة والعفة، وأُظهِر الإرتباك حين ينظر إليّ أحد. الحياة في هذه البلدة، يا عزيزي، تمثيلية متواصلة. لطالما رأيت فتيات محتشمات يرفضن أن يمسك الحبيب أيديهن في الأماكن العامة، ولكن ما إن يختلين بهم حتى تسارع كل واحدة منهن بخلع ملابسها الداخلية، والتلفظ بكلمات المتعة الخاصة بهن.

أضافت ضاحكة:

- في إحدى المرات، قالت مدرّسة مسنة أنها سمعت تحت شباك حجرتها فتاة تصرخ "ثعبان! ثعبان!" وأنها منذ ذلك الوقت تخشى فتح نوافذ بيتها، ووقعت ضحية كوابيس متكررة تطاردها فيها الثعابين. ضحكتُ في سرّي، ولم أعلّق.

بعد لحظة صمت، شردت خلالها قليلًا، قالت:

- رغم أنني لا أزال في مرحلة الشباب، إلا أنني معلمة في نهاية الأمر. لا أظن أن أحدًا من طلبتي يمكن أن يشتهيني أو يتخيلني دون ملابسي المحتشمة، أو يتصورني وأنا أمارس الجنس. بالنسبة لتلاميذي أنا مجرد امرأة تقليدية ترتدي ثيابًا عادية، أليس كذلك؟

ودون أن تنتظر ردّي، أكملتْ كلامها:

- في نظرهم، أنا المرأة التي تعدّ الفطائر وتقلي البيض وتغسل الثياب وتؤدي كل الأعمال المنزلية على أكمل وجه، ولا تمارس الجنس.

نظرتْ باتجاه النافذة، تراقب طيَّارة ورقية حمراء وهي تحلّق عاليًا فوق أشجار الصنوبر، ثم نزلت قليلًا وطارت إلى جانب مدخنة البيت المجاور. انتابني شعور بأن "بلوسوم" تودّ إخباري أمرًا مهمًا، لكنها لا تزال تحاول انتقاء الكلمات المناسبة.

تنهدت بعمق، فارتفع صدرها ثم عاد إلى مكانه. لو كنت سأصفها يومًا يا "دورنتينا"، في رواية مثلًا، فسوف أبدأ من صدرها حتمًا. ذلك الصدر الناهد، المفعم بالحيوية، بكافة تفاصيله الجميلة.

وكأنها تقرأ أفكاري، قالت:

- أزهار الربيع الصفراء تنبت داخل صدري، وبخاصة حين تتوالى أمواج الذكريات داخله.

أضافت:

- في إحدى المرات، وكنت لا أزال طالبة، أحببت زميلًا لي بعمق. حب عاصف. كان شديد الذكاء والوسامة. لكن حين جمعنا الفراش، لم يبدِ أيّ رغبة فيّ. حاولت تشجيعه، وإرشاده إلى ما ينبغي عليه فعله. حاولت أن أثيره، دون جدوى. لم يظهر تجاوبًا. لا شيء على الإطلاق.

أضافت:

- اسمه "فيليب". سافر بعيدًا وحقق نجاحًا كبيرًا في عالم الإعلانات التلفزيونية والأغنيات المصورة. أنت الآن تعرف كل شيء، وباستطاعتك أن تكتب عملًا جيدًا.

عانقتني، واحتضنتني، وتبادلنا قبلات طويلة. حين انتهينا، قامت وارتدت فستانها الأحمر وأحكمت ربط حزامه.

قالت:

- في بعض الأحيان، تصلني الإشاعات التي ترددها ألسنة النساء عني.

جمعت شعرها، وعقدته بطريقة محكمة، ثم استكملت حديثها:

- يقلن بأنني أغوي التلاميذ، وآتي بهم إلى منزلي. وأنني أفعل أشياء مشينة مع الأولاد داخل الفصل لا غير! خلف الأبواب المغلقة بالطبع. وأنني أتعمد عدم ارتداء ثياب داخلية حين أذهب للمدرسة، وأنني أداعب أجساد الطلبة الأكبر سنًا. كما أنني أتعمد اختيار القصص التي تضم مشاهد حب ساخنة، من كلاسيكيات الأدبين الروسي والفرنسي.

أضافت باحتقار:

- وكأنهن يعرفن معنى "كلاسيكيات" أصلًا!!

استطردت باستهجان:

- يعتقدن أن ارتداءهن للتنانير الطويلة، والبنطلونات الواسعة، يجعلهن محترمات وعفيفات. كلنا نعرف أنهن أيضًا يمارسن الجنس! جميعهن بلا استثناء؛ المعلمات والخياطات والبائعات وعاملات النظافة؛ وكلهن يرغبن في طردي، لا من المدرسة فحسب، بل من البلدة بأكملها. يعتقدن بأنهن حين يفضحنني ويبدين عيوبي، فإن هذا كفيل بستر خطاياهن.

أضافت بشرود:

- أنا مريم المجدلية.

أخرجتُ مفتاح الدير. تناولته مني وهي تساعدني على ارتداء ملابسي، ثم قالت:

- حدثت معجزة في الدير.

- أي معجزة؟!

- سوف تعرف التفاصيل، ولكن ليس الآن.

في طريقي لمنزلي الخالي، الذي تفتقد جدرانه جدّي، رحت أفكر في طبيعة المعجزة التي حدثت في الدير، وأتساءل عن الحجرة المقفلة وعن محتوياتها. ثم قلت لنفسي بأن اكتشاف الأمر لن يطول، لأننا سنذهب إلى الدير في الغد.

وعلى عكس ما يحدث لي الآن يا "دورنتينا"، فإنني في تلك الفترة كان لديّ "غد" أنتظره بيقين ودون قلق.

# 14

وصلنا إلى الدير في قطار الصباح. دخلنا من البوابة الخارجية المفتوحة، وجدنا الساحة الرئيسية في حالة غير مألوفة من القذارة والفوضى. اختفى الحمام الذي اعتدنا وجوده في كل الأرجاء. رأينا بعض القطط، لكنها ما إن لمحتنا حتى ركضت مذعورة وتسلقت الأشجار.

في الداخل، كانت كل الأبواب مفتوحة، وتصدر صريرًا مرتفعًا مع تحريك الرياح لها. وقفنا أمام الباب الوحيد المغلق. في الطاقة الزجاجية التي تعلوه، جلست قطة سوداء تراقبنا بفضول. بحركات متأنية، أخرجت "بلوسوم" المفتاح الذي تركه الأب "أجاثون" معنا، وأدارته في الثقب بهدوء، ثم دفعت الباب بركبتها. في الغرفة الضيقة شبه الخالية، لم نجد سوى خزانة ملابس مفتوحة، وبداخلها صندوق خشبي مغلق بإحكام بقفل أسود. فتحته "بلوسوم"، باستخدام نفس المفتاح. نظرت إليّ بدهشة، إذ لم يكن فيه سوى ورقة واحدة مطوية من منتصفها، لُصِقت أطرافها بالشمع.

استدارت القطة، وواصلت مراقبتنا وهي تجلس على قوائمها. بدت شبيهة بقطط المعابد الفرعونية. سقط ظلها على جميع أنحاء الغرفة، متسببًا في بعض الإعتام. جرّتني "بلوسوم" من يدي نحو النافذة المطلة على الكنيسة القديمة، ثم اتكأت على الجدار وفضّت الشمع اللاصق للورقة. أمسكتها بين أصابعها، وقرأت عليّ سطورها:

- "عزيزتي، ها نحن معًا للمرة الأخيرة. انتظرتُ طويلًا هذا اليوم الذي سأتمكن فيه من مصارحتك بكل شيء، حتى تلك الأمور التي حرصت على عدم التفكير بها، بيني ونفسي، وأنا هنا في الدير بمنأى عن العالم وأحداثه. والآن، وقد اقتربت نهايتي، يتوجب عليّ أولًا أن أشكركِ على إحضاره معكِ اليوم إلى هنا. كما أشكركِ طبعًا على إحضاركِ له قبل ذلك، حين طلبتُ منكِ أن أراه لأبدي له إعجابي بقصته القصيرة عن "ليلي". أنا ممتن لأنكِ معه في هذه اللحظة، حتى لا يكون وحيدًا حين يستمع إلى الحقيقة كاملة".

قرأت "بلوسوم" الكلمات السابقة يا "دورنتينا" بصوت هامس يشبه الرفرفة الرقيقة للفراشات. هل تصدّقينني إن أخبرتك بظهور فراشة بيضاء، من حيث لا أدري، في تلك اللحظات؟! كانت تضرب زجاج النافذة بجناحيها.

ارتجفت يدا "بلوسوم" وهي تمسك بالورقة التي انبعثت منها رائحة الشمع والبخور، وواصلت القراءة بصوت مرتعش:

- "كما تعرفين، كان الأب "سيلينتيوس" يعيش وحيدًا في الدير حين عدت من سفري الطويل. قابلني بكل مودّة وترحاب، ولم يطردني. حين توفي منذ ثلاث سنوات، دفنته تحت شجرة الزيزفون، بجوار الأب "ناعوم"، كما تتذكرين. حين جئتِ لإشعال شمعة على قبره، كانت لحيتي قد طالت جدًا ووصلت إلى بطني تقريبًا. استقبلتكِ على البوّابة بتلك اللحية، والحمام الأبيض يغطي كتفيّ كشالٍ صوفي. اقتربتِ مني يا عزيزتي، ورأيتني عن كثب للمرة الأولى، ولم تتعرفي عليّ. في الواقع، أنتِ تعرفينني جيدًا، منذ سنوات بعيدة. أحسستُ بارتياح بالغ لجهلكِ بي وبشخصيتي، ما دفعني لأن أحتضنكِ وأبكي طويلًا. في تلك اللحظة، كنت أبكي من حزني على رحيل صديقي العجوز، ومن

إحساسي بالسعادة والطمأنينة في الوقت ذاته؛ قلتُ لنفسي:"طالما لم تتعرف عليّ، فلن يعرفني أي شخص آخر". حين صارحتكِ عقب وفاة عمّك ببعض الأمور الخطيرة التي تمسّ سلامتي، لم أقل كل شيء. على أي حال، عندما لم يأتِ أحدٌ لإلقاء القبض عليّ، تأكدت من أنكِ الوحيدة التي لم تخنّي. كان بإمكانكِ أن تشي بي، لكنكِ لم تفعلي يا عزيزتي. مرّت ثلاث سنوات منذ حديثي معك، فراشاتٌ ماتت، وأخرى طارت مكانها، حماماتٌ تكاثرت، وملأت أرجاء الدير ببياضها الساحر. والأمور كما هي، ووضعي لم يتغيّر".

من مكاني أمامها، تبينت أن الخط الذي كُتِبَت به الرسالة صغيرٌ للغاية، ومنمق جدًا.

تنهدتْ وواصلتْ القراءة:

- "ما الذي كان عليّ فعله؟ أنا بريء حقًا، لكنهم أرادوا أن أعلن عكس ذلك. أن أقول "أنا شرير"، ثم أبرهن على شرّي! جريمتي الوحيدة هي أنني لم أرهم بالمثالية التي يتوهمون أنفسهم عليها. كان عليّ أن أردّد أنهم قدّيسون وملائكة، حتى تستقيم الأمور. حينها، كانوا سيوقعون معي اتفاقيات سرّية تتيح لي أن أصبح صديقهم، بدلًا من أن أضطر للهروب والإختباء هنا، خوفًا من أن يتخلصوا مني بالقتل".

زفراتكِ العميقة يا "دورنتينا" تحرّك الأزهار الصفراء أمامكِ. أرى الجانب الأيسر من النهر منعكسًا على عينكِ اليسرى. أعرف أنكِ لن تقومي بالضغط على الزناد إلا حين أنتهي من سرد تفاصيل الرسالة عليكِ. لعلكِ تتساءلين مثلي عن كيفية معرفته بأنني سأرافق "بلوسوم" حين تذهب لفتح حجرته، وتيقنه من أنها ستقرأ الخطاب أمامي بصوت مرتفع.

لا أدري، وكل ما أمكنني معرفته حتى تلك اللحظة هو أنه لم يكن راهبًا ولا رجل دين. من هو تحديدًا؟ لا أظن أن "بلوسوم" نفسها، حتى ذلك الجزء من الخطاب، كانت تعرف.

قبل أن تواصل القراءة، مدّت أصابعها ومسحت حبّات العرق عن صدرها، الذي لمع على الفور، كحبّات الخوخ تحت المطر.

حين كنت في القرية، اعتدت أن أنتظر انتهاء هطول المطر، لأقف على أطراف أصابعي تحت شجرة الخوخ، وأبدأ في لعق الماء عن الثمار ببطء واستمتاع دون أن أقطفها. لا أدري إن كان هذا تصرّف طبيعي، أم أنه ينم عن سلوك منحرف، لكنه جزء من طفولتي على أي حال. سوف أشاركِ ببعض ذكرياتي عن تلك المرحلة يا "دورنتينا"، إن سنحت لي الفرصة. سأخبركِ أيضًا عن الأشعار التي كنت أنظمها، ولا أطلع عليها أحدًا.

اسمحي لي بأن أعود إلى "بلوسوم" وتلك الرسالة الغريبة.

قرأتْ المزيد منها:

- "والآن يا عزيزتي، سأصل إلى أهم نقطة في الخطاب، ولكن قبل أن أفعل ذلك سأقول فقط بأنكِ كنتِ محقة حين أحضرتِ لي الكرسي المتحرك، وحين نصحتني بألا أتكلم إلا للضرورة، وأن أفعل ذلك بصوت مصطنع، مختلف عن صوتي الحقيقي، لأن الناس يميّزون بعضهم عادةً بالأصوات والإبتسامات. تغلبت على مسألة الإبتسام بتغطية فمي بشاربي الكث ولحيتي الطويلة، أمّا الصوت فقد ادّعيت كما تعرفين أنني مصاب بالربو، وحرصت على ألا أتكلم إلا همسًا. ومع مرور الوقت، لم أعد أنا نفسي أعرف إن كنت مريضًا بالفعل أم لا،

فحتى عندما أكون بمفردي، أجد صعوبة في التنفس والكلام، ولم أعد أميّز شكلي حين أراه منعكسًا على أيّ سطح. بدأت أتعامل مع الراهب المقعد على أنه شخص آخر، وأتبادل معه الأحاديث دون أن ألاحظ. لكن هذه النقطة تحديدًا منحتني شعورًا عظيمًا بالطمأنينة، فإن كنت أنا لا أعرف نفسي، فكيف إذن سيعرفني الآخرون؟ وبخاصة العملاء والجواسيس المحليّين والأجانب الذين ترددوا على الدير بحجة مشاهدة لوحة الملاك. حين يسألونني عن نفسي، أجيب بالردود التي لقنني إياها الأب "سيلينتيوس". في بعض الأحيان كانوا يسألونني عن الأماكن التي يحتمل أن أكون أنا، بصفتي مجرم الحرب الهارب، قد لجأت إليها. كنت أجيب بأن عليهم أن يبحثوا في المخابىء، والقواعد العسكرية المهجورة، وفي القرى المناوئة لحكم الدولة. في بعض الأحيان، كنت أدلّهم على أماكن بعض الكنائس الصغيرة والأديرة غير المشهورة، قائلًا بأنه قد يكون مختبئًا فيها! تخيلي دهشتي، أيتها العزيزة "بلوسوم"، حين أرى حرصهم على تقبيل يدي قبل مغادرتهم، معتقدين بأنني المطران. كنت أسمعهم يشرحون لزملائهم الأجانب بأنني جئت من دير "زوجراف" اليوناني، ولا أعلق. أجلس بعد ذلك بين قبريّ الأب "ناعوم" والأب "سيلينتيوس"، وأنا أفكر ما إذا كان هؤلاء الناس جادّين في البحث عني حقًا، أم أنهم يؤدّون المطلوب منهم فقط دون اهتمام حقيقي، لأن هناك أمور أخرى تشغل بالهم كالدمار الذي لحق بالمباني والمطارات ومحطات المترو. والآن، إنتبهي جيدًا لما سوف أقول، فهذه ليست كلماتي، بل كلمات ملاك الكنيسة القديمة. أبلغني بأنه في يوم من الأيام ستضرب طائرتا ركاب برجين عاليين، هما الأطول في بلادهم؛ وعندها فقط سيميزون الصديق الحقيقي من الزائف".

تنهدت "بلوسوم"، وطوت الورقة بحيث لم يبقَ ظاهرًا منها سوى ثلثها الأخير. جرّتني نحوها من الـ"بلوفر" الذي أرتديه، وأوقفتني بجوارها. قالت بجدّية:

- أنصت إلى نهاية الخطاب.

استطردتْ على لسانه:

- "كان عليّ أن أكتب هذه الفقرة في البداية. لكنني، وحتى تعليق حبل المشنقة في شجرة الكرز، كنت مترددًا في ذكر الأمر. ثم قررت من لحظات فقط أن أعترف بكل شيء، بصراحة تامة. حين توفيت حبيبتي "ليلي"، بقيت وحدي معه. عشنا في كوخ خشبي صغير، مهجور، داخل أحد الحقول. ثم جاء أفراد تابعين للسلطات وانتزعوه مني. في الشهر التالي، تبنّاه زوجان لا يستطيعان الإنجاب، يعيشان في قرية مجاورة لبلدتنا. كانا لطيفين جدًا. طلبت منهما أن يطلقا عليه اسمي، وأن يرسلا إليّ صورته حين يكبر قليلًا، لأحتفظ بها وأسعد بها؛ وما لم أقله لهما هو أنني أردتها لأبكي حين أراها، وأستعيد ذكرياتي معه. والآن يا عزيزتي، توقفي عن القراءة، وافتحي الصندوق الخشبي مرة أخرى. ستجدين الصورة في الجانب السفلي للعلبة".

فعلت "بلوسوم" ذلك. استخرجت الصورة من قاع الصندوق، وأمسكتها تحت الخطاب، وواصلت القراءة:

- "بعثا لي بالصورة على العنوان الذي أعطيتهما إياه، وأرفقاها برسالة ذكرا فيها أنهما قد عمّداه وأطلقا عليه اسمي، وقالا بأنه يمكنني زيارته متى أحببت. في السنوات الأولى، ركبت قطار الليل عدّة مرات، وتوجهت إلى قريتهما لأراه. لكنني في كل مرة، كنت أبقى في المحطة وأتأمل النهر القريب وأنا أفكر في

جدوى معرفته بأنني موجود، وما إذا كان من الأفضل ألا يعرف بوجودي أصلًا، وبعد مناقشات طويلة مع نفسي، يتخللها الكثير من اللوم والتأنيب والتبرير، لساعات طويلة، أركب القطار الجنوبي وأعود. بعد سنوات من العذاب المتواصل، عدت إلى "سرمينيكا" حاملًا معي الصورة الفوتوغرافية التي تمسكينها الآن، وقمت بترميم منزل عائلة أبي، الذي لم يعد يسكنه أحد، وبقيت فيه لأنني لم أستطع العودة. وما الذي أعود إليه؟ ذكرى وفاة "ليلي"؟ أم حزني الدائم على حرماني من ذلك الصغير المسكين؟ ثم تزوجت، وبدأت الحرب، وأنتِ تعرفين الباقي، لأنني أخبرتك إياه. أكرر شكري على تمكيني من رؤيته".

سحبت "بلوسوم" الصورة من خلف الورقة ببطء. تعرفتُ عليها على الفور. صورتي وأنا طفل صغير أركب حصانًا خشبيًا، وألبس "شورت" وقميصًا أبيض، وصندلًا جلديًا تحته جورب. تذكرت بأن الصورة كانت قد اختفت من منزلنا، وأنني بكيت طويلًا حين اكتشفت ضياعها، وأن أمي أقنعتني بأنها ستجدها حتمًا عندما نجدّد طلاء الجدران، ثم نسيتها تمامًا بعد ذلك.

تنفستْ "بلوسوم" بعمق لعدّة مرات، قبل أن تواصل قراءة الرسالة:

- "أنا "كونستانتين". أنا الفتى الذي كتبتَ عنه قصتك القصيرة، و"ليلي" هي أمك. يمكنك أن تشعل شمعة على قبري وقبرها إن أحببت".

صمتت "بلوسوم"، بوجه ممتقع وساقين مرتعشتين. واصلتْ الفراشة الإرتطام بالزجاج، وكأنها غير مقتنعة بأن هذه هي حدود طيرانها، ولا يمكنها التقدم أكثر من ذلك. تمطّت القطة على الشباك الذي يعلو الباب، وهي تراقب الفراشة.

ظلت "بلوسوم" ممسكة بالرسالة والصورة، وقد اعتراها الذهول. مددت أصابعي لآخذها، لكنها هوت على يدي فجأة، وأخذت تلثمها. حين هدأتْ قليلًا، قالت:

- انتظر، هناك المزيد.

واصلت القراءة:

- "أعرف يا عزيزتي بشأن السيدة التي خرجت ولم تعد، لكنك ستستلمين خطابًا يخبرك بتفاصيل الأمر؛ كما أعرف كل ما يتعلق بالرجل الذي اعتاد الجلوس على الكرسي الهزاز، ورحل ممسكًا بدفتر التذاكر. لقد أفنى حياته وهو يتابع الدرَّاجات وهي تدور مرة تلو الأخرى. أعرف كل شيء أيضًا عن الولد الذي حوّله البرق إلى فراشة. والحمام الأبيض والمخزن وملاك الكنيسة، بل إنني أعرف أن هناك قطة تراقبكما الآن".

عقدت المفاجأة لسان "بلوسوم"، وفي نفس اللحظة التفتنا معًا تجاه الشباك العلوي. نظرت إلينا القطة ببرود، واستدارت ببطء، ثم قفزت على الأرض واختفت عن ناظرينا.

تسارعت أنفاس "بلوسوم"، وبدا صدرها كما لو كان يحمل بداخله عصافيرًا تتأهب للطيران. وضعت يدها على صدرها، لتهدّئ أنفاسها، ثم قلبت الخطاب على جهته الأخرى، وناولتني إياه لأقرأ ما كتِب على ظهره.

- "أعرف أنك طالب، وأعرف أنك ستسافر وتذهب إلى مكان بعيد، وتصبح كاتبًا مشهورًا. لكن الشهرة مليئة بالشر. يومًا ما سيأخذونك إلى الجبهة. لا أحد يصدق هذا الآن، بالطبع. هناك، ستشهد حادثًا غريبًا. حاول أن تغيِّر أحداث

القصة، طالما أن أمامك متسع من الوقت لفعل ذلك. اسرد القصة بالعكس؛ من الحاضر إلى أبعد ماضي يمكنك تذكّره. في الحقيقة، أنا أكتب كل هذا لأخبرك أن المرأة التي تحمل بندقية قنَّاص، والتي ستطلق أنت عليها اسم "دورنتينا"، سوف تعرفك. وأنت أيضًا ستعرفها. حاول أن تنقذ نفسك. سوف أضع الرسالة داخل الصندوق، ثم سأتوجه إلى شجرة الكرز لأشنق نفسي، لأنني إن استمريت في الحياة على هذا النحو، وبخاصة أنني لا أملك تغيير أي حدث فيها، فسوف أشعر بالضآلة، وبالمزيد من العجز".

كان هذا هو خطاب "أجاثون". أعدناه مع الصورة داخل الصندوق.

حين هبطنا درجات السلم الحجري المؤدّي إلى الساحة الأمامية للدير، حدث أمرٌ غريب يا "دورنتينا". تجمَّع الحمام وشكّل هيئة شجرة الكرز بالضبط، وطارت خلفنا على هذه الصورة إلى أن وصلنا إلى البوابة الخارجية.

لا زلت أشعر بوجودهم خلفي أحيانًا. حتى في هذه اللحظة التي أقف فيها أمامك الآن.

علّقت "بلوسوم" بأنها ليست المرة الأولى التي يتشكّل فيها الحمام على هذا النحو، ولكن في كل مرة يحاول أي شخص أن يصوّرهم، تتفرق الطيور، وتبتعد محلقة عاليًا.

أسمع أنها لا تزال تظهر بين الحين والآخر، وتصنع من أنفسها هيئة الشجرة التي شنق عليها الأب "أجاثون"، أو "كونستانتين"، نفسه.

في طريقنا إلى المحطة، تبعتنا قطة الدير السوداء بإصرار. انتظرتْ على الرصيف إلى أن ركبنا. قبل أن يتحرك القطار، تجمّع حولها عددٌ من الكلاب الضالة، لكنها قفزت بسرعة وتسلقت شجرة زيزفون.

بعد ساعة بالضبط، وصل القطار إلى المحطة المطلّة على النهر يا "دورنتينا". تعرفينها، أليس كذلك؟ فجماعتي وجماعتك، خلال صراعاتهما المتواصلة، فجّرتا المحطة والسكة الحديد، ولم يعد يستخدمهما أحد. لكن النهر لا يزال موجودًا، ولا تزال أمواجه تنساب بين أشجار الصفصاف التي تزيّن ضفتيه.

إذن، وصلنا يا "دورنتينا" بعد ساعة، لكن حين نزلنا من القطار اختفت "بلوسوم" تمامًا في زحام المسافرين، ولم أستطع العثور عليها. لم يكن أمامي متسع من الوقت، فتوجهت إلى البيت مسرعًا، لأجلب حقيبتي وأركب القطارالذي يصل مع الغروب.

عدت إلى المحطة ثانيًة، قبل موعد قطاري بنصف ساعة تقريبًا. كنت أبحث عن مقعد خشبي فارغ، حين لمحت "بلوسوم" تقف على الرصيف أمام سور المحطة، وهي تتأمل النهر بشرود. كانت تلبس فستانًا بنفسجي تزينه على الصدر فراشة مطرزة بخيوط فضية بالغة الرقة، وتضع على رأسها قبعة، وتحمل شنطة يد حمراء، وتنتعل حذاءً لامعًا.

متى وجدتْ الوقت الكافي لتغيير ثيابها؟!

بدت كشخصية مألوفة من رواية أدبية شهيرة، لكنني لم أستطع تذكّر من تكون بالضبط. حين رأتني، ابتسمت وتناولت ذراعي ببساطة، وطلبت مني أن أتمشى معها قليلًا قبل أن يصل قطاري.

نزلنا السلالم القليلة المؤدّية إلى حافة النهر. قالت فجأة، ودون مقدّمات بأن العالم أصبح غريبًا.

- الأشجار غريبة، والهواء، والغيوم والشمس التي تفرد أشعتها على التلال، وهذا النهر غريب أيضًا، وتلك القلعة التي شهدت جدرانها أحداثًا عديدة.

كرّرتْ:

- كل شيء غريب.. غريب.

عكست عيناها الذاهلتان إحساسها البالغ بالصدمة، وكأنها ترى هذه الأشياء للمرة الأولى. سكتت قليلًا وهي تنظر إلى سطح الماء، ثم قالت بصوت هامس وهي تحاول مغالبة إحساسها بالحرج بأنها لم تكن تعرف شيئًا عن الرسالة. ثم نطقت بإسم "ليلي"، ونكست رأسها وأجهشت بالبكاء. فتحتْ حقيبتها، فانسكبت دموعها داخلها. أغلقتها، وواصلت السير. جررتُ حقيبتي الكبيرة وتبعتها. وقفنا أمام صفصافة صغيرة.

قالت "بلوسوم" بوجوم، وهي لا تزال تنظر إلى الماء:

- شجر الصفصاف عديم الفائدة. نضر، لكنه لا يثمر.

راقبت التماع فستانها.

قالت بابتسامة حزينة:

- جئتُ هنا لأرمي نفسي تحت القطار. تحت عجلات العربة الثانية تحديدًا.

فتحت حقيبتها. تذكرت بأنني رأيتها على الرفوف، وسط الكتب الكثيرة في بيتها، لكنني لم أرها تحملها من قبل. أخرجت منها ورقة ناولتني إياها، وهي تقول:

- بعد أن غادرتني البارحة، اتصلت به. "فيليب بلاكسميث". هذا هو عنوانه، ورقم تليفونه. إن أردت أن تذهب، اتصل به ليرتب لك الإلتحاق بدورة الكتابة الإبداعية. إنها ورشة كتابة، أو شيء من هذا القبيل، يديرها صديق له، مؤلف مشهور له عدد من الكتب التي حققت نجاحًا كبيرًا. أظن أنك ستستفيد من خبراته.

أضافت، وقد ازدادت ابتسامتها حزنًا:

- يومًا ما ستصبح أنت أيضًا كاتبًا مشهورًا ولك كتب ناجحة، وسأصبح أنا فراشة تقف على ذراعك لوقت قصير، لتستمتع بقربك قليلًا.

- لا أحب القصص الحزينة.

تجاهلت ما قلت، وأردفت:

- لقد أخبرتك بكل شيء، وعليك أن تضيف لمساتك الخاصة لتحوّل ذلك إلى عمل أدبي يتميز بالصدق. اكذب ما شئت، وأضف ما شئت. كلمة واحدة مني، ومئة منك. اكتب لتسامحني. سامحني من أجل "ليلي"، من أجلهما معًا.

أضافت بأسى:

- دائمًا، حين أدرك خطأي، يكون قد فات الأوان.

قالت بعد برهة:

- إن وجدتَ وقتًا لتتذكر، فتذكرني، وتذكر حكاياتي الثلاث، والأشياء التي أحب.

حين صعدنا الممرّ الضيق المؤدّي إلى الدرج، قالت:

- في بعض الأحيان، تصلك خطابات من العالم الآخر، هل تصدّق ذلك؟ حين كنا في الدير صباح اليوم، ترك ساعي البريد خطابًا أمام باب بيتي. فحواه أن أمي ماتت منذ زمن طويل تحت عجلات عربة خيول، في طريقها من "ياسنايا بوليانا" إلى "آستابوفو". كاتب الرسالة ذكر تفاصيل كثيرة جدًا عن الحصان الذي يُدعى "ليفي". ثم أخبرني بأنه تم دفنها تحت شجرة الكرز في محطة القطار هناك.

أخرجت الرسالة من حقيبتها، وقالت:

- اسمع ما كتب..

"أكسر غصنين ليّنين من شجرة الكرز المزهرة، وأضرب بهما وجهي لأنتشي من شذاهما. كل شيء يحمل رائحة "كاتيا" الحبيبة. الرب وحده يعلم كم صليت لأصبح شخصًا أفضل، وقد استجاب لصلواتي. أنا الآن إنسان جيد، والفضل كله لـ"كاتيا" الحبيبة. قبل وفاتها، أخبرتني عن جدتها "ماشا"، وعنك يا صغيرتي "بلوسوم". حينها فقط أدركت أنني حفيد "بوشكين". لقد كتب مرة يقول، واعذريني يا "بلوسوم" على العبارة، "اليوم نمت مع الرقم مئة!" والحقيقة أن جدتي "آسيا فوجيل فون فرايسيجنوف" هي التي تحمل رقم مئة، وهي أكثر من بكى على قبره. ذلك الصبي "ماتفيف" لم يحضر لي مذكرات "كاتيا" الحبيبة إلا الشهر الماضي. كانت قد أضاعتها في "ياسنايا بوليانا". كتبتُ هذا الخطاب حينها، لأرسله لك من "آستابوفو". تأكدي بأنها في حالة جيدة، رغم الذبول الكامل لشجرة الكرز التي تظلل قبرها. ماذا أيضًا؟

آه! لم تعد القطارات تمر من هنا، لكنني لا زلت "ديمتري نيهليودوف"، ولا زلت ناظر محطة قطارات "آستابوفو"".

كوّرت "بلوسوم" الخطاب بعد أن انتهت من قراءته، وقذفت به داخل حقيبتها الحمراء، ثم ألقتها في النهر. تلقت الأمواج الشنطة بين أحضانها، ورقصت بها قليلًا، ثم اختفت بها قريبًا من الجذور المتشابكة لأشجار الصفصاف الكثيرة.

ضحكت "بلوسوم" بصوت أقرب للبكاء، ثم أطلقت قهقهات مرتفعة. وصلنا في سيرنا عند منحنى النهر. استطعت سماع عجلات القطار وهي تسير برتابة على القضبان. التفتت "بلوسوم" نحوي فجأة وقالت:

- أنا أحبك جدًا، لقد أحببتك جدًا، لكن "ليلي"...

لم تكمل جملتها، وركضت. عدوت خلفها وأنا أختلس النظر إلى المحطة فوقنا وأفكر بأنه إن جاء القطار الآن، فلن يكون أمامي وقت كافٍ لركوبه. أردت أن أوقفها. قبل أن أفعل ذلك، التفتت تجاهي وقالت:

- هل تعلم أن عقابي هو انتقامي؟

فتحت ذراعيها لتحضنني، لكن فردة حذائها علقت في الجذور المتداخلة للأشجار المتجاورة، فانزلقت وسقطت بكامل جسدها في النهر.

حاولتْ أن تقبض بيدها أحد الأغصان المتدلية في الماء، لكن أصابعها لم تنجح في الإمساك به. بدأت التيارات القوية في هذا الجزء من النهر في شدّها للأسفل على الفور. أفلتّ حقيبتي وزحفت على الضفة محاولًا جذبها نحوي، لكن النهر كان أسرع مني. لف بها عدّة مرات، ثم قذف بها خلف الأشجار،

وعاد بها إلى قلب الدوّامة. حاولت أن أمرر لها غصنًا جافًا لتمسك به، لكن التيار كان قد حملها إلى الجانب الآخر. بعيدًا عنها، تهادت قبعتها على سطح الماء، وتقافزت قليلًا مع الأمواج.

تسمرتُ على شاطئ النهر، تمزقني الحيرة، هل ما يحدث الآن خيال أم واقع؟!

لكن صوت صفير القطار، جعلني أنتبه من شرودي، ودون تفكير أطبقت أصابعي على مقبض شنطتي، وركضت بها بسرعة هائلة نحو المحطة. ركضت طويلًا، ونجحت في نهاية الأمر في القفز على سلم العربة الأخيرة.

دخلت عربة خاوية، وأغلقت بابها على نفسي. أحطت رأسي بستارة النافذة ذات الرائحة الكريهة، وانخرطت في بكاء مرير. حين لمحت الورقة التي تحتوي على عنوان صديقها في أمريكا، ارتفع صوت نحيبي إذ أدركت أن ما حدث حقيقي. طاردني منظر قبعتها ولم يفارق خيالي. دار صوتها في رأسي، مرة بعد مرة: "عقابي هو انتقامي".

لأيام عديدة بعد ذلك، تصارع داخل رأسي صوتان فقط؛ عجلات القطار وهي تضرب القضبان الحديدية، وأمواج النهر وهي تتدافع خلف بعضها.

هل كان بإمكاني فعل شيء لمساعدتها؟ هل كان بإمكاني فعل المزيد من أجل "بلوسوم"؟

# 15

ولسنواتٍ طويلة، وحتى وأنا في "آيوا"، لم أستطع نسيان ذلك المنظر، وظلّ ملازمًا لي طوال الوقت؛ تلك القبعة وهي تتقافز على سطح النهر.

لم أسامح نفسي أبدًا على عدم القفز في النهر وراءها، وعدم محاولة إنقاذها. واقع الأمر أنني لا أعرف السباحة، لكن الماء لم يكن عميقًا، "كان بإمكاني أن أمسك بها وأسحبها إلى الضفة". "كان بإمكاني أن أتعلق بأحد الأغصان المتدلية في الماء". "كان بإمكاني أن أحافظ على حياتها".

ظلت هذه العبارات تتكرر في رأسي مرات كثيرة متتابعة يا "دورنتينا"، تلكزني وتوخزني من الداخل، وتشير بإصبعها نحوي؛ "المجرم!"، تركها تغرق خوفًا من أن يفوته القطار، وكأنه آخر قطار في الحياة! كان بإمكاني أن أؤجل امتحاني الذي كنت حريصًا على اللحاق به، بل كان بإمكاني أن أعيد السنة الدراسية بأكملها، يا "دورنتينا".

عزائي الوحيد هو أنني لم أرها وهي تموت. لم أسمع شيئًا عن موتها، ولم أقرأ خبرًا يؤكد وفاتها. ربما لم تمت أصلًا، ربما استطاعت أن تنقذ نفسها، وأن تسبح سالمَة إلى الجهة الأخرى، بجوار الجسر مثلًا حيث تهدأ أمواج النهر ويصبح ماؤه ساكنًا، أليس كذلك؟ الماء هنا يصل بالكاد للركبتين كما تعرفين.

لعل الأمر برمّته أحد أسرارها الكثيرة، أو معجزاتها العجيبة. وحتى يأتيني الخبر اليقين، فإنها ستظل على قيد الحياة بالنسبة لي.

أراحتني هذه النتيجة بعض الشيء.

كنت أفكر بها وأنا أسير مع البروفيسور "ستيف ليبتوف" في ممرات الكلية في "آيوا". أردت أن أطلب منه العنوان الجديد لصديق "بلوسوم" القديم "فيبليب بلاكسميث"، لكن قبل أن أفعل ذلك بادرني بالقول:

- هناك أشياء عديدة بحاجة إلى توضيح في قصتك. إنها غير مفهومة. الحدث الدرامي فيها تمّ وانتهى، والشخصيات موجودة في الزمن الماضي؛ بما أنهم جزء من الماضي وأنت تسرد التفاصيل بعد أن ذكرت الحدث، عليك إذن أن تتعامل معهم على مستويين اثنين، وأن تحبهم جميعًا وتتعاطف معهم بنفس المقدار.

أومأت برأسي صامتًا. الحديقة التي تتوسط المكان خاوية اليوم حتى من العصافير وزقزقتها. لا بدّ أن زملائي منهمكون الآن في كتابة الفقرات الأخيرة في قصصهم، وفق الأسلوب الذي علّمنا إياه الأستاذ. أنا وحدي يا "دورنتينا" الذي لم أكتب السطور الختامية في عملي، لأنني لم أعرف كيف أنهي قصتي، ولذلك طلبت استشارته.

بعد لحظات صمت، قال وهو يرمقني بنظرات جانبية:

- إذا لم تعرف كيف تواصل السرد بسلاسة، أضف للأحداث بعض المطر، أو منظرًا للغروب. هذا يسهّل الأمور دائمًا. القليل فقط من الروايات يخلو من هطول المطر.

هبّت عليّ رائحة الكولونيا التي أسرف في وضعها كما يبدو. واصل نصائحه:

- يجب أن تكون كتابتك خالية من العيوب، وموضوعية في الوقت نفسه.

توقف أمام البحيرة المحفورة على شكل قلب، وراح يعبث بالحلية المعدنية في حزامه. ظللت صامتًا ونحن نسير حول البحيرة، وأنا أتابع بعينيّ طيور النورس وهي تحلّق في السماء، والبط وهو يسبح في الماء. جلسنا على مقعد خشبي عريض تظلله أشجار كبيرة. تنهدنا، في نفس اللحظة، وكأننا نبدي إعجابنا المشترك بالطبيعة؛ الماء والخضرة والطيور والغروب وحفيف الشجر. تخيلي كل ذلك في مكان واحد ولحظة واحدة يا "دورنتينا"، جمالٌ خالص!

كنت قد جلست على المقعد ذاته مع "آنا كوميتزكا" في اليوم السابق. وتنهدت هي أيضًا بالطريقة ذاتها، وقالت أنها تشعر بأن هذا الجمال الخلّاب يخترقها من الداخل. إنها شاعرة تكتب قصائد نثرية، وتحب بصمت زميلي في الغرفة "خورخيه خوليو جابرييل إيبرتي".

الآن، على نفس هذا المقعد، نجلس أنا وأستاذي، ومعنا "بلوسوم" أيضًا، لأنني دائم التفكير بها ولا تفارقني لحظة. مدّ ذراعه وأراحه على ظهر المقعد. لو لمحنا شخص من بعيد، لظن أننا حبيبان. كنت قد عقدت العزم، قبل أن آتي معه إلى هنا، أن ألكمه على فمه إذا تجرّأ ولمسني. ولحسن الحظ، جلس هذه المرة باحترام ووقار، يتأمل البحيرة بهدوء.

تحت هذه الظروف والصورة العادية التي نقلتها لك يا "دورنتينا"، ما كان سيخطر ببالي أبدًا أن يحدث ما سيحصل لاحقًا.

سكتنا لبعض الوقت، ورحنا نراقب طيور النورس وهي تندفع من السماء إلى سطح البحيرة، وتقترب من البط السابح في الماء، في مناورات مستمرة للحصول على الطعام.

خطرت على بالي حينها عبارة "تولستوي" المتعلقة بالسيمترية، وتساءلت في نفسي، إذا كانت الحياة تسير في دائرة، وإذا كانت الروح تتحرك نحو الأبدية من خط يبدأ من نقطة في جانب الدائرة، فلماذا لا يوجد خط ثانٍ يقطع الجانب الآخر من الدائرة؟ أعني لماذا توجد الأبدية في جانب واحد فقط؟ نحن موجودون من قبل هذه الحياة، على الأغلب، لكننا فقدنا الذاكرة المتعلقة بتلك الفترة.

هجمت بعض النوارس على البط، لكنها سرعان ما اضطرت للطيران ثانية بمناقير خاوية، لا أسماك فيها. سبح البط في دوائر كاملة، بهدوء.

نطق البروفيسور أخيرًا، قائلًا:

- عليك أن تتعلم كيف تكتب بصدق. وقبل ذلك، عليك أن تتعلم كيف تضع يدك على الفكرة، كيف تصطادها، افعل ذلك بصبر، كأنك تمسك بفراشة قبل طيرانها بعيدًا.

ألقى بذراعه في الهواء، وحرّك أصابعه في الهواء، وقال:

- هكذا! بمهارة ومتعة.

أضاف:

- بعد أن تفعل ذلك، يمكنك أن تبدأ في التفكير فيما ينبغي عليك فعله بهذه الفكرة. اختر الموضوع، والصوت الذي ستسرد به الأحداث، قبل الشروع في الكتابة.

وضع ساقًا فوق الأخرى، بحرص بالغ، حتى لا يفسد الخط المستقيم الذي يتوسط رجليّ البنطلون المكوي بعناية فائقة، واستطرد:

- ودائمًا أبدًا، تذكّر أن المؤلف ليس فقط الشخص الذي يكتب، الأهم أن يكون الشخص الذي يحرص الناس على قراءة أعماله. حتى تشعر بوجودك، يجب أن يقرأ الناس مؤلفاتك. في هذه الدقيقة، بل في هذه الثانية، يا عزيزي "مستر كوكو"، هناك مليون شخص حول العالم يكتبون بحماس شديد، أغلبهم رجال يشعرون بالكبت، ويحلمون بأن تحبهم جميع نساء الكوكب. لكن الحقيقة المؤسفة هي أن عشرة منهم فقط، أو حتى مئة على أقصى تقدير، هم الذين سيُقبِل القرّاء على اقتناء كتبهم. الباقون يكتبون دون جدوى. دعني أصارحك بشيء، أنا مثلًا لا أعرف أي كاتب من بلدك.

قال الجملة الأخيرة باستمتاع وسعادة يا "دورنتينا". لعله أراد تذكيري بما حدث داخل قاعة المحاضرات منذ فترة، حين لم يعرف أحد من الموجودين بلدي. وحده "آميجو إيبرتي" الذي عرفها على الفور، لأن جدّته "أورسولا براجارت إيبرتي" كانت قد قصّت عليه في صغره حكاية من مقدونيا.

قال بعد برهة:

- الكاتب الحقيقي هو الإنسان الذي يقرأ له في هذه اللحظة شخص في نصف الكرة الجنوبي، وآخر في النصف الشمالي. هذا يعني أنه إذا لم تكن شخصياتك تشبه قارئك، فأنت لست بكاتب من الأساس. أعود فأقول إن الكاتب ليس الذي يكتب فقط، بل الذي يقرأ الناس مؤلفاته. خلاصة القول، لا تكتب قصصًا لا يفهمها سوى من يعرفك فقط.

أضاف محذرًا:

- والأهم، عليك أن تتذكر دائمًا بأن الجوائز لا تصنع مبدعين. عشرات الكتّاب الذين حصلوا على جوائز، بما في ذلك جائزة نوبل، لا يتذكرهم أحد. وحتى "تولستوي"، أو الكونت كما تحبّ أن تطلق عليه، توفي عام 1910 دون أن يحصل على "نوبل" رغم أنها كانت قد بدأت قبل رحيله بعشرة سنوات تقريبًا، من الذي نتذكره الآن من هؤلاء الذين حصلوا عليها في تلك الفترة؟ لا أحد سوى روديارد كيبلينج.

استرسل قائلًا:

- عظماء كثيرون لم يحصلوا على "نوبل"؛ مارسيل بروست على سبيل المثال، وفرانز كافكا، وجوزيف كونراد، وجيمس جويس. هل قلل ذلك من شأن أي منهم؟

كان يتكلم وهو يفرك يديه ببعضهما، كأنه يغسلهما بصابونة، ثم أضاف مبتسمًا:

- ما أودّ قوله هو أن أكبر الجوائز وأعظمها لا تعني شيئًا؛ ولا داعي طبعًا لذكر الجوائز المشبوهة التي يمنحها الأصدقاء لبعضهم البعض، في الأماكن التي لم يسمع بها أحد، يا عزيزي "مستر كوكو".

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- صدقني حين أقول إنني لا أعرف شيئًا عن أعظم وأشهر كاتب لديكم في بلدكم. وطالما إنني لا أعرفه، فهذا يعني أنه غير موجود.

مرّ بأصابعه على الثنية الحادّة لبنطلونه. أعتقد أن أكثر ما يخشاه ويضايقه هو ألا تكون ثيابه مكوية كما يجب، وهو ما دفعنا، نحن طلبته، لكيّ بنطلوناتنا الجينز باهتمام.

كنت أرغب في أن أقول شيئًا في تلك اللحظة. شيء له علاقة بالسيمترية مثلًا، أو البط أو النورس الذي يذكرني بجوناثان ليفينجستون، أو أن أذكر "بلوسوم" أو "فيليب بلاكسميث"، لكن بدا واضحًا أنه لم يكن يرغب في الحديث، حتى إنني حين فتحت فمي لأتكلم، ربّت على كتفي ليسكتني.

قال بعد فترة:

- حين تنتهي ورشة الكتابة هذه، ستسافر يا "مستر كوكو" أنت وبقية زملائك عائدين إلى بلادكم، وكلكم ستنسونني، كإنسان وكمؤلف أيضًا. ولكن لأن الكاتب شخص مغرور بطبعه، فإنني في سبيل أن تتذكروني طوال حياتكم، أتعمد جرح كرامتكم، وأنا في الأساس أستمتع باستفزاز من حولي.

أضاف:

- لكي تحب معلّمك، عليك أن تكرهه أولًا. بطبيعة الحال، لا أمتلك الوقت الكافي لأشرح لكل واحد منكم نقاط الضعف والقوة في عمله؛ لكنني تحدثت مع "دون إيبرتي"، و"فاتوس ديدلي" صاحب حكاية "دورنتينا"، و"ميسيجو تانجا" من "تاكاساكي"، وبالأمس ولفترة قصيرة جدًا مع الآنسة "آنا كوميتزكا"، وهأنا أتحدث معك الآن. أريد أن أخبرك عدة أشياء؛ أولًا، تخلص من كل ما يثير الشفقة. ثانيًا، بعد أن تنتهي من كتابة كل فقرة، أزِل تسعًا من الجُمَل التي تلي العبارة الأولى. تذكر، تسعة. يمكنك الاحتفاظ بهذه الجمل

واستخدامها في موقع آخر، فيما بعد. وقلل قدر الإمكان من استخدام حروف العطف، والأفعال المساعدة. وجودها يبعث الملل في نفس القارئ العادي، ولا يقدّرها إلا القارئ المحترف. حين يكثر المؤلف من استعمالها، فتأكد من أنه شخص يفتقر للموهبة. أمَّا ثالثًا، فهو اختيار الموضوع. الموضوعات العظيمة تنتج لك روايات عظيمة. كما قلت لك منذ قليل، انتقِ الموضوع جيدًا، ثم أمسكه برفق وحذر، كما لو كان فراشة بين يديك. لا تطارده كما لو كان كلبًا ضالًا. وأخيرًا، ابحث عن الصوت المناسب لتسرد من خلاله القصة.

أنهى "ستيف ليبتوف" نصائحه، وبدأ يتحسس جانب المقعد العريض بأصابع مرتجفة. تزايدت الرجفة وانتقلت للمقعد بأكمله، فأخذ يهتز اهتزازات خفيفة. راقب طيور النورس لبعض الوقت، ثم قال:

- لا تكتب إن لم تكن مضطرًا لذلك. أنت تكتب لأن عليك فعل ذلك، لا لأنك ترغب في ذلك. تذكر جيدًا أن الكتابة اعتمادًا على خيالك وتفكيرك وذكرياتك وأحلامك ومصائر معارفك، أمرٌ انتهى منذ أكثر من مئة عام مثلًا! عليك أن تضع غطاءً خياليًا على أكثر الأمور واقعية، وتضيف جانبًا واقعيًا للأشياء الخيالية، إلى أن يفشل القارئ في تمييز الحقائق من الأكاذيب. حتى الشاعر الإيطالي العظيم "دانتي" في "الكوميديا الإلهية"، اقتبس أجزاءً عدّة من أفلاطون وسيسيرون وفيرجيل وتوما الأكويني، ولم يقلل ذلك من شأنه ولا من أهمية كتابه.

أضاف:

- في الواقع، فإن الحقيقة هي ما تكتبه أنت بشكل جيد. لهذا لم يجرؤ أحد على اتهام صديقك الكونت بالسطو، رغم جميع السطور التي استعارها من

مؤلفات المؤرخ العسكري "ميخايلوفسكي دانيلفيسكي"، ولماذا يفعلون؟ لقد ظهرت لديه في صورة مختلفة تمامًا عمّا كانت عليه في الأصل. لا شيء يبقى على حاله بعد أن يضيف "تولستوي" لمساته الخاصة.

أحكمتُ أصابعي حول الملف الذي يحوي الفصل الخاصّ بجدّي "نيك نيكلز"، والذي انتهيت من كتابته في الليلة السابقة. كان في نيتي أن أقرأه عليه، لكنني غيرت رأيي عقب ما سمعته منه، لأنني شعرت بأن ما كتبته لا قيمة له. رحت أفكر في إعادة صياغة الفصل بأكمله، ليتناسب مع الرجل الذي أحببته حبًّا لا يوصف، أبرع رجل تفنن في البناء بالحجارة.

جلسنا صامتَين، ننظر إلى البحيرة ونتابع ورقة شجرة كبيرة، وهي تتهادى على مائها.

ولأن عينه اليمنى، التي بها ارتخاء ملحوظ في الجفن العلوي، تعاني من ضعف شديد في الإبصار، فقد اضطر إلى أن يدير رأسه بأكمله نحوي، بعد أن تنحنح قليلًا، ليقول:

- أنا و"فيليب بلاكسميث" نقيم حفلات خاصة جدًا كل شهر، لا يحضرها إلا الصفوة، ناشرون ومحررون ومخرجون وممثلون ورجال أعمال وماسونيون ومؤلفون وشخصيات يهودية، تعالَ إن رغبت في حضورها.

بدأ يتأهب للقيام، ثم جلس ثانيَة وقال:

- سامحني إن كنتُ قد أسأت إليك أو جرحتك.

وبسرعة خاطفة، مال نحوي وقبّلني على جانب شفتيّ.

وقف أمامي بعدها ناظرًا إلى طيور النورس. أردت أن أمسك به من شعره، وأدفعه في الماء وسط البط والأوز. لكنني لم أفعل، وظللت في مكاني. جلس بجواري وهو يعيد ترتيب ملابسه، ثم سألني:

- كيف تنوي استكمال عملك؟

- سأركّز في هذا الفصل على الأحجار.

- أي نوع من الأحجار؟

فتحت الملف، وأخرجت منه الفصل الخاص بجدّي، والذي طبعته بحروف صغيرة، وقلت:

- لكل حجر جانب سري لا نعرف عنه شيئًا، ولكن حين نلمسه...

قال باهتمام صادق، وهو يمد ذراعه على ظهر المقعد خلف رأسي:

- موضوع ممتاز، أكمل.

# 16

وبدأت أقرأ قصتي عليه.

"عقابي هو انتقامي"، صوت "بلوسوم" يتردد داخل رأسي طوال الوقت، وقبعتها المتراقصة على سطح الماء لا تفارق عينيّ. استمر الوضع على هذا النحو لأيام عديدة. حاولت أن أريح ضميري بتذكير نفسي بأنني لم أسمع أو أقرأ خبرًا يؤكد وفاتها، أو العثور على جثتها. قلت لنفسي أيضًا بأن جدّي "نيك نيكلز" كان يظن بدوره أن "ليتر" متوفاة، إلى أن ظهرت بشكل غير متوقع.

أتذكر الأمر كما لو كان بالأمس. كان يجلس على الأرض يقلّب أحجارًا أمامه لينتقي منها ما يناسب الحائط الذي يبنيه. وقفت سيدة تحت شجرة الكمثرى وهي تراقبه باهتمام، والدموع تسيل على وجهها المتغضن. لم ينتبه جدي لوجودها، وواصل عمله. عمّ الصمت والسكون المكان بأكمله. اعتاد جدي، الذي يعاني من تأتأة واضحة، تجنّب الأحاديث الطويلة، والإكتفاء بكلمات قليلة. في حوارنا معًا، أعتمدُ وإيّاه على أمور أخرى غير الكلمات، مثل التصفيق وتحريك الحواجب.

رغم أنه بنّاء محترف، ورث المهنة عن أسلافه، إلا أنه لم يبنِ في حياته أي كاتدرائيات أو كنائس قط. انحصر عمله في بناء المخابز والأفران، والأسوار والجدران الحجرية. كان يجيد الترميم والإصلاح والتعلية، وتفنن في الحوائط

خاصة، كذلك الذي بناه في مدرستي حتى يغطي العبارات والألقاب التي كتبتها على الجدران وفشلت في طمسها.

كل ما يصنعه أو يبنيه بيديه، يتميز بجمال أخّاذ.

اعتاد أن يمسك حجرًا بين يديه ويقول لي:

- الجانب السرّي يا صغيري، يمكن التعرّف عليه باللمس فقط. إنه شيء لا يمكن أبدًا أن تراه بعينيك. الأمر لا يتعلق بالحجر وحده، وإنما كل شيء في هذا العالم جانبه السرّي. إذا أجدتَ فعل ذلك، فأنت تعرف الكثير عن الحياة، أكثر مما يجب ربما.

حين يتكلم جدّي عن العمل والحياة، ينسى تمامًا أنه مصاب بالتأتأة، ولا يتلعثم أبدًا، بل تنساب الكلمات من فمه بسهولة ويسر.

يربّت بيديه اللذين تتقاطع عليهما العروق الزرقاء، على الأحجار المختلفة، ليقرر أي منها يصلح للغرض الذي يعمل عليه، ويقول:

- الكلمة حجر. لكل كلمة جانبها السرّي الخاصّ بها.

يضيف بأسى:

- كلمتي السرّية هي "ليتر". لم أرها منذ ما يزيد على الستين عامًا".

قاطعني البروفيسور:

- توقف عن هذه الفلسفة، وأخبرني من تكون "ليتر" هذه.

تنفست بعمق وبطء، حتى أمنع نفسي من صبّ اللعنات عليه، لمقاطعتي بتلك الطريقة الفجّة يا "دورنتينا". واصلت القراءة.

"جدّي يبني وأنا أتابعه. كنا متفاهمين جدًا، لدرجة عدم احتياجنا لتبادل الأحاديث. ذلك النهار، كنت أراقبه وهو يضع حجرًا بجوار الآخر، وأتابع الطريقة التي يحرّك بها رأسه ليراه من مختلف الزوايا، فلم أنتبه للسيدة العجوز التي وقفت تحت شجرة الكمثرى. حين لمحتها، لفتت أناقتها نظري. قبعة صيفية رمادية اللون، وقفازين من الدانتيل الأبيض، وحقيبة يد رفيعة يزيّنها "بروش" جميل. كنت على وشك الذهاب إليها لأخبرها بأن مدخل الكنيسة يقع في الجهة الأخرى، حين لمحتُ السيدة "وولفي"، مدرّستي السابقة للغة الفرنسية، والتي كانت بمثابة الصديقة الوحيدة لـ"بلوسوم".

ظهرت فجأة من حيث لا أدري.

ما الذي تفعله هنا؟ أعرف جيدًا أنها شيوعية.

قالت شيئًا ما للسيدة الأنيقة، ولم أفهم كلمة واحدة. كانت قد درّستني اللغة الفرنسية لسنتين كاملتين، وكنت أمضي معظم الوقت في مراقبة فمها، محاولًا تعلّم كيفية نطق كل تلك الكلمات الصعبة التي تنبعث من شفتيها بيُسر ودون عناء على الإطلاق. حين كانت تطلب مني بعدها ترديد عباراتها، أظل صامتًا وأنا أتأمل الصورة المعلّقة على جدار الفصل. تكرر طلبها بإلحاح، أكثر من مرة، فأقول أخيرًا:

- سبق لي فعل ذلك.

- متى؟

- الآن، في سرّي!

يضحك زملائي، وتشاركهم الضحك في استسلام. ما الذي يمكنها فعله مع طالب أحمق مثلي؟

حسنًا، تلك مجرد ذكريات يا "دورنتينا"، أمَّا في القصّة فها هي تقف أمامي. تتذكرني، ولا شك، رغم أني تخرجت في المدرسة الثانوية منذ سنتين، والتحقت بالجامعة لدراسة الأدب المقارن. تذكرتُ كل الحماقات والسخافات التي كنت أقوم بها في المدرسة، فأحسست بحرج بالغ، وبدأت أتسحّب لأهرب من المكان بأكمله.

لكنها رأتني، واقتربت مني بخطوات سريعة وهي تنادي اسمي. قالت بأن السيدة العجوز ترغب في محادثة الرجل المسن الذي يبني الجدار، وأنها تودّ سؤاله عن أمر يتعلق بالكنيسة.

أضافت بابتسامة لطيفة، وبصوت هادىء، كما ينبغي لامرأة فرنسية حقيقية:

- إنها ليست من هنا، وتخجل من مناداته بصوت مرتفع.

نظرتُ إلى السيدة العجوز، أقيّمها. قصيرة القامة، لها أذنان صغيرتان، تسندان جوانب القبعة بالكاد. أومأتُ برأسي عدّة مرات، كدمى الكلاب البلاستيكية التي يضعها الناس في الزجاج الخلفي لسياراتهم.

كان جدّي قد انتهى من بناء الصف الأول من الحائط، وبدأ في اختيار حجارة الصف الثاني. أمسك حجرًا وراح يمسح عليه براحة كفه، كما لو كان

حمامة وديعة. في أحيان نادرة، يفشل جدّي في العثور على الجانب السرّي، وعندها يقذف بالحجر بعيدًا ويعلن بأنه لا يصلح، وأن استخدامه الوحيد هو بناء الأضرحة فقط.

دنوت منه، وأخبرته بأن هناك سيدة تقف في الجانب الآخر تودّ رؤيته. رفع جدّي حاجبه الأيمن في حيرة. لم تبدِ أي امرأة رغبتها في محادثته من قبل. مسح يديه في قميصه وسار معي.

حين وصلنا شجرة الكمثرى، كانت "وولفي" تقف خلف العجوز وتختلس النظر إلى يديّ جدّي الذي وقف حائرًا، دون أن ينطق، منتظرًا أن تبدأ إحداهما بالكلام. أزالت السيدة القفازين، ومدّت نحوه يدًا شاحبة، صغيرة الحجم.

نظر لي جدّي رافعًا حاجبه الأيسر، كأنه يخشى أن يمسك بيده الضخمة القوية هذه اليد الشبيهة بقطعة كعك هشة. في نهاية الأمر، مدّ نحوها إصبعين إثنين فقط. تناولت إصبعيه بين يديها وقالت شيئًا بالفرنسية وهي تمعن النظر في عينيه. لم أفهم ما قالت، رغم معرفتي بعدد لا بأس به من كلمات تلك اللغة، ولحسن الحظ تدخلت "وولفي" وتولّت الشرح والترجمة، قالت:

- جاءت تبلغك تحيات شقيقتك "ليتر"، التي تقيم الآن في "روا" في منطقة "بوربون" بوسط فرنسا. لديها ثلاثة أبناء وخمسة أحفاد. كان زوجها عامل منجم، وتوفي في الشتاء الماضي. تقول بأن اسم العائلة هو "ترايكوفيتش"، رغم أنه يفترض أن يكون "ترايكوف" أو "ترايكوفسكي". لكنهم لم يحملوا معهم الوثائق الخاصة بهم حين فرّوا من "لوكوف". تقول بأن جميع السكّان هناك

مسيحيون، وأنهم قاموا بحماية أراضيهم، لكن قبل نحو ستين عامًا، اضطرت نصف القرية إلى الفرار منها، فيما تم إبادة النصف الآخر في المذابح التي حدثت.

ظلّ جدّي يحرّك حاجبيه ويومىء برأسه، ولأول مرة لم أفهم ما يودّ قوله بالضبط، لكنني ترجمت لهما القدر الضئيل الذي خمّنته.

- إنه يشكركِ على هذه الأخبار الطيبة. لم يلتقِ أخته الوحيدة "ليتر" منذ ذلك الوقت. إنه سعيد لأنها أرسلت من يخبره أنها على قيد الحياة، وهو يشعر بالدهشة لأنها لم تنسه حتى الآن.

ترجمت المعلمة ما قلت، ونقلته لها بالفرنسية. ظلت السيدة تحرّك رأسها، وهي تنظر إلى وجه جدّي الذي تغطيه التجاعيد. كانت لا تزال تقبض على إصبعيه بيديها الصغيرتين. أشعَرَه هذا بشيء من الإرتباك، فتوسل لي بحاجبيه أن أطلب منهما الجلوس ومواصلة الحديث. يداه معتادتان على ملمس الحجر فقط، ولهذا فإنه لم يكن يصافح الناس إلا في مناسبات قليلة جدًّا. أخيرًا، تركت أصابعه، فأشار لها بالجلوس على الأريكة الخشبية الموجودة تحت شجرة الكمثرى. سارا معًا وسبقانا ببضع خطوات. فتحت المرأة حقيبة يدها ذات الـ"بروش" الأنيق، وأخرجت منها صورة فوتوغرافية مهترئة الأطراف، وناولتها لجدّي. أمسكها وتحسسها بأطراف أصابعه ثم تهاوى على المقعد. جلست المعلمة بجوار السيدة العجوز، وبقيت أنا واقفًا، متكئًا على جذع الشجرة. فهمت من ترجمة "وولفي" أن الحديث يدور حول الذكريات. قالت شيئًا عن القطارات، أن أحد القطارين كان متجهًا إلى الميناء، والآخر إلى مكان ما في الشمال. تحدثت عن الحرب وعن أشخاص قاموا بإحراق القرية، وعن خيول حمراء، وعن حمامات الدم، وعن السيقان الصغيرة وهي تركض مذعورة داخل

حقول ملأى بالأشواك، وعن تلك السيقان وهي تنتفخ من فرط الإجهاد والألم؛ وعن أم وأب تمّ شنقهما على بوابة البيت، اسمهما "ماريا" و"نجريا".

سكتت العجوز أخيرًا. نظر لي جدّي طويلًا رافعًا حاجبه الأيسر. جلستُ بجواره، لأنني فهمت أنه يشعر باضطراب بالغ، لدرجة أنه يعجز عن الكلام تمامًا.

أرادني أن أسأل بالنيابة عنه، عددًا من الأسئلة، "أين "ليتر" الآن؟"، "هل يمكنها السير؟"، "هل هي على قيد الحياة فعلًا؟"، "هل بإمكانها أن تأتي إلى هنا ليراها؟"،أضاف بأنه يرغب في مقابلتها الآن، وهما على قيد الحياة، وليس بعد يغادرا هذه الدنيا، فحينها قد لا يتعرف أحدهما على الآخر. قال بأن زوجته، جدّتي "دورا"، ماتت وهي تلد ابنتهما الثانية؛ خالتي "فلورا"، وأنه أمضى معظم سنوات حياته وحيدًا، لا تؤنس وحدته سوى حجارته، ثم حفيده – الذي هو أنا – في السنوات الأخيرة. ذكر لهم نبذة عن المأساة التي تعرّض لها أبواي ونجم عنها وفاة ابنته الكبرى. انحدرت دمعة وحيدة من عينه، وغابت وسط تجاعيده العميقة.

ترجمت المعلمة ما قالته السيدة، مخاطبَة جدّي:

– هل ستعرف "ليتر" إن رأيتها؟

قال بأنه يتذكر شعرها الأشقر، ويتذكر حين كانا – مع جميع الأطفال – ينتظران عودة السنونو في شهر مارس من كل عام، وهم يضعون الخيوط الحمراء والبيضاء حول أيديهم للترحيب بالطيور. قال بأنهما افترقا ذلك الربيع. تذكر قبقابها الخشبي، وتذكر نفسه وهو يقف بجوارها حاملًا باقة من زهور الربيع الصفراء. ثم قال بأنه لا زال يتذكر تلك النظرة في عينيها وهي

تركب القطار المتجه إلى الميناء، ولن ينسى ذراعها وهي تلوّح له من نافذة القطار وهو يبتعد بها وسط غيمة كثيفة من البخار.

حين انتهى، رفع نحوي عينين حزينتين. قلت له بأن هذا يكفي جدًا.

همست السيدة بشيء لم أتبينه مطلقًا، في أذن المعلمة.

كان جدّي منشغلًا بالنظر إلى تفاصيل الصورة الفوتوغرافية، والتي تضم طفلة بثياب مطرزة، وصبيًا يحمل باقة ورد.

وقفت "وولفي" أخيرًا وأعلنت بصوت متهدج بأن هذه السيدة هي "ليتر"، الشقيقة الغائبة منذ سنوات بعيدة.

ظلّ جدّي ينظر إليّ بوجه جمّدته الصدمة، ثم قام ببطء شديد، مستندًا بيديه على ركبتيه. أحسست في تلك اللحظة، ولأول مرة، بأن العمر قد تقدّم به جدًا. قامت "ليتر" وراءه، وسقطت حقيبتها وقفازيها على الأرض، دون أن تنتبه".

واصلتُ القراءة..

"رغم أن الأمر مبتذل بعض الشيء، إلا أنه لا يسعني إلا أن أذكر بأنهما احتضنا بعضهما لوقت طويل جدًا.

في عينيّ جدّي، رأيته وهو طفل صغير في "لوكوف"، يقف أمام البوابة الحجرية التي شُنقت عليها "ماريا" و"نجريا". صبيٌ صغير يمسك بيد أخته وقد تملّكهما رعبٌ لا يوصف.

شاهدتُ في عينيه يد "ليتر" الضئيلة، وهي تلوح له من القطار الموشك على الإختفاء في ضباب البخار الكثيف.

تأكدت في تلك اللحظة بأن المعجزات تحدث حين نؤمن بها.

تيقنت من أمر آخر تمامًا، "وولفي" تعرف ما بيني و"بلوسوم". نظراتها الجانبية المطوّلة، وابتساماتها ذات المغزى صرّحت بذلك يا "دورنتينا".

بقيت "ليتر" معنا لثلاثة أيام.

ثلاثة أيام من التفاهم الصامت بينهما. في بعض الأحيان، يذكّر أحدهما الآخر بعبارة منسية، فتعلو ضحكاتهما.

راقبتهما واكتشفت بأن الذكريات وحدها كفيلة بإضفاء بهجة كبيرة على الحياة، وأن الذكريات يمكن أن تكون بديلًا للحب.

أحضرت السيدة معها شوكة وملعقة، معتقدَة بأننا لا زلنا لا نملك هذه الأشياء هنا. حملت معها أيضًا ملّاحة، لأنها حين رحلت لم يكن الملح متوفرًا.

كانا سعيدين حقًا، وبكيا معًا طويلًا.

عقب الأيام الثلاثة، رافقناها إلى محطة القطار التي سافرت منها منذ ستين سنة. بعد أن غاب القطار، دون البخار الكثيف هذه المرة، أصرّ جدّي على ألّا نغادر المحطة على الفور. بقينا طويلًا وهو ينظر بشرود إلى القضبان الحديدية، وكأنه يراقب حياته بأكملها وهي تمضي أمام ناظريه.

رأيتُ في عينيه أن الأعوام تتابعت عليه دون أن تغيّر شيئًا فيه.

استعاد جدّي ذكريات كان يظن أنه نسيها. أخبرني عن ذلك الرجل في قريتهم الذي تحوّل إلى طائر لقلق، ثم لم يتمكن من العودة إلى هيئته البشرية. تذكَّر كيف كان بعض القرويين يحاولون الإمساك بالضباب، معتقدين أنه صوف أبيض. استعاد أيضًا الإشاعة التي أطلقها أحدهم عن الحمير التي تطير في السماء، والتي أكّد أنه رآها بعينيه.

في خضَّم ذكرياته، تذكر جدّي قن الدجاج الذي اختبأ فيه مع أخته، وكيف عثر عليهما أشخاص طيبون حاولوا مساعدتهما. وأخبرني أنه قبيل مغادرته للقرية، أزال حجرًا من البوابة التي شُنِق عليها أبواه، ولا زال يحتفظ به. أخرجه لي من تحت السرير، ومسح عليه بأصابعه برفق، قائلًا بأنه هو الذي يحمينا من العيون الحاسدة، ومن الكوابيس المزعجة.

في الربيع التالي، توفيت "ليتر" ودُفنت في المقبرة الكاثوليكية في "روا" بفرنسا. وصلنا تلغراف يخبرنا بتفاصيل الأمر، تولت "وولفي" ترجمته لجدّي.

تحدثت المرأة العجوز في أيامها الأخيرة بلغة لم يفهمها أحد، وأصرت على ربط خيوط من اللونين الأحمر والأبيض حول يدها اليمنى، وبقيت في حديقة المنزل في انتظار السنونو. حين لاح أول طائر، أسندت ظهرها على المقعد وغابت في حلم طويل. اتجهت إلى فراشها بعد ذلك ببضعة أيام، واستلقت عليه، وفارقت الحياة.

هكذا وصف التلغراف وفاتها.

لكن جدّي لم يكن قد عوّض الستين سنة الضائعة من عمر علاقتهما، ولذلك ظل يتحدّث عنها كما لو كانت لا تزال قيد الحياة.

في أحد أيام الجمعة، قبل وفاته ببضعة أسابيع، قال شيئًا سأتذكره مدى الحياة:

- ما رأيك يا بنيّ، هل سأموت داخل تلك السنوات الستين التي لم أمتلكها، أم داخل الأيام الثلاثة التي امتلكت كل لحظة فيها؟

لم أعرف الإجابة. وقفت أمامه حائرًا.

ابتسم وأخرج الحجر الرمادي من مكانه تحت السرير، وقال:

- حين نزعته من بوابة بيتنا، أدركت أن لكل حجر جانب سرّي لا يمكن رؤيته بالعين المجرّدة. ولكن ماهو الجانب السرّي للحياة يا عزيزي؟

وللمرة الثانية، أعجز عن الإجابة.

جلس جدّي على فراشه، واضعًا يديه على ركبتيه، وقال:

- ليس الموت، ولا الروح، ولا الصوت.

أضاف بعد برهة:

- الجانب السري للحياة هو آخر ذكرى تلازمك قبيل وفاتك مباشرة.

أنهى كلامه، وأخذ يتمعن في الكرسي الخشبي المصنوع من شجر البرقوق.

في الأسبوع التالي بحثت عن الحجر تحت السرير ولم أجده. عثرتُ عليه بعد ذلك في المقبرة. كان قد وضعه بين قبريّ أمي وأخي "أينجل"، وثبّت عليه عدد من الشموع. قال بفصاحة غير معهودة، ودون لعثمة:

- نحن نعيش في الأحلام الأخيرة للموتى، وهم يعيشون داخل ذكرياتنا المتقلّبة".

جاءني صوت البروفيسور "ستيف ليبتوف" محمّلًا بقدر غير قليل من الفتور:

– حسنًا، لكن الذكريات ليست فنًا. الرواية جنس أدبي، وتدوين الذكريات ينتج مذكرات وليس رواية. هناك فرق بين الإثنين. عليك أن تختار الإطار الذي تكتب فيه.

قام واقفًا واستعدّ للمغادرة. قلت:

– أنا أتحدث عن الحياة.

– حسنًا، وما الهدف من ذلك؟

– الهدف هو أن أتحدث عن أمي في الفصل التالي.

ربما كان عليّ أن أوسعه ضربًا حين حاول تقبيلي، لكن كل ما استطعت التفكير فيه حينها كان أمي، وأنني لا أستطيع تغيير أي شيء.

# 17

بالرغم من كل ما حدث أمام البحيرة، فإني قمت بكتابة جميع النصائح التي زوّدني بها البروفيسور "ستيف ليبتوف" وعلقتها أمامي في غرفتي بسكن الطلبة. اخترتُ عنوانًا للقصة، رغم جهلي بكيفية سير أحداثها القادمة. الأمر الذي أعرفه تمام المعرفة هو أن كل حقيقة واقعية يقابلها اثنتان خياليتان، والعكس صحيح. كنت أكتب بسرعة ودون وعي، حتى أنني لم أعد أميّز الواقع من الخيال، والحقائق من الأكاذيب. الشيء الوحيد الذي اهتممت به هو أن تكون الكتابة جيدة، وقد كانت كذلك بالفعل.

نزلنا من القطار أخضر اللون، أنا وهي. رافقتنا الشمس. سارت وراءنا، كما لو كنا نسحبها خلفنا مثل طائرة ورقية. سرنا على طريق ترابي، لمعت ذرّاته تحت الشمس الساطعة. قالت:

- لا تتنفس بفم مفتوح. سيلتهب لسانك، وستحترق من الداخل.

شعرت بالرعب، فأغلقت فمي، وحبست أنفاسي قدر المستطاع. أمسكتْ بيدي وسرتُ بجوارها، يغطيني ظل جسدها المغطى بثياب مبهجة. مررنا في طريقنا بجماعة من الغجر يجلسون على سجّاد قديم، تحت شجرة توت كبيرة.

نظرتُ عبر السياج، فرأيت أمامهم أطعمة شهية، تتوسطها أرغفة خبز أبيض. زادت الشمس من بريق حوافها اللامعة.

ليس في قريتنا خبزٌ مثله. الناس يخبزون في بيوتهم أرغفة سمراء غامقة، بأشكال غير متساوية، وبعجينة حامضة لاذعة الطعم، تصبح شديدة الجفاف في اليوم التالي، ونضطر لكسرها عند تناولها؛ أما الذين لا يملكون أفرانًا حجرية في ساحات بيوتهم، فإنهم يرصّون قطع العجين السمراء على أسطح خشبية ويحملونها إلى المخبز الذي يديره "ديك جونسون"، والد "بريك جونسون" القنَّاص الذي قُتِل داخل برج الكنيسة مؤخرًا يا "دورنتينا".

تمتّع مخبزهم بنجاح ملموس، إلى أن بدأ الناس بالهجرة. اضطروا للإنتقال إلى المدينة، حاملين معهم أدواتهم الخشبية الكبيرة. في محلّهم الجديد، صاروا يصنعون أنواعًا فاخرة من المخبوزات الهشة.

حين تغيَّرت الظروف في البلاد، وبدأ الناس يعانون من مصاعب ومشكلات شتى اضطروا لبيع المخبز الجديد بسعر بخس، وهاجروا إلى "آليس سبرينجز" في أستراليا. وحده "بريك" رفض السفر معهم، وبقي هنا كأي مواطن مخلص.

أعود إلى الغجر وخبزهم الشهي.

لمع الرغيف تحت أشعة الشمس ببريق أخَّاذ، كما لو كان مرآة مصقولة. وقفت أنظر إليهم بفم مفتوح. ضغطت أمي على يدي بقوة، كأنها توبّخني، لكنني لم أستجب. حاولت أن تجرّني، لكن ساقاي ظلّتا متسمرتين في الأرض. شعرت أمي بحرج بالغ بسبب مراقبتي للناس على ذلك النحو، وهم يأكلون، فسحبتني خلفها بقوّة، لكنني بدأت أبكي وأصيح طالبًا ذلك الرغيف تحديدًا.

لسببٍ ما، شعرت بأنني سأموت إن لم أتناول ذلك الخبز.

لم تعرف أمي كيف تتصرف، فأخذت تجرني من يدي بقوة بالغة. ترك الصندل البلاستيكي الذي كنت ألبسه خطّين عميقين في التراب.

حين وصلنا إلى منحنى الطريق، حيث تتجاور أشجار الرمان، سمعنا وقع أقدام تعدو خلفنا. حين التفتنا، رأينا امرأة ممتلئة تلبس سروالًا متسعًا، تحمل في يدها الرغيف الذي اشتهيته. بيدها المصفرّة، ذات الأظافر المائلة للون الأزرق، ربّتت على خدّي المغطّى بالدموع. ناولتني الرغيف باليد الأخرى، وقالت لأمي:

– نحن بشرٌ مثلكم، وهو مجرّد طفل صغير يا سيدة. دعيه يأخذه. طعامنا لن يؤذيه.

كرّرتْ:

– نحن بشرٌ مثلكم..

أضافت وهي تغمز لي بعينها:

– إنه مجرد ولد، خصيتان وما إلى ذلك..

أسندتُ رأسي إلى ساق أمي، ووقفت أقضم الخبز بتلذذ. رمقتني الغجرية بعينين راضيتين، وابتسمت ابتسامة عريضة اختفت معها كل التجاعيد المحيطة بفمها. لمع سنٌ ذهبي داخل فمها. ابتعدت بجسدها الرجراج، عائدة إلى الصخب المجتمع تحت شجرة التوت.

لا زلت أشعر بطعم هذا الخبز على لساني حتى اليوم، يا "دورنتينا"، ولا زلت أتذكر مدى الحرج الذي شعرت به أمي، وهي تخبئني ورائها حتى وصلنا إلى شجرة العنب، سألتها:

- ماما، ما معنى "خصيتان وما إلى ذلك"؟

تجاهلتْ سؤالي ولم تقل شيئًا، ما جعلني أدرك أنهما أمران خطيران لا ينبغي مناقشتهما بهذه الطريقة، أو لعلّها هي نفسها لا تعرف الإجابة. لم أسمع أي شيء عنهما حتى ذكرتهما الغجرية. كانت جدتي "فريكلز" تدعوهما بـ"ويلي"، وأمي تدعوهما "بي بي"، وفي إحدى المرات سمعت "إيكو لاودماوث"، الذي كان فرَّاش المدرسة حينها، يطلق عليهما اسم "جونسون". قال حينها وهو يضع يديه بين فخذيه أن "جونسون" لا يهتم لا من قريب ولا من بعيد بالمارشال، وفي اليوم التالي جاء ثلاثة رجال من المدينة، ووضعوه ببساطة في سيارة لها نوافذ دائرية على أبوابها، وأعادوه ثانية في عيد الفصح، وعلى ظهره شرائط سوداء وزرقاء.

استطعت أن أستنتنج الإجابة بنفسي. ومن هذه اللحظة عرفت أن هذه الكلمة خطيرة. على أي حال، عندما رمشت عينا أمي، عرفتُ أنها لا تعرف الإجابة، وربما هذا هو السبب الذي جعلها تصطحبني ذلك النهار لمقابلة "كاساندرا تويجي"، التي كانت تعرف كل ما يحدث في القرية، بأدق التفاصيل، دون أن تغادر منزلها. كانت تعاني من سمنة مفرطة. لم أرها تسير على قدميها أبدًا. تجلس دائمًا تحت شجرة رمان في حديقة بيتها، على مقعدين متهالكين من مقاعد الباصات، أحضرهما لها أبي من المدينة، وكان قد حصل عليهما دون مقابل.

لأول وهلة، يبدو المقعدان جزءًا منها، نفس الجلد الشاحب المائل للحُمرة. تتدلى طبقات الشحم من جسدها ومن ساقيها المنتفختين. لها رموش طويلة وشفتان ممتلئتان.

تأخذني أمي لرؤيتها بانتظام. تمارس السحر باستخدام أحجار صغيرة مجوفة، تضعها داخل إناء من الماء. تنثر من ذلك الماء على رأسي، ثم تصبّ الباقي داخل إبريق زجاجي بفتحتين. قبل نومي، تغسل أمي وجهي بالماء المنسكب من الفتحة الأولى، وتغسل مؤخرتي بماء الفتحة الثانية. تتمتم المرأة بتعليماتها لأمي كل مرة، بصوت هامس، وهي تظن أنني لا أسمعها أو لا أفهمها ربما.

- لا تجعليه يغتسل يوم الأربعاء، ولا تطعميه لحمًا يوم الجمعة، وقدّمي بعض الزيت للكنيسة يوم الأحد.

استمرّ هذا الوضع ثمان سنوات كاملة.

تردد وهي تضع يديها الساخنتين على جسدي:

- حين يبلغ الثالثة عشر، ستصبح كل الأمور على ما يرام، كأن شيئًا لم يحدث على الإطلاق. لا تخافي. سينمو ويكبر يا أختي على النحو الذي ينبغي، ويصبح قويًا كالثور. لا تخشي شيئًا، إنه صبي وسيم، سوف يتصارعن من أجل مشاركته الفراش. لا تقلقي يا أختي.

نغادر حديقتها، ومثل كل مرة ترافقنا قطتها إلى البوابة الخارجية للبيت. قبل ذهابنا، تقطف أمي عددًا كبيرًا من الأزهار المختلفة، وتحيط بها إناء الماء

الذي يختفي تمامًا وسطها، ويبدو الأمر كما لو كانت أمي تحمل باقة ضخمة من الزهور. تبارك "تويجي" هذه الخطوة:

- نعم، هكذا، حتى لا يرى الإبريق أحد. لا ينبغي لأحد أن يعرف.

فعلت أمي – رحم الله روحها – كل ما بوسعها، وأطاعت التوجيهات بالضبط، لكن هذا لا يعني أن ما حصل كان هيّـنًا. كان حدثًا رهيبًا يا "دورنتينا". لكن هذا لم يعد مهمًا الآن.

في الصيف الذي سبق ولادة أخي "أينجل"، توفيت المعالجة "كاساندرا تويجي" على مقعديّ الباص القديمين، وكأنها تستعد للإنطلاق في رحلة جديدة. ظللتها الغيوم ومنعت عنها حرارة الشمس، فيما راحت قطتها تسير بشكل عكسي إلى الخلف.

أردت أن أقول شيئًا.

كانت أمي جميلة. فاتنة بحق؛ خصلات ملتفة من الشعر الأسود الحالك، وعينان خضراوان كبيرتان، وابتسامة ساحرة. اعتادت أن تبتسم بطرفي شفتيها فقط.

لا أشبهها بتاتًا، لكنني كنت أقول لنفسي بأن الكثير من الناس لا يشبهون أمهاتهم؛ ومع ذلك لم يكن هناك ما أرغب فيه أكثر من أن أحمل ملامحها.

الواقع أنني لا أشبه أبي أيضًا.

حيّرني الأمر كثيرًا، فأصدقائي يشبهون آباءهم بشكل كبير، لهم نفس الملامح، بل نفس أصابع القدمين. لأبي شعر ذهبي وعينين زرقاوين، أمَّا أنا،

فكما ترين، شعر أشقر باهت يميل للرمادي، وأنف مستقيم وشفتان رفيعتان. لا أملك صوت أبي الرخيم، ولا أعرف كيف أبتسم بجانبيّ فمي مثل أمي.

في بعض الأحيان، في الإجازات تحديدًا، نتوجه لزيارة جدّي "نيك" وخالتي "فلورا". منذ عدة سنوات، قبل وفاة جدتي "دورا"، ترك جدي القرية وانتقل إلى البلدة، حيث اشترى مزرعة بسعر رخيص، ثم قام بإصلاحها وتجديدها، وبنى بها منزلًا يتكون من غرفتين ومطبخ وحمام ومخزن. كنت أستمتع بصحبة خالتي، العاملة في مصنع النبيذ. اعتادت أن تحضر لي معها عصير العنب. ثم التحقتْ بالعمل في "فندق البلقان"، ولم تعد تجلب لي شيئًا. هناك نافورة أمام الفندق على شكل طفل يتبول. كانت البلدة جميلة جدًا في ذلك الوقت. الجو مشبّع بمزيج من روائح خبز الـ"بيجل" الطازج، وشذى أشجار الزيزفون. الأرصفة أمام البيوت مبللة بالماء، لتبريدها. كان لليموناده رائحة الليمون الحقيقي، ولا يمكن أبدًا وصف حلاوة ذلك الشراب في تلك الأعوام البعيدة.

في الأيام التي أمضيها هناك، يعود جدّي من العمل حاملًا ثمار بطيخ صغير، يقشرها ويثبّتها كاملة على طرف السكين، فتبدو كالآيس كريم. نجلس معًا لتناولها أمام الشبّاك، ونبصق البذور من الشبّاك. كثيرًا ما نبت بطيخ برّي في أحواض النرجس، لكن جدّي كان يقطفها بمجرد ظهورها، حتى لا تقضي على أزهاره.

لم يفهم أبي أبدًا سر استمتاعنا بهذه الجلسة أنا وجدّي.

وعلى ذكر أبي، نادرًا ما كان يعود إلى البيت. أعني بيتنا في القرية. ولكن حين يفعل، فإنه يحرص على أن أستغرق في النوم قبل أن يبدأ وأمي في ضرب الغزال ذي القرنين الذي يعلو ظهر سريرهما الخشبي. لم أفهم أبدًا إصرارهما

على معاقبته وضربه. والحقيقة أنني لم أكن أنام. كنت أكتفي بإغماض عينيّ، والتنفس ببطء وعمق.

في إحدى المرات، وكنا في فصل الشتاء، ظهر على الرف بجوار الراديو القديم ماركة "كوسماج"، زورق جندول صغير، له مصابيح على الجانبين تضاء بالكهرباء، وفي مؤخرة المركب يقف رجل يحرّك مجدافًا طويلًا واحدًا.

في تلك الليلة، سمعت صوتهما وهما يضربان الغزال لفترة طويلة، ظننت أنها لن تنتهي. قررت أن أدّعي أني أحلم بكابوس مزعج، أسقط من الجندول مثلًا في الماء. وثبتُ من الفراش وأنا أبكي، وحملت الزورق الكهربائي، وغادرت الغرفة بسرعة. لحسن الحظ، كان له سلك طويل، فبقي مضاءً. جلست في البلكونة الخشبية التي تعلو قن الدجاج، أراقب طبقات الثلج في الحديقة. ساد الصمت بعد لحظات، وتوقفا عما يفعلانه، وسرعان ما لحقت بي أمي. مسحتْ براحة يدها على شعري وطلبت مني أن أعود إلى فراشي وألا أخاف. ظنتْ بأني رأيت في منامي أمرًا أخافني، ولم تدرك أني غاضب لأنها لم تنم بجواري، ولم تدفئ قدميّ بقدميها، وفضلته عليّ. هددتها بصوتٍ باكٍ بأنني سألقي بنفسي من البلكونة لأن لا أحد يحبني؛ ثم ظهر أبي بجسده بالغ الضخامة، مرتديًا قميصه الداخلي. لمعت الشعيرات البيضاء على صدره، تحت ضوء القمر. هدأتُ شيئًا فشيئًا، فاصطحبتني أمي إلى الداخل، واستلقت بجانبي على السرير، وداعبت شعري بأصابعها وهو أكثر شيء أحبه، وقصت عليّ حكاية "ماري سندريلا" التي دفنت عظام أمها، ثم تحولت إلى بقرة لأنها لم تطع والدتها. تحولت العظام إلى ملابس جميلة، ارتدتها بعد ذلك حين أحبها الأمير وتزوجها.

في الحلم، رأيتها وهي تلبس فستانًا جميلًا وحذاءً، وتتجه إلى قصر الأمير. عندما استيقظت، فكرتُ في عظام أمها، ما الذي حدث لها بعد أن أصبحت الإبنة أميرة؟

حين سألت جدي مرة عن هذا الأمر الذي حيّر عقلي الصغير، أجاب:

- الأمهات يحببن أولادهن، مهما ارتكبوا من أخطاء.

في إحدى المرات، كنت ألعب خارج البيت مع أصدقائي، حين أحسست بالعطش، دخلت لأشرب من الإبريق الذي أعطتنا إياه "كاساندرا تويجي"، إذ لم يكن مسموحًا لي بالشرب من غيره. رأيتهما معًا، شبه عاريين، تحت الغطاء المطرّز بأعداد هائلة من الطيور. نظرت إليّ أمي بارتباك شديد. تفاجأ أبي بدخولي، لكنه قال مبتسمًا بأنهما "يخبزان" لي أخًا صغيرًا. اقتنعتُ بما قاله، وذهبت لأخبر أصدقائي. انتظرنا في الخارج، لمدة ساعة تقريبًا، حتى نرى هذا الأخ الجديد. لكن حين ظهرا بعدها بيدين خاليتين، لم أعرف كيف أفسّر الأمر لأصدقائي.

لعلها كانت اللحظة التي بدأت فيها رحلة الكذب يا "دورنتينا"، هل تعرفين بأنكِ إن أحببتِ أكاذيبك فإنها قد تتحقق؟

بعد بضعة أيام يقضيها أبي معنا، يغادر عائدًا إلى عمله في مكان بعيد. يذهب عادة وأنا نائم. تقطع أمه، جدتي "فريكلز"، الحديقة ذهابًا وإيابًا وهي تكلّم دجاجاتها. تنهمك أمي في حياكة "بلوفرات" صوفية، أكبر من مقاس أي منا، وتحني رأسها حتى لا ألمح دموعها المنسكبة في صمت. أضع يدي الصغيرة فوق ركبة أمي، وأسرح بخيالي وأفكاري بعيدًا.

في بعض الأيام تأخذني أمي معها لنمضي النهار في منزل جدّي، بعيدًا عن جوّ البيت الموحش.

خالتي "فلورا" جميلة جدًا، بشرتها ناصعة البياض، ولها شفتان ناعمتان، وساقان طويلتان رشيقتان، لا يغطيهما شعر أو بقع أو ثقوب كساقيّ أمي أحيانًا.

تتصرف خالتي في وجودي بتلقائية شديدة، ودون أدنى شعور بالحرج أو الخجل. كيف تخجل أمام طفل صغير مثلي؟

حين تغادر أمي الغرفة لتتناول أدويتها بعيدًا عن الأنظار، تعرّي خالتي صدرها وتدهنه بالكريمات، وتسمح لي في معظم الأحيان بلمسه.

تخرج أمي وتقول بأنها ذاهبة للطبيب. تظن أنني صغير ولا أفهم ما يدور حولي. أعرف بأنها تخرج للبحث عن عمل. حين تغادرنا، تحدث بيني وخالتي "فلورا" تجاوزات كثيرة. لكنها كانت تحذرني من الإفصاح بما يحدث لأيّ أحد على الإطلاق، وتقول بأن ذلك سيؤدّي إلى موتنا نحن الإثنين.

حين تسمع صوت البوابة عند عودة أمي، تسارع خالتي بارتداء ملابسها، وتجلسني بجوارها لتقصّ عليّ الحكايات.

بعد ذلك، لا تنتظر أمي عودة جدي من عمله، فتأخذني للمحطة لنركب القطار الأخضر ونعود لبيتنا قبل حلول الظلام. في كل مرة، تغسل أمي ثيابنا بمجرّد عودتنا حتى تتخلّص من رائحة الفحم العالقة بها، وتنشرها في الحديقة. أنتهز أي فرصة للمرور بجوار الحبل. أتشمم ملابسي المغسولة، حتى أتأكد أنها لا تحمل رائحة جسد خالتي "فلورا".

أصبحت لا أطيق الإبتعاد عنها، وأظل أتوسل لأمي أن تأخذني لبيت جدي في اليوم التالي. تعدني بذلك، لكنها تستمر في التسويف والمماطلة. حين تقرر أخيرًا زيارة بيت أبيها، تخبرني بالموعد. أفتح فمي في الظلام، لأتنفس منه، خوفًا من أن أتنفس بأنفي وتسمع أمي دقات قلبي المتسارعة من فرط السعادة. أخشى أن تنزعج من الأصوات المترددة داخل صدري، فتجبرني على النوم في الغرفة السفلية مع جدتي "فريكلز"، التي يذكّرني شخيرها المرتفع بصهيل الخيول.

تلبس جدّتي عند نومها "بلوفر" له رائحة القش المبلل. لكنني لم أقل لها ولو مرة أن رائحتها كريهة، وحين تصرّ على حملي على ظهرها حين تخرج للحديقة لقطف الفلفل الأخضر والخيار، أسدّ أنفي بأصابعي دون أن تراني، لأنني أعرف أنها سريعة الغضب، بل إنها تغضب أحيانًا من دجاجاتها، وبخاصة حين لا تضع إحداهن بيضًا لفترة طويلة. تنتظر حتى عودة أبي، ثم تشير له بعينيها إلى الدجاجة المقصودة، دون أن تقول كلمة واحدة. يحضر أبي فأسه الصغيرة، ويقبض على الدجاجة التي تصيح وتستغيث. يحملها ويجلس بها تحت شجرة التين، ثم يضرب عنقها ضربة واحدة وينتهي الأمر. مساءً، تمصمص جدتي جناحيّ الدجاجة بتلذذ بالغ.

لا يرفض أبي طلبًا لوالدته أبدًا.

لم نذهب إلى البلدة لثلاثة أشهر متوالية. جاء جدي لإصلاح الفرن الحجري في ساحة البيت، ثم حضر مرة أخرى لبناء جدار داخل الحظيرة. كانت أمي قد اشترت حمارًا ليحمل عنها محصول التبغ، لكن الخنزير الذي نربّيه استمرّ في الهجوم عليه ليعضّــه. استعانت أمي بأبيها ليبني جدارًا يفصل الحيوانين عن بعضهما؛ ثم جاء مرة ثالثة وأخيرة – كدت أنسى الأمر – لذبح الخنزير، الذي أصرّ على مواصلة

تحرّشه بالحمار، فكسر الجدار وهاجم المسكين، الذي فرّ مذعورًا. بحثت وجدتي عنه في الحقول والأراضي المجاورة، لعدّة أيام، دون جدوى.

بعد أن تمّ تقسيم لحم الخنزير، احتفظوا جانبًا بنصيب خالتي "فلورا"، وهو ما أتاح لنا فرصًة لزيارتها. في اليوم المحدد، توجهت وأمي إلى محطة القطار. صاحت جدتي:

- بسرعة! المطر يقترب.

لكننا اعتقدنا أنها تكلم الدجاج، فلم نهتم بالإسراع. قبل أن نصل المحطة، كان المطر الغزير قد بللنا تمامًا. واصل المطر هطوله طوال الطريق. حين وصلنا بيت جدي، لم يكن هو أو خالتي موجودين. كنت أشعر ببرد شديد يتخلل عظامي. تجمّد جسدي بأكمله، حتى إنني حين أردت أن أتبول لم أستطع فعل شيء. رافقتني أمي إلى الحمام، وساعدتني على قضاء حاجتي. أحسست بالإجهاد، وحتى حين عادت خالتي من عملها لم أستطع إبقاء عينيّ مفتوحتين. قبل أن أستسلم للنوم، لمحت جدّي على السرير المجاور وقد أحاط السواد بكعبيّ قدمه.

صباح اليوم التالي، أشرقت الشمس بكل قوتها، وأرسلت أشعتها عبر النوافذ. كان جدّي قد غادر إلى عمله. يخرج جدي قبل شروق الشمس ويعود بعد غروبها، ويحاول خلال تلك الفترة أن يتحاشى الناس قدر الإمكان، لأنه لم يكن يستطيع الكلام بشكل جيد.

حين كان صغيرًا، هاجمه كلب أسود في إحدى الليالي، وقطع أوتاره وحباله الصوتية. رغم التأتأة الشديدة التي يعاني منها حين يتحدّث، إلا أنها تختفي

تمامًا حين يغني بصوته العذب، يتحول عندها إلى عندليب. حين سألته عن ذلك، قال بأن الكلام يخرج من الرأس، لكن الغناء ينبع من الروح.

لم أعرف ما هي الروح، لكنني لاحظت أنه يضع يده على صدره حين يبدأ في الغناء.

ابتعدت الشمس عن النافذة، واستلقت كقطة على أغصان شجرة البرقوق، لكنها سرعان ما أحسّت بالسأم فغادرت الشجرة إلى سطح البيت.

ارتفع صوت أمي وخالتي في الغرفة المجاورة. كانتا تتشاجران. علا صوت خالتي وهي تقول لأمي بأنها لم تزر قبر والدتها منذ ثلاثة أعوام، فلمَ العجلة الآن؟

لم تجبها أمي، واكتفت بتنهدات عميقة.

سمعتُ صوت خطوات تقترب من البيت. من النافذة، رأيت أمي وهي تخرج من المنزل وتغلق البوابة خلفها. بدت محطمة.

خالتي الغاضبة، أجلستني على الكرسي بحركات عنيفة من يديها، ثم وضعت على حِجري طبقـًا من الخبز والبيض المقلي. جلستْ على الكرسي الآخر، وراقبتني بصمت. انتظرتُ أن تحكي لي قصة، لكنها عوضًا عن ذلك دنت مني ببطء وفتحت أزرار ثوبها. غصصتُ بالطعام ولم أستطع ابتلاعه. ناولتني كوبًا كبيرًا من الماء، وقالت:

– حين تنتهي من تناول إفطارك، تعالَ إلى الحجرة الأخرى.

حشرتُ ما تبقى من البيض داخل فمي، فواجهت صعوبة بالغة في مضغه وابتلاعه. شربت ما تبقى في الكوب على عجالة، ولحقت بها. حين دخلت الحجرة، وجدتها مستلقية على الفراش وهي عارية تمامًا. أشارت لي بعينيها أن

أجلس بجوارها. جعلتني ألمسها وأتحسسها لوقت طويل، ثم تنهدت وزررت ثوبها، وخرجنا إلى الحديقة وجلسنا نتأمل النرجس إلى أن عادت أمي.

ذهبتا معًا إلى الداخل. جلستا متواجهتين دون أن تنطق إحداهما حرفًا. رحت ألعب في الصناديق الفارغة التي يحتفظ بها جدي، وأحاول أن أصنع منها عمارات طويلة. انهارت عمارتي بعد الصندوق الثامن، فأحسست بالغيظ. في تلك اللحظة، قالت أمي لأختها بأنها "حامل".

يداها فارغتان، لم أعرف أين تخبّىء تلك الأشياء التي تقول أنها تحملها.

التفت متسائلًا نحو خالتي، لكنها كانت منشغلة بالنظر إلى أمي وهي في حالة ذهول؛ ثم أخذت توزع نظراتها بيني وأمي. قفزت من مقعدها، وعانقت شقيقتها وقبّلتها وهي تصيح في سعادة. دارت بها في الغرفة، وهي تحتضنها، إلى أن انزلق جورب أمي كاشفـًا عن ساقها.

قالت خالتي أخيرًا، وهي تشير نحوي:

- إنه تميمة حظك! كنت أعرف ذلك!

نظرت لي أمي بمزيج من السعادة والإعتذار، وهي تعيد رفع جوربها المتهدّل.

لم أعرف حينها ما الذي أسعدهما لهذه الدرجة.

كل ما عرفته يا "دورنتينا"، هو أن النساء كائنات شهية لأقصى درجة.

# 18

طالما أننا نتحدّث عن الكائنات الشهية، دعيني إذن أخبركِ شيئًا عن "آنا كوميتزكا"، زميلتي في ورشة الكتابة بـ"آيوا". تقع غرفتها تحتنا بالضبط في سكن الطلبة. تشاركها الحجرة "ميسيجو تانجا"، وهي فتاة في مقتبل العمر من مدينة "تاكاساكي" اليابانية. "دون خورخيه خوليو" أو "أميجو إيبرتي" يدّعي أنه تربط بين هاتين الكاتبتين الواعدتين علاقة جسدية خاصة يكتنفها بعض الغموض.

كنت أعتقد جازمًا أنه في الأوقات القليلة التي لا يكون خلالها منهمكـًا في الكتابة، فإنه يكون معها، يتبادلان الغرام.

قبل ثلاثة أيام من تلقيه ذلك التلغراف من أبيه، كان على وشك الإنتهاء من روايته. جلس ليستريح على الحافة العريضة لنافذة الغرفة، واضعًا يديه داخل جيبيّ بنطلونه، وتحدّث عن "آنا كوميتزكا" بعبارات متتالية، وهو في حالة من الإنبهار الشديد.

غادرت "ميسيجو تانجا" في رحلة لنهر المسيسيبي مع "فاتوس ديدلـّي"، و"مامبو تولومبا" من نيروبي، و"مينج شانج روه بين" من التبت، وكاتب آخر من أسمرة عاصمة إرتريا. في نفس اليوم، تلقى "خورخيه خوليو إيبرتي" دعوَة

من زميلتنا الشاعرة لزيارتها وتناول القهوة معها في غرفتها. وعلى الأبخرة المتصاعدة من فنجانيّ القهوة الخالية من الكافيين، اشتكت له بعبارات واضحة لا لبس فيها أنه لا أحد ممن حولها يحاول الإقتراب منها بغرض إقامة علاقة جنسية معها، رغم أن الإنسان بطبيعته – هكذا قالت – يحبّ أن يتعرّف الناس عليه ككائن جنسي في المقام الأول، ثم باعتباره مبدعًا ثانيًا.

قال "إيبرتي" وهو يداعب شاربه الكث:

- بالنسبة لها، الكاتب غير موجود أصلًا. هناك فقط اللغة التي يكتب بها، والعلاقة التي تربط بين القصيدة والمستمع، أو بين الرواية والقارىء، والتي هي دائمًا أشبه بعلاقة جنسية مثيرة. قالت: "إما أن يشعرك النص بالإثارة، أو لا يشعرك بشيء على الإطلاق".

أنصتّ إليه بنصف اهتمام، لأني كنت أحاول مواصلة الكتابة وفق تعليمات "ستيف ليبتوف" الذي نصحني بأن أنقل الحياة على الورق كما هي في الواقع، دون إضافات ولا أسرار ولا غموض، إن أردت أن أكون كاتبًا واقعيًا. وهو ما قررت أن أكونه عقب بعض التفكير؛ ولذلك فبعد انتهائي من الفصل المتعلق بخالتي "فلورا"، نويت أن تكون أمي وحملها الأول في أخي هما الفصل القادم.

بدأت الفصل الجديد بالعبارة التالية: "انتفخت أمي كما لو أنها تعرضت لقرصة دبّور". لكنني سرعان ما شطبتها، وكتبت مكانها، "كبر بطن أمي وأصبح كقطعة خبز بيجل مستديرة". شطبتها أيضًا. بدت تافهة ووقحة أيضًا، كما أنها غير صحيحة. بطن المرأة الحامل لا يشبه البيجل. لعله أقرب للـ"دونَت" مثلًا.

أعدت صياغة الجملة مستخدمًا كلمة "دونَت" هذه المرة. أعجبتني هكذا أكثر.

رفعت رأسي، وأعدت قراءة نصائح أستاذي المعلّقة أمامي. أكثر ما أعجبني هو تلك المتعلقة بالصراحة. أن أكون صريحًا وأكتب الذكريات كما تخطر على بالي، شريطة أن أضعها على الورق بشكل مقنِع لتصنع القصة لنفسها أجواء من الواقعية.

أنظر ثانيةً إلى الجملة التي كتبتها عن أمي وبطنها، بدأت أفكر في أشياء غير الدونَت، "فطيرة بالكستر؟"، "رغيف كبير؟"، "قطعة خبز مستديرة؟".

اكتشفت أن كل تشبيهاتي لها متعلقة بالطعام. لماذا ترتبط أمي في ذاكرتي بالمخبوزات تحديدًا؟

التفتُ نحو "إيبرتي"، كان لا يزال يعبث في شاربه ويواصل ثرثرته، تحيط به أشعة الشمس الممتدة عبر النافذة. كان مرحًا خالي البال لأنه قد قارب على الإنتهاء من روايته "يوميات سكين جزار". إنتهى من الفصول الخاصة بالجريمة، بل واختار اسم الصحيفة التي سيتمّ لف السكين بها.

قال لي بالأمس:

- الأحداث كلها داخل رأسي بالفعل يا صديقي، بأدق تفاصيلها. كل ما عليّ فعله الآن هو كتابتها فور وصولي إلى "كوكوتا".

نظرت مرة أخرى إلى الجملة التي أشبِّه فيها بطن أمي بالدونَت، وشطبتها. أحسست أنها مبتذلة جدًا، وبالغة السخافة؛ وحتى على المستوى الرمزي، فإن الدونَت ليس خبزًا ليمثِّل الجسد، ولا نبيذًا ليمثل الدم. الدونَت ليس خبزًا.

عضضت طرف القلم الرصاص، وأنا لا أزال مستغرق في التفكير. استعدت نصيحة "ليبتوف": "ابتكار الوثائق وتوثيق الإبتكارات". لا أذكر متى قال ذلك تحديدًا، أتذكر فقط الطريقة التي يحرك فيها جسمه حين يمشي. ذكّرني ذلك بأمي وطريقة سيرها حين كانت حبلى، "تمشي ماما في الساحة الخارجية للبيت، وهي تضع يديها على ظهرها. تسارع جدتي بطرد دجاجاتها من أمامها".

أقرأ العبارة عدّة مرّات. لا بأس بها. صورة جيدة تنبض بالحياة. وقعها على الأذن مريح أيضًا. لكنني بعد أن كتبتها، لم أعرف الهدف منها تحديدًا.

"دون خورخيه خوليو" ليس لديه مشكلة مع الكلمات. لاحظت ذلك حين تنبهت إلى أنه لم يتوقف عن الحديث عن "آنا كوميتزكا" منذ يومين اثنين.

سمعته يقول:

- عليك أن تعترف يا صديقي بأنها جميلة جدًا. لقد قبّلت كل جزء في جسدها، من منتصف الليل حتى أول صياح للديكة. لعبتُ دور الجلّاد، وكانت هي الضحية. لم أعرف أين أنا بالضبط. ظننت أنني في "كوكوتا"، إلى أن فتحت عينّي وأدركت أنني في الطابق الأول من سكن الطلبة. وهكذا يا صديقي، كنت أقبلها وأعاقبها أشدّ العقاب، حين قالت بأن كلماتي تخترقها بعمق، وتدخلها في دوَّامة من الإثارة اللانهائية.

استمرّ في وصف مغامرته الليلية في فراشها، وهو يقلّب بين أصابعه الخطاب الذي أرسله والده، والذي يخبره فيه بأن أمه التي تعاني من ضعف شديد في الإبصار، قد أصيبت بالزهايمر، وأنه يعتقد بأن حالتها وباء سينتشر في البلد، ويخشى أن يصاب به هو وكل سكان المدينة.

طلب منه أن يسارع بالعودة، لأنه إن تأخر فقد لا يتعرف عليه أحد على الإطلاق.

استطرد "إيبرتي":

- كانت "آنا" تسهب في وصف تأثير الكلمات عليها، بينما أنا أفكر في أمي وفي "كوكوتا". قلت في سرّي: "حسنًا يا "آنا"، يمكن حقًا للكلمات أن تشعر الإنسان بالإثارة والنشوة، لكن ما يشغلني الآن هو خوفي من ألّا يتعرّف عليّ أحد". لم أستطع أن أزيح هذا الأمر من بالي، هذا الوباء الذي سيقضي على ذاكرة الجميع يا صديقي؛ بينما كانت "آنا" تستلقي أمامي وتمرّر أظافرها الطويلة على جسدها العاري. قالت لي: "يجب على كل صفحة في أي رواية جيدة، كروايتك عن الكولونيل مثلًا، أن تغويني وتغازلني وتعدني بالحب. أنا، كقارئة، إن لم أحس بأن الصفحات وسطورها تشعرني بالإثارة وتشعل بداخلي الرغبة، فإنني أتوقف عن القراءة على الفور، ولا أكمل الكتاب. أنساه، كما تنسى المرأة عاشقًا سيئًا".

أضاف:

- تركتْ الفراش، ووقفت بجسدها العاري، الفاتن، تنظر من النافذة، ثم قالت: "أريد رواية تثيرني من الأعماق، تأسرني بين صفحاتها، تستعبدني، تمزق عني ثيابي. أريد نصًّا يشعرني بنشوة متجدّدة". أقتربُ منها، وأتحسّس جسدها المضيء، اللامع. واصلتْ حديثها: "الكتابة فعل جنسي في المقام الأول". ترددتْ أنفاسها أمام الأغصان المواجهة للشبّاك.

دسّ "إيبرتي" خطاب أبيه داخل جيب بنطلونه.

في الهدوء الذي ساد الغرفة، أخيرًا، كتبت جملة أخرى، وقررت أن تكون هي العبارة الإفتتاحية للنصّ.

"سألتُ ماما: "كيف كنت أتنفس وأنا داخل بطنك؟"، لم تجبني، وهزّت كتفيها لتوضح لي بأنها لا تعلم. سألتها سؤالًا آخر: "هل يعرف الطفل القادم بأن له أخًا؟"، تومىء برأسها في صمت، وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات تنمّ عن الضيق الشديد بأسئلتي التي لا تتوقف".

قرأت ذلك عدّة مرات، وأخيرًا شطبته بالمرور عليه بقلمي نحو عشر مرات، وأنا أشعر بسعادة بالغة. الأمر الوحيد الذي أزعجني هو عدم قدرتي على العثور على جملة افتتاحية ترضيني لأبدأ بها هذا الفصل. أردت أن أكتب شيئًا يلخص الصورة الموجودة في ذهني، ماما حامل، بطنها كبير، تجلس على كرسي، وتنظر من النافذة.

أتذكّر جيدًا أنها كانت، في تلك الفترة، تمضي وقتًا طويلًا على ذلك الكرسي وهي تتنفس بعمق، وكأنها تملأ بطنها بالهواء. في بعض الأحيان كانت تمدّ يدها وتحرك حصاني الخشبي الهزّاز.

استعدت الأمر في خيالي، لكنني لم أضعه على الورق.

وثب "أميجو إيبرتي"، ونزل عن إطار النافذة، ثم استلقى على سريره شابكًا يديه تحت رأسه.

قال "إيبرتي" فجأة، بصوتٍ ناعس:

- التصقت بي "آنا" وأعلنت: "المرأة تشتاق للجنس، وأنا متعطشة للجنس". سمعتها بإحدى أذنيّ، أما بالأذن الأخرى فقد كنت أصغي إلى الريح التي تهزّ الأشجار خارج النافذة.

أغمض عينيه، وغطّ في النوم.

كتبتُ على صفحة جديدة: "بقيت ماما في المستشفى حوالي شهرين، ومع ذلك رفض أخي "أينجل" أن يخرج للحياة". شطبتها على الفور، وكوّرت الورقة وألقيت بها في سلة المهملات تحت الطاولة. لو قارنت كمية الورق التي تخلصت منها حتى الآن، لتساوت مع الكمية التي ألقاها الكونت في القمامة، حين كان يؤلف "آنا كارنينا". دون معرفة المؤلف، قامت زوجته "صوفيا آندريفنا" بتصحيح النص في نحو تسعمئة موضع! قلت لنفسي: "لعلها هي التي ألقت بالبطلة تحت عجلات القطار".

استيقظ "آميجو إيبرتي" من نومه فجأة، تثاءب وقال:

- كان يوم أربعاء!

ثم استطرد:

- قالت لي "آنا" وأنا أهمّ بتقبيلها: "المؤلف يكتب روايات سبق له قراءتها في ذهنه عدّة مرّات".

أضاف:

- حين انتهينا، تناولتُ كأسًا من الويسكي يا صديقي.

قال بغتة، وهو يقفز من السرير:

- أنصت جيدًا! هذه خطواتها!

وقفتُ بجواره أمام الشباك. كانت هي بالفعل، متجهة نحو مبنى ورشة الكتابة. تذكرت أنها ستقرأ الليلة على المشاركين ورقة عن الكتابة الذكورية والكتابة النسوية. راقبناها وهي تؤرجح ردفيها في دلال، ثم تدوس الأرض بخطواتها القوية، كأنها تسحقها.

قال "خورخيه" بدهشة:

- هل لاحظت كيف تمشي؟!

رغم إنني فهمته، إلا أنني سألته:

- ماذا تعني؟

- تسير خطوة واحدة كامرأة، والتي تليها كرجل.

- لماذا؟

- ربما لأنني أمضيت الليل وأنا أشرح لها الفرق بين الكتابة الذكورية والكتابة النسوية. أظن أنها فهمت جيدًا.

- الطريقة التي تسير بها جميلة في واقع الأمر، عملية وعصرية كما أعتقد.

- الحقيقة أنها لا تزال عذراء، وهي مثلية في الوقت ذاته.

عاد إلى سريره، وتمتم ثانيَةً:

- كان يوم أربعاء..

ثم أخذ يردد أسماء أنهار ومُدُن ؛ "ميسوري"، "ميسيسيبي"، "آيوا". كرر بعدها للمرة الثالثة:

- كان يوم أربعاء..

أضاف:

- كنا في "سيدار رابيدز"، ثاني أكبر مدن "آيوا". أبحرنا في نهر المسيسيبي، ولكن صدّقني يا عزيزي، لا يمكن مقارنة هذا المسيسيبي بالنهر العظيم "ماجدالينا". يمكنك أن تمضي عمرك بأكمله مبحرًا في "ماجدالينا" دون أن تشعر بلحظة ملل واحدة.

خفت صوته تدريجيًا، ثم سكت. لعله كان يحاول أن يتذكر شيئًا معينًا له علاقة بهذا النهر، أو لعله بدأ يعاني من أعراض الزهايمر.

أخذ يردد قائمة طويلة من الأسماء:

- كاسيلدا آرمينتا، جاليليو داكونتي، لوثاريو توجوت، ليونا كاسياني، يوم الأربعاء، أوربينا داسا، فلورينتو آريسا، جيِّرمو فالينسيا عبد الله، يوم الأربعاء، روزا إيلينا فيرجيسون، خوزيه بالينسيا، جوفينال أوربينو، جيرمايا دي سان آمور، يوم الأربعاء، روزا كاباركاس...

استمرت لائحة الأسماء في التدفق من فمه، وهو مستلقٍ على السرير.

حاولت أن أكتب عبارات افتتاحية أخرى: "أمضت ماما وقتها وهي تحيك ملابس تناسب مولودًا ذكرًا، رغم تحذير جدتي لها من فعل ذلك، لكن ماما كانت تجيبها بأنها متأكدة من أنها ستلد صبيًا. تتمتم جدتي بأدعية تطلب فيها أن يكون المولود معافى وبصحة جيدة، أيًا كان جنسه. تردد ماما بأنها ستسميه "أينجل". تصاب جدتي بالذعر، وتنصحها بألا تختار الإسم قبل الولادة، فلا إسم دون شخص. كانت تقول ذلك وهي ترسم إشارة الصليب. جدتي شخصية عجيبة، تشعر بالبرد في الصيف، ولذلك تلبس بلوفرات صوفية خلال ذلك الفصل؛ أمَّا في الشتاء، فتسير حافية القدمين على الثلج، وهي تنثر الحبوب لدجاجاتها".

كنت أكتب بسرعة، وأختصر بعض الكلمات، حتى لا تضيع أفكاري المتتابعة.

قال "إيبرتي" وهو يصفـّر:

– يوم الأربعاء..

في تلك اللحظة، انقطع حبل أفكاري، وظللت ساهمًا أفكر فيما إذا اعتادت جدّتي أن تسير حافية القدمين على الثلج حقًا، أم أن خيالي هو الذي صوّر لي ذلك.

شطبت على الفقرة بأكملها، وكتبت واحدة جديدة: "كانت ماما تجلس على الكرسي الخشبي، حين اندفع جدّي من الباب بأنفاس لاهثة، وقال بحاجبيه أن البلدة تعرضت لزلزال. قال بأنه لم يكن قويًا، لكن الناس أمضوا ليلة البارحة في الشارع، بالرغم من ذلك. علقت جدتي بأنها سمعت صوت دجاجاتها في منتصف الليل، لكنها ظنت أن ثعلبًا أخافهن. حاولتْ ماما الوقوف، لكنها

فشلت، فوضعت يدها على بطنها وقالت أنها حلمت بطيور بيضاء ليلة البارحة. فسّرت جدتي الحلم بأن معجزة على وشك الحدوث؛ وفجأة بدأ المقعد الذي تجلس عليه ماما بالتحوّل إلى أوراق شجر...". أردت أن أواصل الكتابة دون إزعاج، لكن "أميجو إيبرتي" قفز من السرير وبدأ يضع جميع حاجياته داخل حقيبة السفر الخاصة به. أعلن بأنه سيغادر في الصباح الباكر، ووعدني بأن يرسل لي خطابًا عاجلًا فور وصوله لبلده. لكنه أضاف:

- إذا لم تصلك رسالتي، فاعلم أنني قد مرضت بالنسيان.

وضع في حقيبته جميع الأوراق التي كتبها خلال الستة أشهر الماضية.

مع حلول فجر اليوم التالي، غادر وهو لا يزال يردد أسماء شخصيات ومُدُن. عقب ثلاثة أيام، غادرنا "فاتوس ديدلـّي" أيضًا، ليناصر الحركة الديمقراطية المعارضة في "ساراندا"، التي كانت قد أغارت على مخازن الجيش واستولت على جميع الأسلحة التي وجدتها هناك. علّق وأنا أودّعه:

- لدينا الآن الأسلحة التي ستمكّننا من تطبيق الديمقراطية في المنطقة يا عزيزي.

في تلك الليلة، حاولت جاهدًا، ولمرّات عديدة، أن أضيف شيئًا للفصل الخاص بأمي، ولكن دون جدوى.

أعرف شيئًا واحدًا فقط، يجب أن تكون الجمل صادقة وحقيقية، وفي الوقت نفسه غريبة وغير معقولة. رميت بالورقة الأخيرة في سلة المهملات، ووضعت واحدة جديدة أمامي على الطاولة. قرأت تعليمات "ستيف ليبتوف" مرة أخرى. ارتديت ثيابي، وخرجت لأتمشى بالقرب من بركة الماء. ظللت أمشي لسبعة أيام،

ومع ذلك لم أستطع العثور على الجملة التي أريد. كنت قد تخلصت من كلمة كتبتها، سواء أكانت حقيقية ولها علاقة فعلية بالماضي، أو كانت من وحي خيالي.

الأمر الوحيد الذي سأحافظ عليه هو الفكرة؛ أمي حامل وتنتظر ولادة أخي "أينجل".

امتلأت السلّة بالأوراق المكوّرة.

أرسلتُ تلغرافًا إلى "خورخيه خوليو إيبرتي"، ختمته بتحيات من "آنا كومتزيكا"، التي لم تكن تعرف بأمر إرسالي للتلغراف أصلًا. طلبتُ منه أن يساعدني بجملة تصف امرأة حبلى، تلد طفلًا لن يعيش طويلًا. ولثلاثة أيام، لم يصلني أيّ ردّ من "كوكوتا".

في أحد الأيام، وبينما كنت لا أزال أفكر في الجملة، وصلني تلغراف. لم يكن منه هو شخصيًا، إذ أرسله رجل يدعى "دومينجو مانويل فيجا"، ذكر أنه صديقه من شمال "كوكوتا"، وكتب يقول أن "خورخيه خوليو جابرييل" بصدد كتابة رواية العُمر، وأنه فقد أي اتصال بالواقع، وأنه يجوب نهر "ماجدالينا" على متن مركب يدعى "نيو فيديلتي"، ذهابًا وإيابًا بشكل متواصل ودون انقطاع؛ وحين سأله الربّان عن المدّة التي ينوي أن يطوف النهر خلالها، أجابه "إيبرتي" على الفور، ودون تردد: "مدى الحياة".

لقد أبحرت أمي في نهر مماثل.

توجهت إلى غرفتي بسرعة بالغة، مررت في طريقي بـ"آنا كوميتزكا" التي اعتادت ممارسة رياضة الجري، حول البحيرة كل ظهيرة. رغبتُ في أن أقول لها شيئًا يعبّر عن إعجابي بها، لكنني لم أستطع التوقف. ركضتُ إلى غرفتي، وأمسكت

بقلم الرصاص، وشطبت على الجملة التي كان جدّي "نيك" يخبرنا فيها عن الزلزال، وكتبت على عجل: "ذهبت ماما للمستشفى، لتلد "أينجل". في أحلامي، كنت أراها تلدني أنا، وهي في حالة مخاض طويلة، تستمر مدى الحياة".

# 19

وُلِد "أينجل" في اليوم التالي للزلزال.

أسميناه "أينجل" يا "دورنتينا" لأنه كان في جمال الملائكة، بشعره الأشقر وبشرته الوردية.

حين عادت به أمي إلى البيت، قالت جدّتي بأنني أكبره بيدٍ وإصبع. استخدمتُ أصابع خالتي "فلورا" لأحسب عليها الفرق بيني وبينه. ستة أصابع. أنا أكبره بستّ سنوات، ستّ حبّات فاصوليا، ستّ تفاحات. أنا الأكبر. أنا الذي أعرف كل شيء. هو لا يعرف أي شيء أبدًا؛ لا حركة الرياح، ولا الشمس ولا القمر، ولا العشب ولا الأشواك، ولا النمل ولا الفراشات، ولا الليل ولا النهار، ولا المطر ولا الثلج. يعرف شيئًا واحدًا فقط، كيف يبكي بصوت مرتفع وهو يحرّك قبضتيه في الهواء كأنه يضرب نظرات السعادة والمحبة التي تحيط به من كل جهة.

في نفس اليوم، عاد أبي من عمله البعيد حاملًا لنا بشرى حصوله على عمل دائم في البلدة، خلف تلك التلال. قال أنه صار بالإمكان الآن أن يذهب إلى عمله الجديد سيرًا على الأقدام إن أراد، لكنه لن يفعل، لأنه سيقود شاحنة كبيرة تنقل جذوع الأشجار من الغابة إلى مصنع الأخشاب.

كانت الشاحنة كبيرة جدًا، في حجم منزل. عاد بها إلى البيت ليشاهد مولوده الأول. ظننتُ أنهم سمحوا له بالتنزه بها. أحاطت بها دجاجات جدّتي، وراحت تنقب العجلات بمناقيرها، وهو ما أثار ضحكنا. مزاج أبي الرائق ازداد بهجة مع انقضاء ساعات النهار. بحلول المساء، شرب إبريقًا كاملًا من النبيذ، ثم كسره على جذع شجرة السنط. بعدها، علّق أحد الموجودين بأنه يستحيل تشغيل أي سيَّارة دون مفتاح. شعر أبي بالتحدّي، وقرّر أن يشغّل الشاحنة مستخدمًا شوكة بلاستيكية بيضاء، أزالها من أحد أطباق الأرز أمامنا، وأسرع نحو السيارة الضخمة. تفرقت الدجاجات وهن يتصايحن في رعب، ويهرولن مبتعدات. أنزل أبي نافذتيّ الشاحنة، وسط دهشة وترقب الجميع، وأدار المحرّك بتلك الشوكة اللينة. غادر ساحة البيت، مبتعدًا بالشاحنة بسرعة. تركنا المائدة، وركضنا وراءه، وكل واحد منا لا يزال يحمل في يده شوكة أو ملعقة. وصلنا إلى كنيسة القرية، ثم فقدنا أثره، إذ ابتلعه الظلام. وقفنا نراقب الضوء الشحيح المنبعث من كشافات السيارة، وهي تختفي خلف التلال.

عثرنا عليه فجر اليوم التالي، داخل حقل لأزهار الخشخاش. خلّفت الشاحنة خطين عميقين في الأرض، قبل أن تتوقف وسط الزهور الحمراء. وجدناه يغط في نوم عميق. حين استيقظ، لم يستطع أن يتذكر شيئًا، ولم يعرف كيف وصل بشاحنته إلى ذلك الحقل، ولا كيف عبر بها ثلاثة جسور فوق النهر.

بعد تلك الحادثة، لم أره يشرب شيئًا سوى الماء فقط.

يوقف أبي الشاحنة في ساحة البيت. أصبحت مصدر تسلية لدجاجات جدتي، التي صارت تتسلقها وتقفز من فوقها. اصطحبني يومًا إلى مصنع الأخشاب، رأيت أكوامًا كبيرة من نشارة الخشب على جانبيّ الآلات التي تحوّل

جذوع الشجر إلى ملاعق. لكنني حين بدأت أتمرغ داخلها، وأنا أشعر بسعادة تقارب تلك التي تنتابني حين أكون بين ذراعي خالتي "فلورا". صمّم أبي على المغادرة، ولم يسمح باللعب لوقت أطول. كنت أعلم جيدًا أن سبب إصراره على العودة إلى المنزل بسرعة هو افتقاده لـ"أينجل"، واشتياقه إلى أن يحمله فوق كتفيه ويسير به في حديقة البيت أو في طرقات القرية، وسط قهقهات الصغير وهو يحاول الإمساك بفراشة أو ذبابة.

اعتادا أن يمضيا أوقاتهما معًا بهذه الطريقة، إلى أن فشل أخي في تجاوز عامه الخامس. لا زلت أذكر عيد ميلاده الأخير، حين أطفأنا خمس شمعات كانت تنير ظلام الغرفة. لم يستطع أن يتخطى خمس حبّات فاصوليا، خمس تفاحات، خمس سنوات فقط يا "دورنتينا"، لا أكثر. حدث الأمر كما أقصّه عليكِ الآن بالضبط. كتبته بالتفصيل في حجرتي بـ"آيوا"، وأنا أنظر بين الحين والآخر إلى نصائح "ستيف ليبتوف" المعلّقة أمامي. لم أستطع إضافة تفاصيل خيالية، ولا إزالة شيء من الوقائع العالقة بذاكرتي. إنها جزء من حياتي.

والآن، وبينما أتحدث عن الحياة يا "دورنتينا"، ها أنا أسمع صوت "هوت هيد هوك" ورائي. يتسلل خلفي كقنفذ، في جولته التفتيشية على الخط الأمامي، قبل أن ينزل إلى المعسكر المجاور للكنيسة. عاد الهدوء إلى المكان. حتى الحشرات ساكنة، لا صوت لها.

هناك ضوء وردي يلمع فوق الحافة العلوية لعدسة بندقيتي، ثم يختفي. لا بدّ أن الشمس تحلّق فوقكِ الآن، وهي في حالة ترقب، تتساءل عمّا هو حقيقي، وما هو زائف في هذه الحكاية. هناك شمس أخرى، تسكن خيالي وذاكرتي وصفحات روايتي. الوقت شتاء، وهم عائدون من البلدة؛ هو وهي وطفلاهما.

أنتِ أيتها الشمس كنتِ تطلين عليهم من خلف الصقيع الذي يغطي قمم الأشجار، أليس كذلك؟

كنا قد اقتربنا من قريتنا. لاحت البيوت الواقعة على أطرافها أمام أعيننا. غاصت أقدامهما في الثلج، في الطريق المؤدّي إلى السوق. كنت في حوالي العاشرة، وكان هو صغير السن والحجم. حملاه بالتناوب على كتفيهما، فيما سرت أنا متكئًا على العصا التي استخدمها عند نزول الثلج. قرر أن ينزل ويسير بجواري. مشى أبي وأمي أمامنا. أعلن أنه يريد التبول. ساعدته أمي. صنع دائرة ببوله في الثلج، وهو يضحك بسعادة. حين انتهى، أمسكت بيده وواصلنا السير. أفلتَ أصابعي، وانحنى وتناول بعض الثلج ووضعه في فمه خلسة. تابعتُ عصفورًا يتنقل على الأرض بخفة، وأردت اصطياده بقبعتي. نسيت خلال ذلك "أينجل" وأغفلت مراقبته. حين التفتت أمي فجأة للإطمئنان علينا، شاهدتُ في عينيها وملامح وجهها مزيجًا من الذعر والصدمة، وهي تقف حائرة بفم مفتوح. التفتَ أبي بدوره، وارتسم على وجهه نفس التعبير، ووقف ذاهلًا وهو لا يصدّق ما يراه. خلال لحظة، دفع أمي وراءه ووقف أمامها ببضعة خطوات.

عمّ السكون التام المكان. حتى الطيور توقفت عن التغريد وهزّ الأغصان.

نظرتُ خلفي، فهالني ما رأيت.

وقف "أينجل" معطيًا ظهره لنا، وأمامه ذئب جميل الشكل، بساقين رشيقتين وعينين لامعتين. كنت أعرف من خلال القصص والحكايات أنه كائن خطير متعطش للدماء، مستعد دائمًا لالتهام ضحاياه الأبرياء.

في المسرحية المدرسية "الذئب والحَمَل"، لعب "إيكو لاودماوث" فرَّاش المدرسة دور الذئب الشرير. وكما كنا نحن الصغار نكرهه كشخص، كرهناه أكثر وهو ذئب.

بطبيعة الحال، لم يكن "أينجل" يعرف شيئًا عن الذئاب.

وقف الذئب على ساقيه الخلفيتين وراح يلعق بلسانه كرة الثلج التي قدّمها له أخي.

لاحظت أن فراءه يلمع بندف الثلج التي تتخلل شعيراته.

حين أحسّ بأن هناك من يراقبه، رفع رأسه نحونا. نظر إلى أبي أولًا، ثم لعق كرة الثلج مرة أخيرة، قبل أن يستدير ويخترق الشجيرات العارية من الأوراق. وقف وراءها وحدّق بنا بنظراته الثابتة للحظات، قبل أن يختفي تحت عربة الترام المعلقة في الهواء.

كان الترام يمر فوق القرية، حاملًا جذوع الشجر المقطوعة من الغابة، إلى البلدة. توقف عن العمل بعد فترة، وبقيت الجذوع داخله، في طريقها للمصنع. ظلت الأخشاب الغليظة معلقة في الهواء لسنوات طويلة. خشي الناس من المرور تحتها، خوفًا من أن يقع عليهم الخشب، ويسحقهم تحت ثقله.

لا أدري كم بقيت الأخشاب معلقة فوق رؤوس الناس هكذا. بعد فترة، بدأ اللصوص يسرقون الأسلاك الكهربائية والأعمدة المعدنية، ويفككون العربة ويستولون عليها قطعَة قطعة. كان "إيكو لاودماوث" أحد هؤلاء، وبنى أجزاء من بيته الجديد في البلدة مستخدمًا أشياء من هذه العربة.

مضى الذئب في طريقه، لكننا بقينا واقفين في نفس المكان دون أن ينطق أحدنا بكلمة. تحرك أبي أخيرًا، وحمل "أينجل" فوق كتفه، ولفّ ساقيّ الصغير حول رقبته. أمسكت أمي بيدي، ودخلنا القرية ونحن لا نزال في حالة صدمة بالغة.

لم أستوعب ما حصل بالضبط إلا بعد أن تدثرت جيدًا بـ"بلوفر" جدتي، وبدأ الدفء يسري في جسدي. فهمت أن الذئب كان سيأخذ "أينجل" ويختفي به وسط الضباب الأبيض الكثيف، دون أن نلاحظ. كان بإمكانه أن ينهش تلك اليد الصغيرة. كان سينحره كحَمَل صغير، ويترك دماءه تسيل على الثلج. كان سيبتلعه حيًّا، كما في حكاية "ليلى والذئب". كان سيأخذه منا، وما كان سيعيده لنا أبدًا. كان سيخيفه ويفقده النطق، وسيضطر الطفل بعدها إلى مخاطبتنا بحاجبيه.

ما إن دخلنا البيت، حتى أحضرت أمي كوبًا من الماء أذابت فيه بعض السكر، وجعلت "أينجل" يشربه، ثم لثمت الأيقونة المعلقة وراء الباب. رسمتْ إشارة الصليب حول نفسها، وعاهدت الله بصوت مسموع أن تهدي الكنيسة حَمَلًا في هذا التاريخ من كل عام.

للأسف الشديد، لم يتسنّ لها تنفيذ عهدها.

حين علمت جدتي "فريكلز" بقصة الذئب، أخذت تسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا وهي تحكم ربط الـ"إيشارب" تحت ذقنها، وتردد:

- هذا سيء، سيء جدًا.

ذلك المساء، أخذوه إلى "واندا"، ساحرة القرية، لتقرأ عليه تعاويذ تقيه الخوف والصدمة.

بعد نحو ثلاثة أيام، نسينا جميعًا ما حدث وبدأ "أينجل" يطارد الكلب الكبير الذي يمتلكه "الأب فيزان"، معتقدًا أنه نفس الحيوان الذي كان يلعق الثلج من يده، منذ أيام قليلة.

ها أنا أسمع صوت خطوات "هوت هيد هوك" ثانيًة يا "دورنتينا". ليس قادمًا نحوي، لحسن الحظ. يبدو أنه يغادر المكان، في طريقه نحو سلاح المدفعية.

أشعر بأنكِ سعيدة، لأنه لن يقاطع الحكاية التي أقصّها عليكِ. أراكِ تبتسمين، وتحركين رموش عينك. لا بدّ أنكِ متشوقة لسماع نهاية هذه الأحداث. نحن نقترب من النهاية فعلًا. الأمور السيئة تحدث بسرعة كبيرة يا "دورنتينا"، أمَّا السعيدة فتحتاج وقتًا طويلًا.

في ذلك الصيف، مرض "أينجل".

"أينجل" مريض جدًا يا "دورنتينا".

اضطرت أمي لأن تأخذه إلى البلدة. في الأسبوع الأول، أمضيت معظم الوقت بصحبة جدّي في انتظار عودتهما من المستشفى. يجلسني جدي بجواره، ويقشِّر لي البطيخ البارد. أتناوله وأنا أقلّب صور خالتي "فلورا" والبطاقات البريدية التي أرسلتها من أماكن مختلفة. البطاقات الأخيرة وصلت منذ شهر تقريبًا، وجاءت من مكان يدعى "سور دو كوك" على جزيرة ما اسمها "سنتيلي". تعلمت في حصص الجغرافيا أن الجزيرة هي اليابسة المحاطة بالماء من جميع الجهات، لكنني لم أفهم كيف وصلت خالتي إلى هناك وهي لا تعرف السباحة!

بينما كنت أنظر إلى الصور، تذكرت قصة "روبنسون كروزو" التي قرأتها منذ فترة. رأيت خالتي وهي تجلس أمام ببغاء، تحاول أن تعلمه كيف يتكلم مثل الإنسان. إنها مضطرة لتناول بيض السلاحف. لا يوجد طعام آخر هناك. إنها وحيدة، وتشعر بالخوف عند حلول الظلام.

ترى ماذا تفعل في تلك الجزيرة؟ وأين تقع "سنتيلي" هذه أصلًا؟

تطلّ عليّ خالتي من الصور بثياب تشبه تلك التي تلبسها النساء في أفلام السينما المتنقلة التي تزور القرية في الإجازات. كنا نراهن يتحركن على الجدران والأسقف. هل صارت خالتي واحدة منهن يا ترى؟

سافرتْ منذ زمن، ولم يرها أيّ منا بعدها. زار القرية "دون فيتو ديل كامبو بانانا"، الذي جاء في قطار الليل، الذي يمتلىء عادةً بالمشرّدين، واصطحبها معه قائلًا بأنه سيعود قريبًا لافتتاح مصنع للسيارات، في موقع مصنع الأخشاب القديم. لم أصدقه أو أثق به، لكن خالتي فعلت، وغادرت معه لتساعده في شراء الآلات والمعدات اللازمة. لم تعد بعدها. إنها موجودة في الصور فقط. أفتح علبة الصور الثانية. أراها في مزرعة برتقال. الثمار تتدلى من الأشجار، وخالتي تقف تحتها، وبجوارها كلب بسيقان طويلة، يشبه إلى حدّ كبير الذئب الذي اقترب من "أينجل". على ظهر الصورة، كتبتْ سطرًا يقول بأن الحيوان الواقف بجانبها ذئب. أحسست بالخوف، وارتجفت يداي، فسقطت الصورة من بين أصابعي.

بعد أن تمالكتُ أعصابي، بدأت في ترتيب الصور داخل الصندوقين، بحسب تواريخها. خبّأت صورة بديعة لها، داخل قميصي. فيها، تجلس خالتي "فلورا" في حجرة مغطاة بستائر وردية هفهافة، وفي النافذة الكبيرة وراءها يظهر البحر وبعض القوارب الصغيرة. كنت متأكدًا من أنه بحر، لأنني لمحت بعض أشجار النخيل على الشاطىء، ورأيت في ركن من النافذة جانبًا من سفينة

كبيرة. أدركت حينها أن هذه الجزيرة في مكان بعيد جدًا، خلف البحار العظيمة، وخلف الجبال والتلال والوديان.

انتهيت من ترتيب الصور، وتأكدت من أن صورة خالتي لا تزال داخل قميصي. انزلقت إلى بطني. قلت لنفسي بأن الأمر غير مهم، لأن حزام بنطلوني سيمنعها من السقوط.

في تلك الليلة، ولليالٍ كثيرة بعدها، حلمتُ بأنني أسافر بحرًا، ولكنني في كل مرة كنت أضلّ طريقي إلى الميناء الصحيح. في بعض الأحيان، ألتقي "روبنسون كروزو". في أحيان أخرى، لا أجد سوى التماسيح والقردة. لم أستطع، ولا مرة، الوصول إلى الجزيرة التي تسكنها خالتي.

في جميع أحلامي، أرى "أينجل" وهو يلوّح لي بيده الصغيرة، ثم يتحول إلى حمامة بيضاء تحاول اللحاق بي دون جدوى، وفي كل مرة أصيح مخاطبًا إياه:

– انتظرني، سوف أعود لك.

كنت منشغلًا بالصور والأحلام، حتى إنني لم ألحظ كم مرّ عليّ وأنا في بيت جدّي؛ لكنه أيقظني صباح أحد الأيام، وأخبرني بأنه سيعيدني إلى القرية، لأنه سيذهب لحفر بئر في مكان بعيد جدًا، ولن يستطيع تركي بمفردي في المنزل، دون رعاية. قبل أن نغادر بخمس دقائق، حضرت أمي لتوديعي. ابتسمت لي، لكن الابتسامة كانت على شفتيها فقط، أما عيناها فكانتا خاويتين، خاليتين من أي مشاعر. كنت أعلم أنها ستبقى في المستشفى مع "أينجل" الذي تساقط شعره الذهبي، وتغضن وجهه وامتلأ بالتجاعيد. جاء أبي معها، وربّت على كتفي. سرتُ مع جدي. التفتُ نحوهما ثلاث مرات، وفي كل مرة أراهما واقفين أمام بوّابة البيت تعلوهما سحابة صغيرة ترش عليهما مطرًا خفيفًا.

أمضيتُ بقية الصيف أغالب مشاعر الوحدة، بصحبة جدتي. في كل يوم، كانت تقلي لي بيضًا وباذنجانًا وفلفلًا. قطفنا معًا العنب الذي يحمل اسم "سلطان"، وحين انتهينا من تناوله قطفنا النوع الآخر الذي يدعى "الملكة". نذهب سويًا إلى

جدول الماء، أجلس على الضفة أراقبها وهي تقلب الأحجار الكبيرة بحثًا عن الأسماك. في أحد الأيام، تمكنت من اصطياد ثلاثة عشر نوعًا مختلفـًا. تمسك السمكة ثم تلقيها نحوي، فأتـلقـفها منها وأغرزها في عصا رفيعة. نسير على امتداد الجدول. أنا على الضفة، وهي تخوض بساقيها في الماء. في ذلك النهار، وجدت جدتي ثلاثة ثعابين ماء. في كل مرة، تلفها بيدها على هيئة قرص، وترميها بعيدًا، بهدوء وبساطة. عندما بدأت الشمس في الغروب، أردت أن أقول لها بأنه بات لدينا عدد كبير من الأسماك، يفيض عن حاجتنا، لكنني لم أستطع. كانت قد دخلت في نقاش غاضب مع الماء، سرعان ما تحوَّل إلى شجار حادّ.

حين عدنا أخيرًا إلى البيت، كانت تنورتها السوداء مبللة تمامًا، وتقطر ماءً. فور دخولنا الحديقة، شاهدنا رجلًا سمينًا بانتظارنا، يلبس حزامًا قسَّم جسده إلى نصفين ممتلئين. أحاط رقبته بـ"كرافتة" ضيقة. لاحظت فور رؤيته أنه يشبه "هاردي" الذي أراه في التلفزيون في الفقرات الكوميدية "لوريل وهاردي". الفرق الوحيد هو أنه لم يكن يضع قبعة على رأسه. طفت حوله لأراه جيدًا من جميع الجوانب، فاكتشفت وجود شخص آخر في الحديقة. رجل قصير، يشبه بدوره "لوريل". تبادل الرجلان نظرات قلقة، ثم حدّقا بنا وبالعصا الممتلئة بالأسماك المتراصة. نظرت إليهما جدتي، عبر أهدابها البيضاء، بعينين متسائلتين.

توجهتُ نحو دلو الماء، بجوار البئر، لأضع الأسماك داخله. أخرج الرجل السمين ورقة، ثم لفها حول إصبعه. فتحها، ثم أعاد لفها حول إصبع آخر. فتحها، ثم ضغط عليها بين كفيه، وأخيرًا ناولها لجدتي. لم تكن العجوز تعرف القراءة، لكنها أخذتها منه. قال وهو يتحاشى النظر إلينا، مثبتًا عينيه على مدخنة المنزل:

- أنا آسف جدًا. لقد توفي الإثنان.

نظرتُ أنا أيضًا إلى المدخنة، باحثًا عن الشخصين اللذين توفيا هناك، أيًا من كانا.

انتبهتُ على سقوط الورقة من يد جدتي. لاحظت أنها تحمل كتابة بخط أمي.

أحسست في تلك اللحظة بأن صورة خالتي "فلورا" غير موجودة في مكانها على بطني، وأدركت بأنني فقدتها إلى الأبد. لعلها انزلقت إلى ملابسي الداخلية السفلية، لكنني خجلت من البحث عنها أمامهم.

قال الرجل السمين:

- الإقدام على الإنتحار رحمة قد لا يفهمها الإنسان، لكنها نوع من الحرية والإرادة المطلقة.

نظر إلى زميله، وبدا أنهما يستعدان للرحيل. أردت أن أسألهما عمّا حدث لوالديَّ بالضبط، لكنني لم أستطع. اختفى صوتي تمامًا. فتحت فمي، لكنني فشلت في نطق أي حرف. لا أدري ما الذي حدث يا "دورنتينا"، لكنني أتذكر أن رأسي كان على بطن الضابط البدين. أحسست بعدها بأنني داخل حجرة مغطاة بستائر من بيوت العنكبوت، وإنني أسمع صوت سفينة بعيدة.

جلست جدتي على مقعدها الخشبي ذو الثلاثة أرجل، وهي تتحدث بشكل متواصل مع فراشة بيضاء حطت على حجرها.

# 20

بالصدفة، قادت فراشة بيضاء الضابطين إلى المكان الذي خبّـئا فيه رسالتيهما، تحت حجرين كبيرين.

أصدر السمين أوامره بألا يتم تحريك شيء من موضعه.

كانا مستلقيين على قضبان السكة الحديد، متجاورين، يمسك كل منهما بيد الآخر. جثتان هامدتان. قال السمين بأن السائق يؤكد أنه لم يرهما. وفقًا للضابط الآخر، كان موتهما فوريًا، ومع أنه أوضح هذه النقطة جيدًا، إلا أن جدتي سألته ثلاث مرات إن كانا قد تألما لحظة وفاتهما. شرح لها بصبر، ثلاث مرات، أن الموت الفوري لا يسبب أي نوع من الألم أو المعاناة.

ناولَنا السمين الرسالتين. رسالتها مكتوبة على ورقة انتزعت من دليل التليفونات، أما هو فقد ترك بضعة سطور كتبها على علبة سجائر. لا بد أنها كانت تبكي. أمسك بيدها يشجعها، كل ما في المحطة يهتز، القطار قادم، مطلقـًا صفارته القوية في أرجاء الوادي الفسيح، عجلاته تتحرك بانتظام وتحتك بالقضبان أسفلها. يدها ترتجف، لكنها تواصل الكتابة. من خلال الحروف المتعرجة والمتداخلة، تخبرني بأن عليّ أن أسعد، فالأحياء وحدهم يمتلكون وقتًا للذكريات.

كتبت تقول:

- "تذكر يا عزيزي كيف كنا نطعم العصافير على حافة الشباك. تذكر صباحاتنا في حقل التبغ، والأفلام التي تابعناها معًا على الجدران، تذكر رحلات القطار في طريقنا إلى البلدة للقاء جدك "نيك" وخالتك "فلورا". الحياة مجموعة ذكريات. هذا هو جوهرها. تذكر الغجر وخبزهم الأبيض، تذكر أحلامنا التي كنا نسردها لبعضنا ونحن نجلس تحت شجرة السنط في حديقتنا. تذكر القمر الكبير الذي اعتاد مؤانستنا بصحبة النجوم. تذكر عندما كنت أوقظك أحيانًا وأنا أقول لك: "أنظر من جاء لزيارتنا بالليل وأنت نائم!"، مشاركته لنا الغرفة ذاتها كانت تغضبك، فكنت تخبىء رأسك تحت الغطاء حتى لا تراه".

كتبت أيضًا عن الزلاجات الخشبية التي كانت تساعدني في صنعها. استعدتُ في مخيلتي كيف كانت تدفعني عليها المرة تلو الأخرى من على الجانب المرتفع في الحديقة، دون أن تظهر تعبها أو انزعاجها.

أضافت في خطابها:

- "تريدك أمك أن تحتفظ بذكرياتكما المشتركة. هذا هو جوهر الحياة يا طفلي العزيز. ذكريات تجمعنا معًا أنا وأنت ووالدك وأخوك "أينجل"، ذلك الحبيب الذي طار من بيننا كفراشة صغيرة، ولكن هكذا هي الحياة. على أي حال، أرغب في أن نُدفن نحن الثلاثة معًا في قبر واحد. أرجو أن تبلّغ جدّك "نيك" وجدّتك "فريكلز" بأنني أريدهما أن يزرعا على القبر زهورًا بيضاء وزرقاء، من النرجس والليلك".

الجزء الأخير من خطابها كان موجهًا لجدّي، وكتبته بأحرف كبيرة، ترجوه فيه أن يصطحبني لأعيش معه في البلدة، وأن يلحقني بالمدرسة هناك، وأن يعلمني لأصبح قائدًا عسكريًا أو طبيبًا. طلبت منه أيضًا أن يكتب لي جزءًا من بيته، كميراث أستفيد منه مستقبلًا، كما لو كنت ابنه.

ألحت عليه بشأن تعامله معي:

- "من فضلك يا أبي، عامله كما لو كان ابنك بالضبط. لا تسمح لأحد بأن يضربه أو يهينه، أو أن يتسبب في أي شيء قد يحزنه".

كتبت بحروف أصغر حجمًا:

- "سامحني يا أبي على رحيلنا بهذه الطريقة، دون وداع، ودون عناق؛ لكن الأمر أكبر من احتمالي أنا وزوجي "بين"، ما كنا سنصبر على الحياة دون ملاكنا الذي انتظرناه طويلًا، فأتى وغادر كفراشة بيضاء".

حين انتهيت من قراءة الخطاب، كرر السمين مرة أخرى بأن فراشةً هي التي قادتهما إلى موضع الخطابين. قال بأنه حين أخذهما، حطت الفراشة على يده. حاول الإمساك بها، لكنها اختفت بسرعة فائقة.

علق الضابط النحيل:

- فراشة غريبة!

أجابه السمين بانزعاج:

- غريبة هي طرق الله.

- كان من الممكن استخدامها كدليل.

- حين توفي الرجل العجوز، أعني أبي "ليو بايتينج ماكهاوند"، طارت ريشة سوداء في حجرته. لم نعرف من أين جاءت، أو لأي طائر تنتمي، هذا إن كانت تنتمي لطائر أصلًا. أخذتها وطفت بها على جميع السحرة والمنجمين والمعالجين الروحانيين الذين أعرفهم، وأجمع الكل أن الريشة ليست لطائر.

رسمت جدتي "فريكلز" علامة الصليب بأصابعها، ثم طافت بها على وجهها الذي تغطيه تجاعيد عميقة. تأملتْ للحظات خط ابنها. صحيح أنها لا تعرف القراءة، لكنها تستطيع أن ترى وتفهم. لقد كتب ابنها سطورًا قليلة فقط، بخط مرتجف، خائف، وحروف ذات جوانب وزوايا حادة. القلم الرصاص يخترق الورق في بعض المواضع من شدة ضغطه عليه. قال بأنهما حين عرفا بأن ابنهما قد فارق الحياة، قررا معًا اللحاق به. ذكر أمرًا لم أكن أعرفه حتى تلك اللحظة يا "دورنتينا"؛ قال بأن الأطباء قد فتحوا رأس "أينجل" لمحاصرة المرض واستئصاله من هناك، لكنهم فوجئوا بأنه قد هرب منهم واستقرّ في عظامه. حينها، قرروا أن الحالة ميؤوس منها.

قرأ علينا الضابط النحيل ما كتبه أبي لأمه:

- "ادفنينا معًا في مقابر القرية، خلف الكنيسة، بجوار شجيرات الورد. جميعنا معًا، أنا وهو و"ماري جولد" متجاورين، حتى لا نضيع من بعضنا عندما يحلّ الظلام".

حين انتهى، تناولت منه جدتي الورقة بطرف إصبعين، كأنها تمسك فراشة.

لا بدّ أن القطار كان يقترب من المحطة في تلك اللحظة، يسبقه صفيره العالي، ولذلك اكتفى أبي بهذه السطور القليلة. لو كان يملك المزيد من الوقت، لكتب شيئًا عني بالتأكيد. بضع كلمات فقط؛ لذكر اسمي مثلًا، أو أشار إليّ بكلمة "ابني"، رغم أنني لا أتذكر مطلقًا أنه استخدم هذه الكلمة من قبل.

كان سيفعل ذلك، لكن الوقت لم يسعفه. وصل القطار في موعده بالضبط.

قال السمين، وكأنه كان حاضرًا معهما:

- حاولتْ أن تفلت يده وتبتعد، لكن القطار كان يقترب منهما. حاولتْ في المرة الثانية أن تدفعه باتجاه العشب على جانب القضبان، لكنه تشبث بها وأبقاها بجواره. لم يتوقف القطار. لم يرهما السائق.

هبّ النسيم، فتطاير الخطابان بين أصابعنا.

قال السمين:

- لا نستطيع تركهما معكما.

أضاف زميله وهو يهم بركوب السيارة:

- نحتاجهما في التحقيقات.

مدّ السمين يده، فناولته جدتي الخطابين بأصابع مرتجفة، مترددة. أخذهما بلا اهتمام، وكوّر أطرافهما بين أصابعه.

تابعتُ الضابطين وهما يبتعدان. شعرت بأسى بالغ يا "دورنتينا"، وبكيت كما لم أبكِ من قبل. لم تنزل الدموع من عينيّ، لكنني أحسست بها تسيل

بداخلي، وتتردد في أنفاسي. ولثلاثة أيام، ظللت أتساءل في حزن: "إن كانا يحبانني حقًا كما كانا يقولان، فلماذا تركاني وحيدًا؟ لماذا لم يأخذانني معهما؟"، ولأول مرة أتأكد من أنهما لم يحبّاني كما أحبّا "أينجل". لم يتحملا فكرة العيش دونه، لكنهما في المقابل لم يجدا سببًا يقنعهما بالبقاء معي.

هكذا مرّ عليّ ذلك الشتاء، تعصف بي دوامة من التساؤلات المتوالية.

حين جاء الربيع، أزهر النرجس والليلك، وغطت القبر زهور بيضاء وزرقاء. حضر جدي "نيك نيكلز" إلى القرية مرتين، ليصطحبني معه إلى البلدة. لكنني رفضت المغادرة، وترك جدتي بمفردها. كنت أذهب معها إلى النهر، ونصطاد السمك سويًا. نعثر أحيانًا على قطع نقود معدنية، ونحن نجمع الحلزون والفطر من الحقول المحيطة بالبيت.

كوّنت وإياها جبهة موحدة، نواجه بها أحزاننا.

في ذلك الشتاء، ومع اقتراب أعياد الميلاد، أنشدنا في المدرسة ترانيم دينية. انبعثت أصواتنا عبر الشبابيك المفتوحة، وانسابت في جميع أنحاء القرية. حين انتهينا، تعالت أصوات التصفيق في كل مكان.

أشياء مثل هذه، والمحبة التي لمستها من الناس حولي، خففت عني بعض الشيء.

قبيل رأس السنة، حضر فرَّاش المدرسة "إيكو لاودماوث" قادمًا من البلدة حاملًا كيسًا ضخمًا مليئًا بالحلويات. كنت وبقية الأطفال نتزلج في ساحة القرية. اصطففنا أمامه بحماس، في انتظار القطع الشهية التي سيوزعها علينا. حين هممنا بالتهامها، اقترب رجلان يرتدي كل منهما معطفًا طويلًا، واصطحبا

"لاودماوث" معهما في سيارتهما الـ"جيب". في اليوم التالي، ذاع في القرية نبأ سرقته لهذه الحلويات، وغيرها من الأشياء.

كان معتادًا على السرقة، ولذلك عانت المدرسة طويلًا من نقص في الطباشير وخرائط الجغرافيا والكرَّاسات.

بعد أن خرج من القرية بتلك الطريقة، لم يعد إليها أبدًا. قامت زوجته الأولى وابنهما "أبراهام"، بتحميل جميع ممتلكاتهما في سيارة نقل، ووضعا فيها أيضًا أبواب البيت ونوافذه، وأقفاص الحمام الذي يربونه تحت أسرّتهم، وتوجها إلى البلدة.

إنه نفس "إيكو لاودماوث" الذي حللتُ محله هنا يا "دورنتينا".

في تلك الفترة، فرضت إدارة المدرسة علينا غسل أيدينا بماء أضيف له مطهر أخضر اللون، وضعته في إناء بجوار البوابة. شرحت لنا معلمتنا بأن مرض الكوليرا قد بدأ في الإنتشار في القرى والبلدات المجاورة، ولذلك ينبغي علينا غسل أيدينا جيدًا، واستخدام المطهرات، حتى نتجنب انتقال العدوى.

أصبح لماء الشرب طعم غريب، غير مألوف. لحسن الحظ، لم يمرض أي من الناس في القرية، لكن الدجاج أصيب بوباء قضى عليها. لم يهتم أحد بالأمر، إلا جدتي بالطبع. امتلأت الأزقة بالطيور النافقة، وانتشر الريش في كل مكان. طاف الغجر في الطرقات، وحملوا الطيور الميتة على عرباتهم الخشبية، البدائية الصنع. ولأيام، كنا نشم رائحة الدجاج المشوي آتية من جهة مزرعة التوت بجوار السكة الحديد، تملأ جميع أرجاء القرية.

علّقت جدتي بأن الغجر لا يموتون، لأنهم لا يمتلكون مقابر. صدّقتها وبتّ أعتقد أن الموت مرتبط بوجود مقابر.

ذلك الشتاء، هطلت الثلوج بغزارة، وغطت جوانب النوافذ. ولأول مرة في حياتها، تشعر جدتي بالبرد خلال ذلك الفصل. اعتادت أن تبرد في الصيف فقط. بدأت تمد قدميها داخل الفرن لتدفئتهما، دون جدوى. كنت أجلس بجوارها، عاجزًا عن مساعدتها. تمر الرياح عبر الشقوق التي تتوسط الباب، وتستقر داخل الفرن، مصدرة أصواتًا هامسة. تخاطبها جدتي أيضًا، ثم تقول لي:

- هناك من يفكر بنا في هذه اللحظة، فليباركه الرب.

ثم تواصل كلامها مع النار المشتعلة في قلب الفرن. حين كنت أنظر إليها باستغراب، تقول بأنها تتحدث مع شقيقها وشقيقتها. أخبرتني بأنهم تفرقوا صغارًا، ولم يلتقوا ببعضهم بعدها. قالت بأنهم لم يعودوا يعرفون بعضهم. تتذكر أسماءهم. تقولها لي بصوت طفولي. تتحدث إلى زوجها أيضًا. سافر للعمل بالخارج. أرسل خطابًا من هناك، يؤكد لها فيه بأنه سيعود. بعد ستة أشهر، وضعت طفلهما الوحيد. أسمته "بين إي رويال". مر عام تلو الآخر. مرت ثلاثة وثلاثون سنة، لكنه لم يعد ولا تعرف عنه شيئًا. قالت:

- إن كان لا يزال على قيد الحياة، فقد نسيت كل شيء، وأعلن أنني قد سامحته يا ولدي؛ أما إن كان قد مات، فليرحمه الله، وليرقد في سلام أينما كان.

التفتت نحوي ببطء. أحسست بأنها ترغب في إخباري شيئًا، لكنها مترددة.

نبح كلب في الخارج. قذفت الريح بمزيد من الثلج على شباكنا. تناولت جدتي بلاطة دافئة ووضعتها على حجرها. سكتت قليلًا، ثم قالت بأنها ستلحق بالآخرين قريبًا جدًا.

أضافت:

- لم أعد أحب الوضع هنا. لا أجد أحدًا يا صغيري أشاركه ذكرياتي. كل من أعرفهم سبقوني إلى هناك. حتى دجاجاتي لم يعدن موجودات.

قالت بعد برهة:

- أنت ابننا، نعم، ابننا الذي اخترنا له اسم "كونستانتين". أضفى وجودك البركة على حياتهما يا حبيبي. وجودك منحهما "أينجل"، ملاكي الجميل، لكن المسكين مرض وعاش في عذاب وألم، ومات صغيرًا. لم يشبع من اللعب، ولم يأخذ كفايته من الحب والأحضان. سكن في قلبيهما، ولذلك لم يستطيعا العيش دونه. أما أنت يا حبيبي، فهل سألاك إن كان بإمكانك العيش دونهما؟ لم يفعلا، حتى لا تجعلهما إجابتك يتراجعان عن قرارهما. أما أنا، فسوف أصارحك بحقيقة الوضع. هذا البرد الذي استقر في عظامي، يؤلمني ويجعلني أدرك بأن نهايتي باتت قريبة. لن أشعر بالبرد هناك.

أضافت:

- لعشر سنوات، فشلا في إنجاب طفل. ثم جئت أنت. أهدتك السماء إلينا يا حبيب قلبي، وبعدها بستة أعوام كاملة جاء "أينجل". أنت تذكر ميلاده، أليس كذلك؟

قاما بتصويرك في تلك الفترة. صورتك الأولى. كنت تعتلي حصانًا خشبيًا. أرسلاها لشخص ما، في مكان ما، لعله كان يرغب في لقائك. لكنهما كانا سعيدين لوجودك معهما يا حبيبي، أعرف ذلك جيدًا. لكنهما تركاك وحيدًا في نهاية المطاف. عارٌ عليهما ألا يفكرا في مصيرك. على أي حال، الواجب يحتم عليك أن تحبهما قدر استطاعتك، كما أحباك هما قدر استطاعتهما. أقصى ما تستطيع. تعال إليّ يا ولدي، دعني أحتضنك يا حبيبي، أنت دافئ جدًا. لم يعد هناك ما يبعث الدفء في قلبي.

واصل الثلج تساقطه، مغطيًا المزيد من زجاج نافذتنا. لاح القمر قليلًا، ثم عاود الإختفاء.

استلقت جدتي على فراشها، وأخذت تستعيد ذكرياتها. لم تقل شيئًا يتعلق بوفاتها الوشيكة، ولم توصني بالمكان الذي ترغب في أن تدفن به، ولا بالزهور التي تفضّل أن أزرعها على قبرها. تدثرتْ جيدًا ببطانيتها، وغطت بها رأسها، وأخذت ترتجف بقوة، ثم انتهى الأمر.

دفناها في القبر الذي يلي قبر ابنها وأسرته، وأحطناها بزهور بيضاء. عقب ذلك، أمسك جدي بيدي، وسرنا معًا نحو البلدة. لم نقل شيئًا طوال الطريق. راقبنا طيور السنونو وهي تبني أعشاشها، وتابعناها وهي تقترب من برك الماء وتشرب، ثم تطير نحو الشمس الغاربة. مشينا طويلًا في صمت تام، ودخلنا سويًا إلى مرحلة جديدة في حياتي. بداية جديدة، حكاية جديدة. ماذا ستفعلين يا "دورنتينا" حين تسمعين قصتي إلى نهايتها؟ هل ستقتلينني كإنسان، أم ستسحقينني كحشرة؟

من يسأل الحشرة إن كانت ترغب في الموت أم مواصلة العيش؟ إنها تخرج للحياة دون أن يستشيرها أحد، ثم يتم سحقها دون أن تدري أن عمرها قد انتهى!

الشمس لا زالت في مكانها فوق القلعة يا "دورنتينا". هل لا زلنا في اللحظة نفسها التي اكتشفت فيها وجودك؟ تلك اللحظة التي كان بإمكانك فيها القضاء عليّ بضغطة واحدة من إصبعك على الزناد؟ هل لا زلت أقص عليك الحكاية؟ هل تقرأين شفتيّ؟ ما الذي حدث للوقت؟ لم أصل بعد في حكايتي مع جدي "نيك" الموضع الذي تبدأ فيه القصة الفعلية.

جدي الذي اعتاد أن يقول أن على كل واحد منا أن يجد الجانب السري للحجر الخاص به بنفسه.

# 21

رغم أننا نسكن في بيت واحد، إلا أنني نادرًا ما كنت أرى جدي، وعندما أراه فإننا نتواصل بصمت تام. في بعض الأحيان، كانت تمر عدّة أشهر قبل أن نتبادل كلمة واحدة، أو ابتسامة. صار بمقدوري أن أظل صامتًا لأيام طويلة متواصلة. عندما يحين موعد الطعام، يخبر أحدنا الآخر ذلك بالعين اليمنى. حين يحل موعد النوم، نقول ذلك بالعين اليسرى. حين أمط شفتي العليا وأفتح فتحتي أنفي على اتساعهما، فذلك يعني أنني أعاني من بعض المشكلات في المدرسة؛ وعندما أمط شفتي لفترة وجيزة فقط فذلك يعني أن كل شيء على ما يرام. لعلّك تقولين الآن، "يا لهما من شخصين غريبيّ الأطوار!"، لكن الحقيقة يا "دورنتينا" أن تلك الفترة بأكملها كانت غريبة جدًا، يكفي أن أذكّركِ بأنه في تلك المرحلة الزمنية نفسها قام نيل آرمسترونج وصديقه إدوين آلدرير بفضّ بكارة القمر، علنًا!

على أي حال، ما أودّ قوله حقًا هو أنني كنت مجرد فتى قروي جاء لمكان أكثر اتساعًا، فوجد صعوبة بالغة في تحديد موقعه في المجتمع الجديد، وأصبح كل ما حوله يثير في نفسه البلبلة والتردد. لم أعد أعرف الشرق من الغرب، ولا كيف أميّز بين المزاح والجدّ، أو بين السخرية والتعاطف. كان لا يزال أمامي ثلاثة أشهر حتى ينتهي العام الدراسي. منذ أن التحقت بصفي الجديد، لاحظت

نظرات زملائي الساخرة، وضحكاتهم المكتومة، وهم يرمقون الصندل الذي أنتعله، بحزامه البلاستيكي؛ وشعري بخصلاته الجانبية المائلة، الذي كانت جدتي تهوى تسريحه لي يوميًا. ربما بسبب قصة الشعر الرديئة هذه، لم يرغب أي من زملائي في أن أجلس بجانبه، ولهذا اضطررت للجلوس في المقاعد الأخيرة بجوار "راميز مامودوفا"، الغجرية الوحيدة في الفصل. حين اقتربت منها، فهمت سر جلوسها بمفردها، فرائحتها كريهة جدًا ولا تطاق.

بطبيعة الحال، لم تكن تعرف أن مدينة باريس في القرن الثامن عشر كان لها رائحة تزكم الأنوف. القمامة تفيض في الشوارع، رائحة البول تتصاعد في الأزقة، مخلفات الفئران تملأ المنازل، العفن ينتشر في خشب مداخل البيوت. الأطعمة العطنة وشحوم الخراف ملقاة بإهمال في المطابخ. أثاث غرف المعيشة مغطى بطبقات من الغبار. ملاءات الأسرّة قذرة ومليئة بالبقع المختلفة. الثوم ينبعث من أنفاس الناس وأجسادهم، مختلطًا بروائح الأجبان النفّاذة والحليب الفاسد. القذارة والعفونة تملأ الأنهار والميادين والكنائس والجسور والقصور.

كنت أودّ أن أقول لها بأن الأمور هناك، في تلك الحقبة الزمنية، كانت ستناسبها جدًا. الجميع سواء، الكل يشترك في انعدام النظافة والروائح البشعة؛ الفقراء والأغنياء والملك نفسه؛ وأنه من قلب هذه العفونة انطلقت الثورة الفرنسية، مطالبةً بالعدل والمساواة، وعقب ذلك بفترة بدأت مدام "بوفاري" في خيانة زوجها "شارل" مع عشيقيها "رودولف" و"ليون".

أحببت أن أخفف عن "راميز"، وأن ألفت نظرها إلى أن التاريخ والقذارة والحب أمور تكمل بعضها. كنت أرغب حقًا في أن أقول لها كل ذلك، لكنها تجاهلت وجودي تمامًا، وكأنها لم تنتبه لجلوس شخص بجانبها.

قررت بعدها أن أتوقف أنا أيضًا عن الإغتسال والإستحمام. بعد فترة وجيزة، نشأت بيننا علاقة تفاهم، وإن لم نتبادل أي حديث معًا، على الإطلاق.

في الكراسة التي اعتدت تدوين الأفكار الحكيمة على صفحاتها، كتبت: "إخترع الناس الصابون ليختبئوا من أنفسهم؛ ليتواصلوا مع شذاه الفوّاح، عوضًا عن التواصل مع أرواحهم".

لعل تواصلي و"راميز" مع روائحنا النفَّاذة كان أمرًا لا بأس به لبعض الوقت، ولكن بعد نحو أسبوعين بدأ كلانا يشعر بحكّة غريبة. معلمنا "بيتر تشيكي"، الذي كان بلا حاجبين، وقف يشرح لنا الدرس ويراقبنا ونحن نهرش بشكل متواصل، ولا نستطيع التوقف. رافقني هذا الشعور المزعج بالحكة وأنا في البيت، وأنا نائم، وفي أحلامي، وطوال الوقت.

أخيرًا، لاحظ الرجل غريب الأطوار، أعني جدي، أن المسألة غير طبيعية. رفع شاربه متفكرًا، ثم اصطحبني إلى المستشفى ليعرضني على الطبيب "ستيف سكراتشيت". حين رآني، قال على الفور بأنني مصاب بنوع من أمراض الحكة، الذي لا يجعلني أنا من أعاني فقط، بل كل من يراني أو يسمع صوتي، إذ أنه شديد العدوى وينتقل بين الصغار خاصًة، بسرعة رهيبة. وصف لي مرهمًا، ونصحني باستخدامه ثلاث مرات يوميًا.

التزم جدي بتعليمات الطبيب، وزيادة في الحيطة والحذر غطى جسدي بأكمله بطبقات كثيفة من ذلك المرهم، كأنه يدهن حائطًا بالطلاء. بذلك المنظر، لم أجرؤ على الخروج، وظللت حبيس المنزل.

لباب البيت تسع فتحات زجاجية عمودية، أحدها في طولي بالضبط. صرت أقف وراءه لأتابع الأولاد وهم يلعبون في الشارع. رأيتهم يشيرون نحوي بأصابعهم، من على مسافة بعيدة.

حين شفيت تمامًا، وتوقفت عن هرش جسدي، ظل الأولاد يتجنبونني ويتحاشون الإقتراب مني. حذى المدرسون حذوهم. حتى معلمة الجغرافيا "فيرا تودستول" التي اعتادت المرور بيننا خلال شرحها للدروس، والتربيت على رؤوسنا، لم تعد تغادر مقعدها في مقدمة الفصل. مدرسة الرياضيات "صوفي سيكستون" لم تعد تقترب من جميع الطلبة الجالسين في نهاية الفصل. حين تهم بالإقتراب منا، تتذكر فجأة أن عليها الإبتعاد، فتستدير وتعود إلى مكانها. تعمدتْ عدم توجيه أي سؤال لي، حتى لا أغادر مقعدي وأحلّ المسائل الحسابية على السبورة. حين ظهرت النتيجة، وجدت أنها قد أعطتني درجة ضعيفة في مادتها.

رحم الله روحها. توفيت قبل أن نزرع غابة "ميلتزي" بالصنوبر. زرعت شجرًة باسمها وتمنيت لو تذبل من فورها، ولا تنمو. كنت أمتلىء بالكراهية تجاه الجميع. نعم، الجميع يا "دورنتينا"، عدا جدي وخالتي "فلورا"، التي كنت أحتفظ بصورة جميلة لها تحت وسادتي، وأحلم بها كثيرًا. حين ينتهي الحلم، أصحو في منتصف الليل، ولا أستطيع معاودة النوم. أظل أخطط للإنتقام ممن حولي، وأفكر في أساليب مبتكرة أعذبهم بها. فيما بعد، قرأت كتابًا يدعى "تاريخ محاكم التفتيش"، وشعرت بالإحباط حين اكتشفت أن كل ما فكرت به لم يكن مبتكرًا على الإطلاق، بل وسائل عرفتها البشرية منذ قديم الأزل!

حسنًا، ما أودّ قوله يا "دورنتينا"، باختصار شديد، هو أنني منذ ذلك الوقت، أعني منذ وفاة "صوفي سيكستون"، ومنذ أن وصل هذان الإثنان القمر،

تغيرت مشاعري تجاه كل من حولي . أفهم الآن بأنني لم أعش حياتي بنيّة تحسين نفسي وظروفي، وإنما تملكتني رغبة وحيدة هي تدمير الآخرين. تركّز تفكيري في الليالي الطويلة على كيفية الإنتقام من كل من سخر مني أو أهانني. أدركت في تلك السن المبكرة بأنني لن أشعر بالحب تجاه أي أحد في حياتي، وأنه لم يعد بمقدور الموت أن يشعرني بالحزن بعد الآن، وليس بإمكان النجاح أن يشعرني بالإنتصار. كان انتحار أقرب الناس إليّ سببًا كافيًا لينتزع من روحي أي استعداد للأسى أو البهجة.

عاهدتُ نفسي بأنني لن أبكي أو أبتسم. لن أحزن أو أسعد، ولن أسمح لأي شيء بأن يشعرني بالإحباط. لقد تركت خيبة الأمل ورائي. مكانها الوحيد هو خلفي. سأضع خطة لحياتي، وألتزم بها، سوف أحرص على تحقيق كل ما أتمناه وأحلم به. أقنعت نفسي بأنني أفضل من يكتب موضوعات التعبير، فنجحت فيما بعد في كتابة المقالات. تخيلت بأنني متميز في مجال الألعاب الرياضية، فأصبحت كذلك. قلت لنفسي بأنني وسيم، وعملت على تحسين مظهري حتى صرت وسيمًا. تخيلت أمورًا كثيرة؛ الحب والجنس والإنتقام والثقافة والكتابة. وسعيت لتحقيق كل ذلك، وغمرني إحساس بالروعة. هكذا بدأت قصصي الحقيقية والخيالية.

في علبة كبيرة، كانت تضم في الأساس زوجًا من أحذية خالتي "فلورا"، بدأت أضع الكراسات التي أكتب فيها أعمالي، إلى أن أصبحت ثلاث عشرة كرَّاسة.

في أحد الأيام، تملكني إحساس بالعظمة، فجلست تحت شجرة البرقوق وبدأت أكتب تلك القصة القصيرة عن "ليلي"، التي قتلتها قذيفة اخترقت القطار الذي تركبه، كما قرأت في جريدة قديمة وجدتها في المكتبة العامة.

استغرقت في الكتابة، فلم ألحظ أن جدي يجلس ورائي. كنت أقرأ الفقرات التي انتهيت من كتابتها، يملأني شعور بالإعجاب الشديد بما صغته، وأنا أبتسم. انتبهت على صوت جدي وهو يقول مؤنبًا:

– كُف عن تضييع وقتك، وقم بممارسة عمل حقيقي.

قال ذلك بوضوح، ودون أن يتلعثم مرة.

الـ"عمل" الـ"حقيقي" بالنسبة لجدّي هو أن يبني الإنسان شيئًا، أي شيء؛ سور، بوَّابة، حائط، جوانب بئر، لا يهم، المهم أن يكون أمرًا مرئيًا وملموسًا، ويبقى صامدًا وصلبًا لسنوات طويلة. لذلك يعتمد جدي في عمله على الصخور والأحجار فقط، ويبتعد عن استخدام الطين والقش.

قبل حلول الليل، انتهيت من كتابة قصتي القصيرة الأولى.

إنها لا تزال موجودة، وصامدة، وصلبة، منذ سنوات بعيدة.

لم يعرف أحد بأنني أكتب سوى جدي. لا، غير حقيقي، كان "إيكو لاودماوث" أيضًا على علم بالمسألة. لأنه كان صديقًا لأبي، فقد اعتاد أن يمرّ بي ليتفقد أحوالي ويطمئن عليّ. لمحني مرة وأنا منهمك بالكتابة تحت شجرة البرقوق. مال نحوي وقال مبتسمًا:

– أنت تكتب! ما العنوان الذي ستختاره لكتابك يا ترى؟

قلت لنفسي، "وما الذي يعرفه هذا الـ"إيكو" عن الأدب والفن؟".

أجبته بصوت مرتفع، دون أن أرفع رأسي:

- "الدجاجة الحبلى".

ارتفعت قهقهاته في المكان، وراح يهز أغصان الشجرة وهو مستغرق في الضحك. امتلأ حجري بالأوراق الخضراء. قال:

- ممتاز يا ولد! شاطر! الديك أيضًا شاطر كما يبدو!

قال ذلك، وخرج من البوابة. لم أعرف إن كان يضحك عليّ أم على الدجاجة.

حين يتكلم "إيكو لاودماوث"، تهتز الأشجار من قوة صوته، ويخيل لمن لا يعرفه أنه يتشاجر. إذا تحدث بالقرب من نافورة الميدان، يمكنك سماعه من داخل الكنيسة على أطراف القرية. حين ينام، يسمع الناس صوت شخيره على بعد ثلاثة شوارع على الأقل، وبخاصة في فصل الصيف، حين يترك نوافذ بيته مفتوحة.

حين غادر القرية، وانتقل إلى البلدة، بدأ يبيع الخس؛ ولكن حين انتشرت بين الناس معلومة مفادها أن الخس ينقل داء اليرقان، تأثرت تجارته. بدأ ينقب عن بقايا الذهب القديم في التلال. سمعته مرة يقول لجدي شيئًا عن كنيسة "كونستانتين وهيلينا". إنها الكنيسة التي ترينها الآن يا "دورنتينا". تحدّث تحديدًا عن القبو الذي يضم ثوبيّ الإمبراطور "كونستانتين" والإمبراطورة "هيلينا"، اللذين لا يزالان في حالة ممتازة، وكأنهما تمت حياكتهما بالأمس فقط. قال لجدي متفاخرًا بأنه يعرف شكلهما جيدًا، وكل ما يحتاجه هو إذن من المطران "سيسينيوس"، يسمح له بإزالة القطع الحجرية الثمانية الموجودة أمام المذبح، ليتمكن من نزول الثمانية والثمانين دَرَجة حلزونية المؤدية إلى القبو.

منذ بضعة أيام يا "دورنتينا"، توجهت إلى الكنيسة لأشعل شمعة. اكتشفت أن تلك القطع الحجرية قد تمت إزالتها. لا أدري إن كان الشخص الذي فعل ذلك قد حصل على الملابس أم لا. كل ما وجدته هو زر ذهبي محشور في فتحة في الأرض بجوار المذبح، يبدو أنه سقط من أحد الثوبين.

لعلنا لا نرى إلا الأشياء التي نرغب في رؤيتها.

لم أعد أتذكّر. تغيرت الكثير من الأمور. الناس وحدهم هم الذين لا يتغيرون بسهولة. ما الذي كنت أقوله في الأساس؟ آه، نعم، تذكرت، "إيكو لاودماوث"! قبل يومين، في المعسكر المجاور للكنيسة، كنت أنظف بندقيتي، حين أتى وجلس بجواري، ولأنني أعرف ولعه بقصة ثياب الإمبراطور والإمبراطورة، أخبرته عن الزر الذهبي المحشور في الأرض. حرّك طرفيّ شاربه بتوتّر، لكنه التزم الصمت. حين لم يبقَ في المكان إلا أنا وهو، أسرّ لي بأنه أنفق ليالٍ كثيرة وهو يحاول شدّ الزر واستخراجه من مكانه، دون جدوى. قال بأنه سيحاول مرة أخرى، لكنه إن فشل فليس أمامه سوى تفجير الكنيسة بأكملها، إن كان هذا ما سيتطلبه الأمر.

قال:

– لا يهمني الزر في حد ذاته. المهم أن تكون ملابس الإمبراطور والإمبراطورة كاملة الأزرار.

رغم أنه راح يرسم علامة الصليب بأصابعه، إلا أنني كنت متيقنًا من أنه لا يحمل في قلبه ذرّة تقديس للرب ولا للعذراء. التفتُ إليه، فوجدته يتأمل مبنى الكنيسة والصليب الذي يعلوها، بنظرات لا تخلو من التقوى.

في إحدى المرات، قبل سفري إلى "آيوا"، كتبت شيئًا عنه. لكنني أشعلت فيه النار بعد ذلك، مع كل دفاتري التي كنت أحتفظ بها داخل صندوق أحذية خالتي. فعلت ذلك عقب عودتي من أمريكا، بعد أن تعلمت الأساليب الصحيحة في الكتابة من "ستيف ليبتوف". صرت أعرف أنه ليس من الصواب أن تدوّن كل ما يخطر على بالك، وتسمي ذلك إبداعًا.

أحرقت كل ما كتبته قديمًا. لم أشأ الإحتفاظ بأي شيء قد يلطخ سمعتي الأدبية بعد أن أصبح روائيًا ناجحًا.

أحرقت كل شيء، عدا قصة "ليلي".

في حقيبة السفر، كانت ترقد نسخة من روايتي الأولى والوحيدة "القنَّاص". إنها العمل الذي يشعرني بالسعادة. أظن أن "ليبتوف" نفسه كان يشعر بالرضا تجاهها، رغم أنني لم أكن قد انتهيت حينها من كتابتها بالكامل. كنت أنوي أن تدور الرواية حول الحب، لكنها – خلال كتابتي لها – بدأت تتحوّل إلى عمل عن الأثر، عن الندبة التي أحملها. العلامة التي لم ألحظها حتى قرأت الرسالة التي تركها الأب "أجاثون"، وأنا بصحبة "بلوسوم".

الأثر، العلامة المميزة، إنها حياتي يا "دورنتينا"، قصتي التي أحكيها لكِ وأنا أنتظر ضغطة إصبعك على الزناد.

تذكرت شيئًا يا "دورنتينا"! لم أحرق كل شيء بالضبط؛ فإلى جانب قصة "ليلي"، احتفظت برواية قصيرة أو "نوفيلا". لم أخبرك عنها، أليس كذلك؟

تخيلي من بطلة تلك "النوفيلا"؟

"راميز مامودوفا" لا غير! اخترت لها عنوان "عطر". حين نظرت إلى التاريخ المدوّن عليها، أدركت بأنني كتبتها قبل أن تبدأ "بلوسوم" بتدريسنا. كانت الوحيدة التي تقدّر كتاباتي وتثني عليها. لا زلت أحلم بها، ولا زلت لا أصدق رحيلها. أراها في منامي، تداعبني بأعواد القش المبللة. هل كان بإمكاني إنقاذها يا "دورنتينا"؟ هل كنت أستطيع فعل شيء أكثر من وضعها داخل صفحات روايتي الوحيدة؟ ربما كان عليّ أن أغرق معها بدلًا من الإستغراق في التفكير بمستقبلي وبإمكانية سفري إلى "آيوا" لملاقاة صديقها الذي أعطتني عنوانه مكتوبًا بخط يدها قبل دقائق من وقوعها في الماء.

سافرت بعدها بكثير، وليس عن طريق صديقها "فيليب بلاكسميث".

كنت قد أصبحت مدرسًا جامعيًا لمادة الأدب المقارن. عانيت في تلك الفترة من البطالة، واكتفيت بنشر بعض القصص القصيرة هنا وهناك. وصلتني دعوة من "ورشة الكتّاب الدوليين بآيوا"، تنصّ على أن المحاضر هو "ستيف جونيور ليبتوف"، الكاتب الذي تُرجمت أعماله إلى أربعين لغة حول العالم، منها اللينجالا واليوروبا والباندا والبامبارا والبلوشية. إحدى رواياته البوليسية باعت عددًا مهولًا من النسخ، يفوق كل ما طبعته بلدي لجميع كتّابها خلال القرن العشرين!

في انتظار صدور تأشيرة الدخول إلى أمريكا، أمضيت وقتي في ترتيب مسودات روايتي، ووضع قائمة بشخصياتها، وتسجيل أفكاري بشأن أحداثها؛ كما زرت قبر جدي مرتين، لأتباحث معه حول مستقبلي. في أحد الأيام، بينما كنت أضع الأوراق الخاصة بهذا العمل داخل حقيبتي، شاهدت من النافذة امرأة تدخل من بوَّابة البيت. امرأة لا أعرفها، ترتدي فستانًا قصيرًا أحمر اللون.

لها جسد شديد الجاذبية. وقفت تحت شجرة البرقوق تنظر إليّ عبر شباك غرفتي، كأنها تنتظرني. أحسست بشيء من الإضطراب والإنزعاج.

أسندتْ يديها إلى السور الخشبي للحديقة، بجوار أحواض النرجس، وبدا أنها توشك على مناداتي، لكنها غيرت رأيها في اللحظة الأخيرة، وسكتت وعضت شفتها في حيرة. أزحتُ الستارة الخفيفة التي تغطي النافذة، فظهرت المفاجأة على وجهها، أعقبها إحساس بالإرتياح، عكسته ملامحها. فتحت فمها لتقول شيئًا، للمرة الثانية، لكنها أغلقته بعد لحظة. أحنت رأسها، وأخرجت رسالة وردية متجعدة الأطراف من جيب معطفها المعلّق على ذراعها. مالت بجسدها على السور الخشبي، وناولتني إيَّاها وهي تنظر إلى يديّ. وقفتْ تنتظر. فتحتُ الظرف. قبل أن أخرج الرسالة منه، نظرتُ إلى وجهها. لم أعرفها. لم يسبق لي رؤيتها. واصلت هي التحديق في يديّ. دعوتها للدخول. بدت متفاجئة لهذه الدعوة. لعلها أحست بالخوف من أن يلمحها أحد. أعدتُ فرد الستارة وأغلقت النافذة.

الورقة داخل الظرف مطوية أربع مرات. هناك صورة فوتوغرافية أيضًا. نظرت إليها، إنها خالتي "فلورا"، عرفتها على الفور، رغم أنها تغيرت كثيرًا. اختفت الإبتسامة من عينيها. وجهها مرهق، رغم أنه يلمع كقطعة سكر.

دخلت المرأة من الباب وقالت:

- سوف تقرأ الخطاب لاحقًا. هل لي بالجلوس؟

جلست ووضعت يديها على ركبتيها في تحفظ. تنهدتْ وطلبت كوبًا من الماء. أحضرته لها، فشربته دفعة واحدة، ثم أخبرتني بأنها في صراع متواصل منذ

ثلاثة أشهر، تسائل نفسها إن كان من الأفضل أن تمزق الرسالة، حتى لا يعرف أحد محتواها، أم هل من الأفضل أن تحضرها لي فلا يعود الأمر سرًا؟

أخبرتني بأنه في الليلة الماضية، بكت ابنتاها الصغيرتان كثيرًا، ولم تستطيعا معاودة النوم. استيقظ زوجها على صوت التوأم، فقام بضربهما. توقفتا عن البكاء، لكن دموعهما الصامتة ظلت تتساقط على وسادتيهما. حين بزغ الفجر، كانتا لا تزالان تنظران إليها في صمت وأسى. لم تطلبا أن تطعمهما أو تحتضنهما، ورفضتا اللعب. ظلت كل منهما تمسك بيد الأخرى. وقف زوجها خارج المنزل، متمتمًا بلعناته الغاضبة وهو يتجرع زجاجة براندي. حين فرغت، دخل الحجرة، تناول بعض النقود المعدنية وقذفها باتجاه الطفلتين، وخرج ليتسول زجاجة براندي أخرى.

أعادت ترتيب طيات فستانها حول ساقيها، ثم سردت عليّ قصتها يا "دورنتينا".

دعيني أخبركِ بها.

# 22

سوف أقص عليكِ الآن الحكاية يا "دورنتينا"، على لسانها:

- احتفظتُ بكل خطاب أرسلته لي بين ملابسي الداخلية. لم أجد مكانًا أكثر أمانًا منه. كانت ترفق كل رسالة بصورة لها، دائمًا في فستان جديد، ومن خلفها مراكب وسفن في بحر صافي الزرقة. في بعض الصور، كانت تقف أمام أشجار مبهجة ذات أزهار وردية اللون، وبيوت كبيرة مليئة بالشبابيك والبلكونات؛ لكن أغلب الصور التُقِطَتْ لها بين أشجار الليمون والبرتقال واليوسفي، وتظهر في إحداها وهي عارية الصدر. في سطورها لي، تصف روعة المكان وفخامة المعيشة. لم تكن بحاجة لذلك في الحقيقة، فالصور تظهر مجوهراتها باهظة الثمن، وأحذيتها الغالية، وشعرها المصفف بعناية وفق أحدث الموضات. كل ما كنت أعرفه هو أنها عملت في بادئ الأمر على متن باخرة، ثم في مستشفى تُدعى "سان ميشيل"، وبعد ذلك في فندق يحمل اسم "كازانوفا"، وأخيرًا في الملهى الليلي "دون فيتو". قبل سبع سنوات، تلقيت رسالة منها تخبرني فيها بأنها قد بدأت أخيرًا عملها الخاص، ودعتني لزيارتها، وطلبت مني البقاء معها لبضعة أشهر. أوصتني بألّا أحمل همّ الأمور المادّية. أضافت بأنها، مع ذلك، على استعداد لتجد لي وظيفة تسلّيني خلال تلك الفترة. وصفت لي الحياة التي سأستمتع بها خلال صحبتي لها هناك. قالت بأننا سنقضي أغلب الوقت في

رحلات بحرية على يختها الخاص، ومعنا أصدقاؤها من المشاهير، من نجوم التمثيل والغناء والرياضة. أرسلتُ لها برقية أبلغها فيها بقدومي. ردّت عليّ بأنها ستنتظرني في الميناء، وأنني سأتعرف عليها بسهولة، من قبل حتى نزولي من على الباخرة. حين وصلت، وجدتها بانتظاري فعلًا، في سيارة حمراء مكشوفة. كانت تلبس فستانًا واسعًا، وبدا وجهها مرهقًا، وتحيط بعينيها الهالات السوداء، وهو ما لم تظهره الصور. ولأن المدينة محاطة بأسوار مرتفعة، فلم يكن بالإمكان رؤية أي شيء من معالمها، أو من الميناء، سوى قباب الكاتدرائيتين. في اليوم التالي، ركبنا سيارتها وتجولنا في المدينة. أكلنا برتقالًا قطفناه بأيدينا من الأشجار. شاهدنا قطارًا يسير في الماء، ثم يواصل رحلته على البرّ. مررنا ببلدة "تورمينا"، ذات الأزقة الضيقة. من فوق سطح كنيستها، شاهدنا الشواطىء والبحيرات بوضوح. رأينا مسرحًا رومانيًا مدرّجًا، يطلّ على بركان جبل "إيتنا". عبرنا "كاتاينا" بحاراتها الملونة وكنائسها الكثيرة. أحسست وأنا أتابع الناس بأنهم يمضون أغلب ساعات يومهم خارج بيوتهم؛ على الحانات والمقاهي وأمام المنازل. قمنا أيضًا بزيارة "أجريجينتو" وشاهدنا المعابد الرومانية الثمانية التي لا تزال في حالة ممتازة. ذهبنا إلى نهر "آنابو"، حيث الماء في صفاء البلور. إن كنتَ تتساءل عن هذا المكان يا سيدي، فإنه جزيرة "سنتيلي" الإيطالية. هناك، استقرّت خالتك "فلورا"، صديقتي الوحيدة في هذا العالم، بصحبة رفيقها "دون فيتو ديل كومبو دي بانانا". يديران معًا فندقًا ساحليًا. تعمل لديهما عشرة فتيات من مناطق مختلفة؛ ثلاث من "ساراندا" بألبانيا، وخمس من "ترانسلفانيا" برومانيا، وواحدة من "آرجوليتشا" بمقدونيا، وأخرى من "سوردوليتشا" بصربيا. بعد أن تناولنا العشاء معًا، عقب اليوم الطويل الذي أمضيناه في التنزه، شرحت لي "فلورا" أن

الناس في هذه الجزيرة ينظرون إلى مهنتها بمنتهى الإحترام. لا أحد هناك يشعر بالحرج أو الخجل من ممارسة أي عمل، طالما أنه يدرّ على صاحبه دخلًا جيدًا. في الليلة التالية، عرّفتني إلى رجل يغطي جسده الوشم. تمشيت معه بين أشجار اليوسفي. أضاء القمر رسم العنكبوت المحفور على كتفه. سألني إن كنت أرغب في البقاء. قال أن بإمكانه أن يرتب لي أمر الأوراق والوثائق القانونية التي تتيح لي ذلك. حين انتهى من كلامه، كنا قد وصلنا إلى حجرة تطل على الفنار. صباح اليوم التالي، وبينما كانت الأمواج تضرب الشرفة الأرضية، وأنا أتناول إفطاري عليها، اقتربت مني "فلورا"، ودسّت في يدي مبلغ خمسمئة دولار، وقالت بصوت هامس: "هذا نصيبك". لم أجرؤ على رفع عينيّ، أو يدي. أخذ جسدي يرتجف بقوة. كانت هذه هي بداية زياراتي الموسمية إلى الجزيرة. منذ ذلك الوقت، أمضي أشهر الصيف بأكملها بصحبتها هناك.

مدّت السيدة أصابعها، وسحبت طرف ثوبها على ركبتيها، وغطتهما جيدًا، ثم أكملت:

- تزوجت منذ ستة أعوام، وأنجبتُ ابنتيّ التوأم. لم أسافر إليها تلك السنة. أرسلتْ بضع تلغرافات تسألني عن السبب. بدلًا من أن أجيب على تساؤلاتها، بعثت إليها بصورة لي وزوجي ونحن نحمل الرضيعتين في سعادة وزهو. توقفت بعدها صديقتي "فلورا" عن محاولاتها للتواصل معي، لكن في العام التالي كنت أنا من اتصل بها. سعدت خالتك، صديقة طفولتي، باتصالي. استمعتْ بصبر إلى بكائي، وتوسلاتي لها بأن تساعدني. اعترفت لها بأننا لا نملك أي مال ننفق منه على طعامنا. صارحتها بأن زوجي فقد وظيفته كمهندس ميكانيكا، وأصبح شيّالًا في السوق. أخبرتها بأن سيارتنا الـ"فيات"

قد تعطلت تمامًا، فلم يعد بمقدوره أن يعمل عليها كسائق تاكسي. قلت لها بأن صحة الصغيرتين معتلّة، وأننا لا نملك ثمن أدويتهما. لم تعلّق "فلورا"، وظلت تصغي إليّ باهتمام، وهي صامتة. حين انتهيت، قالت بأنها ستفكر في كيفية مساعدتي، وأنها ستتصل بي. بعد ثلاثة أيام، اتصلت بي ووصفت لي المكان الذي سأستلم منه تذكرة الطائرة، ثم أخبرتني بأنها ستنتظرني في مطار الجزيرة الوحيد. ولأربعة أعوام متوالية، قمت بهذه الرحلة مع بداية فصل الصيف. لثلاثة أشهر في السنة، أقيم مع "فلورا" في جزيرة "سينتيلي"، ثم أعود إلى هنا في شهر أكتوبر، بمبلغ مالي يسدّ احتياجاتنا حتى أول الصيف التالي. لا أحد هنا يعرف ما أفعله هناك، لا أحد على الإطلاق. زوجي أيضًا لم يكن يعلم، إلى أن اعترفت له بنفسي. كان ذلك في ليلة خريفية جميلة، أطل علينا القمر فيها بعينين ناعستين. استلقى زوجي بجواري، هادئًا كعادته. قلت لنفسي: "هذا الزوج المحبّ اللطيف، لا يستحق مني أن أغشه وأخدعه هكذا. عليّ أن أصارحه بكل شيء". أحسست بأن القمر يشجعني على المضيّ في صراحتي. أخبرته بصوت هامس بأنني في الأشهر الثلاثة التي أتركه والطفلتين خلالها، وأذهب إلى الجزيرة، فإنني لا أعمل في جني محصول الفراولة والخوخ، كما يعتقد، ولكنني أعمل كداعرة موسمية. كان يعرف الجزيرة، ويعرف "فلورا" أيضًا. في الغرفة المجاورة، علا صوت إحدى الطفلتين بالبكاء. أظن أنها كانت "إيزابيلا". أحسست بأن القمر قد تحطم إلى شظايا، وأن كل قطعة منها تنغرز في صدري بلا رحمة. غامت عينا زوجي، وخمدت النار فيهما. منذ تلك الليلة، صار يتفادى النظر إليّ. عندما يحين موعد سفري، يودّعني في صمت، ثم يستقبلني بعد ذلك في شهر أكتوبر أو نوفمبر بالصمت ذاته. نحاول بعدها أن نبدو كأي أسرة

طبيعية. في العام الماضي، وبعد صراع طويل مع المرض، كما يكتب الناس عادَة في صفحة الوفيات، مات "دون فيتو" تاركًا "فلورا" بمفردها.

عاودت جذب أطراف فستانها على ساقيها، قبل أن تستطرد:

- ظهيرة أحد الأيام، جلسنا أنا وهي تحت أشجار حديقتها. كنت أفكر في الصغيرتين اللتين اقترب موعد دخولهما المدرسة للمرة الأولى، ثم نظرت إليها فصدمتني التجاعيد الآخذة بالزحف على صدرها الظاهر من فتحة ثوبها العميقة. أمسكت بيدي، كما اعتادت أن تفعل عندما كنا صبيتين يافعتين، وقالت: "قابلت المرحوم "فيتو" في الفندق الصغير المدعو "البلقان"، لا شك أنكِ تتذكرينه، ذلك الذي عملت فيه كموظفة استقبال. عرّف نفسه بأنه صاحب مصنع "موتوسيكلات"، وقال بأنه لم يعد مهتمًا بهذا المجال، وأنه ينوي فتح مصنع جديد للسيارات الإقتصادية في البلقان. أخبرني أيضًا بأنه يمتلك فندقًا فخمًا في إحدى جزر البحر المتوسط. أقام لدينا كنزيل، لأسبوع كامل. في أحد الأيام عرض عليّ صورة لهذا الفندق. أخبرني أن اسمه "كازانوفا"، وقال بأن الأجور فيه أكثر بثلاثين ضعفًا من راتبي في بلدي. تخيّلي يا "زوزو"! كان قد جمع معلومات عني وعن دخلي. سافرت معه بالطبع، وركبنا مركبًا مثل الذي جئتِ أنتِ عليه أول مرة. في اليوم التالي، صارحني بأنه لا يعمل في الصناعة، وإنما في تهريب المهاجرين". أضافت "فلورا" بصوت متحشرج: "قال أيضًا بأنه قد وضع في حقيبة السفر الخاصة بي عشر كيلوجرامات من الهيروين"، ثم أردفت بأسى: "فندقه المزعوم لم يكن في الحقيقة سوى بيت دعارة، مكوَّن من عشرة حجرات وثمان فتيات يعملن طوال ساعات الليل، بلا مبالغة؛ أمَّا أنا فكنت أعمل في أيام الإجازات فقط، حين تتوقف البواخر السياحية الكبيرة خلف

الفنار. يستقل بعدها السياح مركبًا يدعى "موناليزا"، يحملهم إلينا. طلب مني "دون فيتو" أن أعاون الفتيات في القيام بمهامهن، حتى نحافظ على سمعة الـ"فندق"! على أي حال، في العامين الأوليين، عملت معظم الوقت في المطبخ أو في قسم الإستقبال. بعد ذلك، فتح شركة سياحية بإسمي، تركّز عملها على جلب البنات اللواتي يرغبن في العمل كعارضات محترفات لدى كبرى دور الأزياء، أو كمربيات أطفال متخصصات، أو كمرشدات سياحيات. بعد وصولهن، كنا نجعلهن يعملن لحسابنا. تمتعن جميعًا بقدر جيد جدًا من التعليم، وكن يستطعن التحدّث بعدّة لغات مختلفة، بطلاقة". استطردت "فلورا": "حدّدنا أسعارًا خاصة للإستماع. الإصغاء أهم من اللمسة. كان هذا ما ميّزنا عن غيرنا، وأتاح لنا مضاعفة أرباحنا. بعد أن أصيب بمرض القلب، كتب لي "دون فيتو" نصف ممتلكاته، رغم أنني كنت أمتلكها فعليًا منذ زمن. عقب اكتشاف كميات جديدة من الهيروين، داخل شحنة أصباغ، لم يعد بإمكاني مغادرة الجزيرة، وزيارة بلدي، حتى لو رغبت في ذلك. على أي حال، جميع الخطابات والحوالات المالية التي أرسلتها لأبي كانت تعود لي كما هي، مصحوبة بعبارة "لم يستدل على صاحبه". بعد فترة، بَلَغني أن أبي نفسه هو الذي كان يتعمد عدم استلام تلك الخطابات، بل ويرفض حتى معرفة اسم المرسل. أنتِ تعرفين أنني بعثت له بمبالغ مالية معكِ، ثلاث مرات، وأنه رفض أن يأخذها.

واصلت المرأة سرد حكايتها عن "فلورا":

- كانت تتحدث يا سيدي وهي تنقر الطاولة أمامها بأظافرها، في توتر واضح. أحسستُ بأنها ترغب في قول شيء آخر، ولكن بدا أنها مترددة. المهم يا سيدي، مرت الأعوام واستمرت رحلتي السنوية إلى الجزيرة. في كل مرة يستقبلني

فيها زوجي عند عودتي، أشعر بأنه محطم، وأنه يبكي بكاءً مريرًا وإن كنت لا أرى دموعه. أما الطفلتين، فتهرعان نحوي بفرح حقيقي. أجلب لهما كل مرة فساتين جميلة، ومعاطف دافئة، والعديد من الدمى والألعاب المسلية. هما ذاتهما دميتان رائعتا الجمال. حين تستفسران مني عن عملي، أجيبهما بأنني موظفة في مصنع للألعاب. يطأطىء زوجي رأسه، محاولًا مغالبة شعوره بالعار والحرج. كثيرًا ما نظر إلى الجهة الأخرى، حتى لا نلمح دموعه الحبيسة، بينما تنهمك البنتان في سرد تفاصيل الأيام التي عاشتاها من غيري.

ثم أخبرتني السيدة بأن زوجها لم يعد يقترب منها بتاتًا؛ وفي المرات النادرة جدًا التي فعل فيها ذلك، كان متباعدًا، وتعامل معها كما لو كان زبونًا، ورفض أن تقبّله. ومع ذلك، لم يطلب منها أبدًا أن تتوقف عن رحلاتها الموسمية، ولم يأمرها بالبقاء.

واصلت الزائرة حديثها:

– حين عدتُ من السفر آخر مرة، جئت إلى منزلكَ مرتين، لكنني لم أجد أحدًا. لم أكن أعرف بأن العم "نيك" قد توفي، رحمه الله. لكن ها قد وجدتك أخيرًا يا سيدي، لله الحمد. أردت أن أخبرك بأن خالتك مريضة جدًّا، وحالتها تتدهور بسرعة. لم يبق أمامها سوى أيام. إنها ترغب في أن تعرّفك المكان الذي ستدفن فيه.

ناولتني ورقة مطوية، وعددًا من الوثائق. نظرتُ إلى صورة خالتي مرة أخرى. تبتسم في بهجة واستمتاع. فتحتُ الورقة، فلم أجد فيها إلا سطرين فقط "أتركُ كل شيء لك. خالص محبتي، خالتك فلورا". حملتْ الورقة رائحتها

المميزة التي تشبه شذى اللوز. شعرتُ للحظة بأنها تقف أمامي. وضعت صورتها داخل الحقيبة التي سأحملها معي إلى أمريكا. راجعت الأوراق ثانيًة. أحدها عبارة عن ملكية فندق يحمل إسم "زيفاجو"، قامت خالتي ببنائه العام الماضي، وتسجيله بإسمي. احتفظت بهذه الورقة فقط لنفسي، وأعطيت المرأة بقية الأوراق والممتلكات. قلت لنفسي بأنها قد تعبت وضحّت بالكثير، وقد آن الأوان لتحصل على تعويضٍ مناسب.

بعد ذلك بكثير، في "آيوا" يا "دورنتينا"، وبعد أن فرغت من كتابة كل هذا، وقررت أن أقرأ النص على أستاذي وزملائي، قمت بمدّ يدي داخل جيب الجاكيت لأخرج منه صورة خالتي. كنت أعلم بأن "ليبتوف" سيسعد بهذه الحركة، وبخاصة أنه تناول في المحاضرة الأخيرة موضوع توثيق الخيال بأشياء واقعية، تعطي القارىء انطباعًا بأنه يقرأ أحداثًا حقيقية أو اعترافات خاصة؛ لكن الصورة لم تكن موجودة. كان من المفترض أن تدعم مصداقية قصتي. حرّك "ليبتوف" يده كأنه يهدّىء من روعي، ويطمئنني بأنه يصدقني، لكن نظرته وابتسامته الهازئة، قالتا عكس ذلك. لا شك أنه يعتقد أنني لم أكن أعيد صياغة أحداث واقعية، وإنما أقرأ عليه حكاية خيالية.

ليتني أعرف ما الذي حدث لصورة خالتي "فلورا". واصلتُ البحث في جيبي، بينما راحت "آنا كوميتزكا" تصفر بفمها كالعصفور، وهي تحرّك أوراق مقالها أمام وجهها كمروحة يدوية، بصبرٍ نافد.

أردت أن أبكي. الصورة تعني الكثير لقصتي. إنها الأمر الواقعي الوحيد الذي يثبت صحتها. ابتسم البروفيسور بتعاطف، ثم نظر إلى "فاتوس ديدلـّي" طالبًا منه أن يشرح نهاية حكايته حول "كونستانتين" و"دورنتينا"، التي

غيّرها تمامًا، وحوَّل البطل إلى حبيب لها بدلًا من كونه شقيقها، وأضاف لها بعض التفاصيل والجوانب المرعبة المتعلقة بالأرواح والأشباح والإنتقام.

التفتَ "ليبتوف" نحونا وقال بأن للرعب مبدأ لا يستهويه بتاتًا، ثم أضاف:

- الأدب يمنحك فرصة للتزوير، دون تعريض نفسك للإتهامات أو للعقاب، بل يمكن أن يثني الناس عمَّا تفعله من تزييف للواقع، ويمنحونك الجوائز مقابل ذلك. أمَّا عندما يتعلق الأمر بالرعب، فإنه – في الأغلب – يخرج في صورة غير مقنعة على الإطلاق.

شرح لنا بأنه يحترم الأدب القائم على الخيال والفانتازيا والجوانب العلمية، وبخاصة عند التعرّض للموضوعات المسكوت عنها، والتي تدخل في إطار الـ"تابو".

أظن بأنه كان يشير، من طرف خفي، لأحدث رواياته حينها، والتي تدور في أجواء دينية تتناول علاقة السيد المسيح بأخيه "جوزيف" وبـ"مريم المجدلية".

ارتفع صوت من منتصف القاعة، يقول متفاخرًا بأنه قد عثر على العنوان المناسب لقصته، وهو "أنيشتاين يمشي نائمًا". تعالت الأصوات، وتبارى الجميع في عرض عناوينهم المختارة. أردت أن أشترك معهم، لكنني لم أكن متأكدًا من أن "القنَّاص" عنوان جيد ومناسب لعملي. اكتفى الأستاذ بالإبتسام وهو يستمع لكل تلك العناوين المقترحة، وأخيرًا قال:

- سنناقش ذلك في الغد، أما الآن فأودّ التأكيد ثانيَة على أن الحقيقة يصنعها الكاتب وحده، ولا أحد غيره، وأنه يمكن إلحاق الكثير من التفاصيل الخيالية بحقيقية واحدة، وجعلها كلها أمرًا واقعيًا متكاملًا.

نظر إليّ وقال:

- ولهذا، فإنني لا أحتاج لصورة فوتوغرافية لأعرف أن ما كتبته حقيقي وواقعي.

استطرد قائلًا:

- صحيح أنك كمؤلف تحتاج لتقديم برهان على كل ما تكتبه، ولكن من قال بأن أدلّتك وبراهينك يجب أن تكون حقيقية؟ أي دليل خيالي، طالما أنه جيد ومنطقي، يمكن اعتباره دليلًا حقيقيًا. اكتبوا كما علّمتكم، وستخرج كتاباتكم في صورة مُقنِعة يصدّقها القارئ. الإقناع هو جوهر الفن. والكيفية التي تصيغ بها حقائقك، هي التي تحدد درجة إبداعك.

أضاف:

- الحقيقية الخالصة نوعٌ من الفانتازيا، والعكس صحيح. سجّلوا هذا لتتذكروه. دوّنوا أيضًا أن الرواية دون حقائق، تكون ناقصة وغير مكتملة؛ وأن الكتاب المليء بالحقائق لا يصنع رواية.

ثم قال:

- خذوا أي كتاب مذكرات تدور أحداثه على الجبهة، في فترة حرب. ستلاحظون أن بإمكاننا تحويله إلى مئة رواية مختلفة، دون أن نأتي على ذكر الجبهة أو الحرب. اقرأوا كتبًا جيدة، وخذوا منها ما تحتاجونه، وبعدها ستقوم

موهبتكم – إن كنتم تمتلكونها بالطبع – بتغطية آثار ما قرأتموه، وابتكار عمل جديد تمامًا. رواية متفردة قام صاحبها بصياغة حقائقها بشكل متميز. نصيحتي الأساسية لكم جميعًا، لكل واحد منكم، إياك أن تكتب للقارئ العادي! أعني بذلك القارئ الذي لا تثيره عباراتك، ولا تشعره بالنشوة، ولا يتشوق لإلتهام المزيد من أعمالك. وأكرر ما قلته مرارًا، إياك أن تكتب دون أن تتسلح بالحقائق.

أنهى محاضرته بهذه النصائح. رمى قطعة الطبشور في سلّة المهملات، واستدار خارجًا من القاعة بطريقته الملفتة في تحريك جسده.

رحت أفتش عن صورة خالتي في جيوب جميع ملابسي، وفي أركان الحجرة. امتدت الشمس أشعة آخر النهار حول رؤوس الأشجار، كتيجان نحاسية. واصلت البحث وأنا أسائل نفسي عن المكان الذي يمكن أن تكون قد سقطت فيه مني، وفجأة انتبهت إلى أمر كان غائبًا عني، الجاكيت الذي أرتديه ليس لي، إنه لـ"خورخيه خوليو إيبرتي". كنا قد اشترينا هاتين القطعتين المتماثلتين من متجر يبيع ملابس أشخاص متوفين.

"إيبرتي" يا "دورنتينا" الذي أخبرتك أنه اضطر للرحيل إلى "كوكوتا" على عجالة؛ وعلى عكسي، لم يكن يتفق مع آراء "ستيف ليبتوف"، وإن لم يعارضه بشكل صريح. ورغم أنه حاول إقناع الجميع بأن كل كلمة يكتبها واقعية وحقيقية، إلا أن أحدًا لم يصدّقه.

اعتاد أن يستلقي على سريره، شابكًا ذراعيه تحت رأسه، ويقول:

- كيف أكتب ليصدقني الناس؟ كيف أجعلهم يقتنعون بأن ما أكتبه هو أمور واقعية حدثت بالفعل؟ كيف أقنعهم يا صديقي بأنني رأيت ذات مرة رجلًا يجلس على سجادة فارسية ويطير بها فوق بيتنا في "كوكوتا"؟ ولماذا لا يصدقون أن "دون باربا سيلفا فون بوتوم ديل بلاتا دي كاري" كان يمسك بأمعائه المتدلية من جسمه، بيديه، ويطوف بها في أنحاء "كوكوتا"، ويشترك بذلك المنظر في مسابقات الشطرنج، ويتابع مصارعة الديكة؟ لا أدري لماذا لا يصدقون ما أكتب؟

أخذت أفكر بأن صورة خالتي "فلورا" لن تعني شيئًا له. من يصدقه على أي حال؟ أما أنا فأحتاجها كي أثبت أن تلك السيدة كانت موجودة في يوم من الأيام. كانت جزءًا من حياتي.

وحدها صورنا تثبت أننا كنا على قيد الحياة، أما أجسادنا فتبلى، وأما أرواحنا فتختفي.

والآن، بفقداني لتلك الصورة، فإنني لا أملك شيئًا من خالتي، إن كانت قد ماتت. انتهى أمرها تمامًا.

بينما كنت أفكر في كل هذه الأمور، وأنا في حجرتي بسكن الطلبة في "آيوا"، توصلت إلى قرار بشأن روايتي، سوف أهديها إلى "دون خورخيه خوليو"، أو "أميجو إيبرتي"، إنه الوحيد الذي يعرف ويقدّر مدى المعاناة التي يلاقيها المؤلف لإثبات واقعية حكاياته؛ وسوف أهديها أيضًا إلى خالتي "فلورا"، لأنها شخصية حقيقية تمامًا، وإلى "بلوسوم" كذلك، فلا شيء حقيقي دونها. وحتى أتجنب أي

لَبْس قد يسببه العنوان لدى القارئ، فسوف أكتب في مقدمة الرواية بأنني استلهمته من الأغنية الشهيرة: "تركتُ فيكِ علامَة يا ديسبينا، حتى لا تنسيني".

هذه هي الكلمات التي أتذكرها من تلك الأغنية يا "دورنتينا". أنا لا أجيد الغناء أساسًا. اعتادت خالتي أن تترنم بهذه الأغنية حين كانت تحلق إبطيها. كان صوتها خلّابًا، كالعندليب. بعد أن تردد هذا المقطع عدة مرات، تغلق باب الحمام حتى لا أرى دموعها المنسكبة بغزارة.

عرفت، فيما بعد، أن حبيبها الذي كان عامل مناجم، ترك لها علامة في أحد إبطيها، تشبه فراشة زرقاء. رحل الحبيب، وبقيت الفراشة.

ما الفائدة التي سوف يجنيها "إيبرتي" من احتفاظه بصورة خالتي؟ لا شيء على الإطلاق! حاولت أن أتواصل معه لثلاثة أشهر متوالية، بلا جدوى. لم يتذكر أي منا عنوانه بالضبط.

في يومي الأخير، كرر "ستيف ليبتوف" ثانيَة دعوته لي لحضور الحفلات التي يقيمها هو و"فيليب بلاكسميث"، لكنني كنت سأسافر صباح اليوم التالي على أي حال.

في الطيَّارة، رحت أتخيل الجوائز العديدة التي سوف أنالها مستقبلًا. قلت لنفسي بأنني لن أقبلها كلها، سأكتفي بعدد منها بغرض التسويق لكتابي فقط.

سأنتظر أعلى وأهم جائزة أدبية على الإطلاق، وحين يمنحونني إياها سوف يقولون:

- لقد اكتسبت الجائزة قيمة إضافية بارتباطها بهذه الرواية؛ كما نالت الرواية بها ما تستحقه من تقدير.

حين هبطت الطائرة في مطار "الإسكندر الأكبر"، شممتُ رائحة البارود التي تملأ الأجواء يا "دورنتينا". بينما كنت أنتظر حقيبتي، التي ترقد الرواية داخلها، تساءلتُ عما يحدث في مدينتنا الصغيرة الهادئة، وإن كانت الرائحة التي أشمها حقيقية بالفعل؟

# 23

مساءً، وصلت إلى الشارع الرئيسي في البلدة وأنا أجرّ خلفي حقيبتي الكبيرة المليئة بالنصائح والأحلام ومسودات أعمالي الأدبية. هذا هو الشارع الكبير الوحيد هنا، بقية الشوارع مجرد طرقات ضيقة وأزقة تنتهي عند الحدائق الخلفية للبيوت. لطالما تجنبت السير فيه، حتى لا أرى ابتسامات الأشخاص المتوفين، في صورهم المعلقة على جانبيه، وهم ينظرون للمارة بإلحاح، على أمل أن يبادلهم أحد الإبتسامة. إنه شعور محطم للنفس، أحاول تفاديه بعدم المرور من هناك قدر الإمكان.

عند خروجي من محطة القطار، قادمًا من المطار، شعرت بقوى ما تدفعني لأن أرفع رأسي، الذي أحنيته متعمدًا. حين فعلت، كان أول ما لمحته هو ابتسامة صديق قديم، ينظر إليّ في ابتهاج، عبر صورته المعلقة بعناية. لم أصدّق عيني، وأحسست بالألم والأسى، لكنني – مع ذلك – ابتسمت له حتى لا أجرح مشاعره، ثم واصلت سيري بخطوات سريعة.

لاحظت أن عدد الصور يتزايد، مع تقدمي في الطريق. بدأت الشمس في الغروب، وأخذ المطر يتساقط. انهمرت عليّ قطراته كبيرة الحجم، من خلال الأغصان الكثيفة للشجر. غطيت رأسي بمعطفي. سمعت همسًا مألوفًا في أذني اليسرى، بل وشعرت بأنفاس دافئة تلفح رقبتي. أحكمت قبضتي على حقيبة

السفر، وأردت أن أركض هربًا من المكان. اشتدّ المطر، ولم أعد أرى بوضوح، وتزايدت الأنفاس الموجهة إلى رقبتي، ما جعلني أضطر للتوقف والإلتفات نحو مصدرها. أغمضتُ عينيّ بضعة مرات متوالية لأتخلّص من حبات المطر العالقة برموشي. حالما فعلت ذلك، شاهدت ابتسامتها الجميلة المعلقة على جذع شجرة أمامي. إنها هي يا "دورنتينا"، ليست شخصًا آخر. هذا يعني أنها لم تخرج سالمة من النهر. هبّت ريح قوية من الجهة اليمنى للأشجار، دفعتني إلى الأمام فترنحت، ثم أسقطتني أرضًا أنا وحقيبتي وسط تجمّع لمياه الأمطار. أحسستُ بأن ابتسامة "بلوسوم" تزداد اتساعًا ومرحًا.

قلت لنفسي بأن ما رأيته هو مجرد تخيلات، سببها هو أنني لا أستطيع التوقف عن التفكير بها طوال الوقت. لكنني حين وصلت إلى الميدان الرئيسي، وجدت صورة أخرى لها على جذع الشجرة الكبيرة التي تتوسط الساحة. انهمر المطر بقوة أكبر. وقفت أنظر إلى صورتها. قرأت التاريخ المكتوب أسفلها، إنه عقب رحيلي عنها بيومين اثنين. لا بد أنه التاريخ الذي عثروا فيه على جثتها. النعي المصاحب للصورة، كتبه طلبة صفها في المدرسة الثانوية. رغم مرور عدّة سنوات، إلا أن الخط كان لايزال واضحًا. كتبوا أن رحيلها لا يعدّ غيابًا، وإنما حضورٌ مختلف الشكل.

اختلطت قطرات المطر بالدموع التي سالت على وجهي.

واصلتْ "بلوسوم" النظر إليّ بوجهها الباسم، وقد اعترتها الدهشة لإدراكها – أخيرًا – أنها قد ماتت، وأن الشخص المذعور، المبلل، الواقف أمامها هو مؤلف رواية "العلامة" الراقدة في سكون في قلب حقيبته، تحت ملابسه الداخلية.

تذكرت الرواية، وخشيت أن يتسرب الماء داخل الحقيبة، ويفسد مسودات القصة ومخطوطاتها. غطيت الحقيبة بالمعطف، وقلت لنفسي بأن ملابسي الداخلية سوف تحمي أوراقي. اتسعت ابتسامة "بلوسوم" وكأنها تتفق معي.

المرأة التي ودّعتني قبل أعوام، وحاولت أن تساعدني بإعطائي عنوان صديقها "فيليب بلاكسميث"، تقف اليوم في استقبالي مع زملائها الراحلين، مرحّبين بي بابتساماتهم اللطيفة، كأنه حفلٌ على شرف الكاتب العظيم "كونستانتين نيكلز نيستوروف".

على أصوات حبّات المطر المنهمر بغزارة، وهي تضرب الأشجار، رحت أتخيل اسم روايتي على قوائم الكتب الأكثر مبيعًا في صحيفتيّ الـ"نيويورك تايمز" والـ"لو موند" الفرنسية. دعوت الله ألا يكون الماء قد تسرب إلى داخل الشنطة، حتى لا يبلل ملابسي الداخلية، فتفسد بدورها أوراق روايتي.

فكرت بخوف بأن أي حدث يومي عادي، كنزول المطر، بات قادرًا على تحطيم مهنتي ومستقبلي.

لا أتذكر كيف وصلت إلى البيت يا "دورنتينا"، ولا أتذكر أيضًا كيف نمت من فرط الإرهاق، على نفس الفراش الذي مات عليه جدّي "نيك نيكلز" قبل سنوات.

حين توفي جدّي، كنت قد أتيت لزيارته في اليوم نفسه. وجدته مستلقيًا على فراشه، وقد غطى جسده ورأسه ببطانيته، حتى لا أشهد غياب آخر شعاع ضوء من عينيه؛ ولكن حين أوشك على إطلاق آخر أنفاسه، رفع الغطاء قليلًا، ونظر إليّ وكأنه لا يصدق أنني موجود بجانبه فعلًا، ثم أعاد وضع البطانية على وجهه، وانتهى كل شيء، كأنما كان يرغب في توديعي قبل رحيله.

حين استيقظت، كان المعطف إلى جواري، مبللًا بعض الشيء، وبجانبه صورة "بلوسوم" المرفقة بنعي طلابها، وقد سال عليها اللون الأزرق من أطرافها، بفعل المطر. تذكرت بأنني انتزعت الصورة من على شجرة الميدان، لأقنع نفسي بأن ما رأيته حقيقي، وليس بفعل خيالي. فردت الصورة بأصابعي، وأعدت قراءة المكتوب. كانت موجودة وتقرأ معي سطور تلاميذها، وهي تنظر إلى شفتيّ. بادلتها النظر وتمعنت جيدًا في عينيها الفاتنتين. كانت تجمع خصلات شعرها في كعكة، ما أبرز جمال رقبتها، وجعلها أشبه بالبجعة. كل ما فيها ينطق بالأنوثة الخالصة. عيناها بخاصة. تشبهان عينيكِ يا "دورنتينا". قليلات هي العيون التي تفيض بكل هذا السحر.

الإبتسامة لا تفارق شفتيها، تمامًا كما اعتادت وهي على قيد الحياة، حين كانت تقاسمني أسرارها. ذلك الوجه الذي يتوهج بطريقة خلابة حين تسهب في وصف خصلات شعر "آنا كارنينا"، أو كتفيّ "ناتاشا روستوفا"، أو عينَيّ "إيمَّا بوفاري".

أعدت قراءة الرثاء. أعجبني صدق عبارات هؤلاء التلاميذ، نعم، إن رحيلها لا يعدّ غيابًا، بل حضور مختلف الشكل.

في اليوم التالي، أو ربما بعد مرور بضعة أيام، لا يهم الحقيقة، اقتحم "إيكو لاودماوث" البيت ضاحكًا، دون أن يهتم بطرق الباب قبل دخوله. ضحك أكثر حين نظر إليّ وقال بأنني أشبه قطة خائفة. سعل قليلًا، ثم مسّد شاربه بأطراف أصابعه، وأخبرني بأنه تمّ تعيينه رئيس حفَّاري القبور، في مقبرة البلدة.

حين لمح صورة "بلوسوم" والنعي الخاص بها، قال بأنه قد تمّ العثور على جثتها محشورة بين جذور صفصافة تحت الجسر. وجد غوّاصو فريق الإنقاذ صعوبة في فكّ أصابعها الملتفة بإحكام حول أحد أغصان الشجرة. كانت متشبثة بها بقوة بالغة.

تمّ دفنها دون مقابل أو رسوم، في نهاية المقبرة. بعد ثلاثة أشهر، وصلهم مبلغ مالي ورسالة تقول بأنني أنا صاحبه، وأنني أرغب في بناء شاهد قبر لها. قال ساخرًا، وهو يضحك:

- هل تعلم أن المبلغ الذي أرسلته كبير جدًا، لدرجة أنه كان بإمكاننا اختيار شاهد قبر يغني ويرقص؟!

أضاف بعد برهة:

- بل بإمكانه أن يصفق أيضًا في الأعياد والمناسبات القومية!

ظل ينظر إليّ، متوقعًا إجابة تفسر له إرسالي لكل ذلك المال. واقع الأمر أنني لم أكن أدري عن أي شيء يتحدث. لاحظ اضطرابي كما يبدو، فأخرج من جيبه الخطاب الذي يُفترَض أنني أرسلته. الظرف يشبه ذلك الذي أحضرته تلك المرأة قبل سفري إلى أمريكا، من خالتي "فلورا" في "سينتيلي".

علّق "لاودماوث"، بجدّية هذه المرة:

- على أي حال، اخترنا لها شاهد قبر بديع. يتوقف عنده زوار المقبرة، كل مرة، لجمال شكله.

أزاح بنفاد صبر الذبابة التي وقفت على أذنه، وصبّ عليها لعناته، وغادر فجأة دون استئذان.

على الترابيزة أمامي ظرفان متماثلان، والكتابة عليهما بالخط نفسه. لكن أيًّا منهما لم يكن يحمل عنوان خالتي "فلورا". ظل الظرفان في نفس المكان لفترة من الوقت، أمضيتها في تصحيح ومراجعة مخطوطات روايتي. فكرت في أن أكتب لها خطابًا أخبرها فيه عن رحلتي إلى "آيوا"، والرواية التي كتبتها، وأنها إحدى شخصيات العمل؛ لكنني تذكرت بأنني لا أمتلك عنوانًا لها، كما أنني – وهو الأهم – لا أعرف إن كانت لا تزال قيد الحياة أم لا.

بعد تفكير طويل، توصلت إلى أنه ينبغي عليّ البحث عن صديقتها التي جاءت لزيارتي قبل سفري. لم تواجهني صعوبة في العثور على بيتها. رننتُ الجرس، ففتح لي بعد دقائق قليلة رجل شاحب، يظهر عليه المرض. يقبض بين أصابعه، صفراء اللون، عُقب سيجارة منتهية. قلت له بأنني ابن شقيقة "فلورا". نظر إليّ لبرهة، وحاول أن يسحب نَفَسًا من السيجارة المطفأة. أشار إليّ بالإنتظار. بخطوات متثاقلة، استدار ودخل إلى البيت المكوّن من حجرة واحدة، كما يبدو. بعد نحو عشر دقائق، خرج إليّ يحمل ظرفًا يشبه الظرفين الآخرين. حدّق بي مطوّلًا، وحاول للمرة الثانية أن يسحب نَفسًا من عقب السيجارة، ثم ناولني إياه وعاد إلى الداخل بخطواته البطيئة. العنوان المدوّن على واجهة الخطاب هو لهذا المنزل، وأسفله بالضبط إسمي. لم أستطع الإنتظار حتى عودتي للبيت، ففتحته من فوري. الرسالة مكتوبة على ورقة صفراء. بدأتْ بإبداء حزنها على رحيل "بلوسوم". قالت بأن صديقتها قد أخبرتها عن الحادث المأساوي منذ بضعة سنوات. أضافت بأنها تعلم كل ما

كان بيني ومعلمتي الراحلة، وتعرف بأمر الأب "أجاثون"، والمرأة القنَّاصة التي ستقتلني في يوم من الأيام، والفتى الذي تحوّل إلى فراشة، وعن أحلامي بأن أصبح كاتبًا شهيرًا.

من الذي أخبرها بكل هذه الأمور يا ترى؟!

كتبت أيضًا بأنها أرسلت لـ"إيكو لاودماوث" مبلغًا ماليًا، بإسمها، مرتين متتاليتين، لبناء شاهد قبر لـ"بلوسوم"، إلا أنه استولى على الأموال لنفسه، وحين ذهبت صديقتها لتستفسر منه عن الأمر، أخذ يضحك بطريقة هستيرية، وهدّدها بأنه سوف يغتصبها بطريقة وحشية، إن لم تغادر مكتب حفَّاري القبور؛ وشرحت بأنها اضطرت بعد ذلك لإرسال مبلغ جديد، بإسمي هذه المرة. حين ظن "لاودماوث" بأنني أنا المرسل، قام ببناء الشاهد على الفور. أضافت بأنه ليس عليّ الآن سوى زراعة بعض أزهار الربيع الصفراء على القبر.

قرأت فقرة قالت فيها:

- "المكتوب ليس بخطي، بل بخطها هي. إنها هنا مع ابنتيها التوأم. هما أيضًا كتبتا أجزاءً من الخطاب. أنا سعيدة لأنك لم تكن طماعًا، ولم تأخذ إلا فندق "زيفاجو". كنت متيقنة من أنك ستفعل ذلك. ما أسعدني حقًا هو أنني لا زلت أعرفك جيدًا وأتوقع تصرفاتك، رغم افتراقنا منذ أعوام عديدة. لا أعرف ما الذي تعلّمته بالضبط في "آيوا"، لكنني أعرف بأنك قد كتبت رواية أدبية، وأعرف أيضًا يا عزيزي بأن الأحداث التي مرت بك، جعلتك لا تحب الحياة بالقدر الكافي. لهذا السبب تحديدًا، كنتَ بحاجة لتأليف حياة جديدة لنفسك. أنت تؤمن بالروح، وأنا أؤمن بالجسد. الجسد ملكنا، إنما الروح ليست ملكًا

لأحد. لو أنك شريكي في أعمالي، لفشلنا وأعلنّا إفلاسنا في فترة وجيزة! أودّ أن تعرف أنني مشتاقة لك جدًا، وأتمنى لو تزورني وأنا لا أزال على قيد الحياة. إن أتيتَ بعد رحيلي، فلن أتمكن من احتضانك بين ذراعيّ. الأرواح لا أذرع لها يا عزيزي. أصبحتُ مقعدة منذ ما يزيد على السنة، وأتنقل بالكرسي المتحرّك. لم أعد أتحدث بسهولة، ولا أستطيع الكتابة مطلقًا. الفتاتان، واخترتُ أن أسميهما "ماريا" و"ماجدالينا"، تدفعانني على مقعدي المتحرك، بين أشجار البرتقال والزيتون، لساعات طويلة كل يوم. الفاكهة كثيرة هذا العام، والحصاد وفير. الأغصان مثقلة بالبرتقال، الذي يرتطم برأس البنتين، ولهذا صرنا نقضي أغلب الوقت في الشرفة الكبيرة المطلّة على البحر. على أي حال، لا أريد أن أرهقهما بكتابة المزيد. أوصيك بأن تشعل شمعة من أجل جدّك، إن كنتَ لا تزال تعتبره كذلك، وأخرى من أجل الأب "أجاثون"، إنه يستحق ذلك كما تعلم. لقد احتفظتُ بجميع رسائله.

المُحبّة إلى الأبد.. خالتك "فلورا".

طويتُ الورقة، ووضعتها في جيبي، وأنا أتخيل فتاتين بشعر أشقر مجدول في ضفائر، تدفعان كرسي خالتي بين الأشجار الظليلة، والثمار ترتطم برأسيهما فتنطلق ضحكاتهما المرحة، إلى أن تبدأ الشمس في المغيب.

بعد بضعة أيام، أو بضعة أسابيع، لا أذكر، كنت أجلس منحنيًا أمام الترابيزة العتيقة في الغرفة التي تظلل شبّاكها شجرة البرقوق، وأنا أعيد تصحيح مقاطع من روايتي. كنت قد أضفتُ فصولًا جديدة ضمّنتها القصة القصيرة عن "ليلي"، وواحدة أخرى عن الأرواح. اتصل بي حينها البروفيسور "ستيف ليبتوف" للمرة الثانية منذ وصولي من أمريكا. كان يطمئن على سير

العمل. في المرة الأولى قلت له بأنني مغرم بالشخصية الرئيسية. في المرة الثانية صارحته بأنني أكره الجميع، عدا خالتي "فلورا" ومعلمتي "بلوسوم". أراد أن يقول شيئًا. أحسستُ بذلك من الطريقة التي تنهد بها، لكنه لم يفعل واكتفى بإبلاغي تحيات "فيليب بلاكسميث"، ثم ضحك وأنهى المكالمة.

أعدت السماعة مكانها، وانتابتني رغبة ملحّة في النوم. وقعتْ عيني على نعي "بلوسوم"، فخطرت لي فكرة فصل جديد تدور أحداثه بين ثلاث شخصيات رئيسية "ناتاشا روستوفا" و"آنا كارنينا" و"إيمًّا بوفاري". رأيتهن يركبن عربة قديمة فرنسية الطراز، والشمس ترافق الجانب الأيسر للعربة، كأنها قنديل يضيء دربهن. الحوذي وحده هو الذي يعلم متى وأين سيصلن، كونه الراوي. مدام "بوفاري" نائمة، وتسند رأسها إلى كتف "روستوفا"، المنهمكة في النميمة عن "تولستوي" مع "آنا كارنينا". تحدثن تحديدًا عن خادمته "ماشا"، وعن لحيته التي تنبعث منها على الدوام رائحة الحبر، كما يُشاع.

أردت أن أكتب حوارًا على لسان سائق العربة يا "دورنتينا"، لكنني تراجعت عن الفكرة لأفسح لهما المجال لتبادل النميمة.

قالت "ناتاشا" باحتقار:

– إنه على استعداد دائم لممارسة الجنس مع أي كائن يتحرك أمامه!

أومأت "آنا كارنينا" برأسها موافقة في خجل، وعلّقت هامسة بأن الكونت دائم الخيانة لزوجته، وأن أسوأ ما في الأمر هو حرصه على تدوين تلك الخيانات في مذكراته.

الجوّ حارّ داخل العربة، و"إيما" تغط في النوم، وتحلم بعصافير ذات ريش لمّاع. في هذا الجزء من الفصل، تصطدم إحدى عجلات العربة بحجر كبير، فيقع الحوذي/الراوي؛ لكنه يعدو مسرعًا فيلحق بهن. الخيول تعرف طريقها إلى محطة القطار في "آستابوفو". تطل "إيما بوفاري" من النافذة، يترجرج صدرها مع حركة العربة، وتصيح في الحوذي/الراوي:

- اكتب كل شيء وانشره. قد تذوي اليد، لكن الشهرة تظل باقية للأبد.

تتابع الكاتب بنظراتها وهو يركض بين الحشائش كالمجنون.

تضلّ الخيول طريقها في الظلام.

أقرر أن ألغي الفصل بأكمله. لا حاجة لي به من الأساس. في بعض الأحيان، تخادع الشخصيات مؤلفها وتسخر منه.

أستيقظ وقد بللني العرق الغزير. أكتشف أنني كنت أحلم. ألهث كما لو كنت لا أزال أطارد "إيما بوفاري"، وأتأمل اهتزازات صدرها الممتلئ.

لقد غفوت فوق صورة "بلوسوم"، وانطبعت أحرف النعي على خدّي.

في الشهر التالي يا "دورنتينا"، صدرت روايتي "العلامة"، في نسخ ذات أغلفة من الورق المقوى. لاقت ترحيبًا كبيرًا من قبل القرّاء والنقاد على حدّ سواء، وهو أمرٌ نادر الحدوث. أجمعت الآراء على أن العمل يعدّ رواية عالمية مكتوبة بلغة محلية. قالوا بأنها صادمة، ومرشحة بقوة لأن تحتل مراتب متقدمة في قوائم الكتب الأفضل مبيعًا، دوليًا، وما سيتبع ذلك من جوائز عالمية مخصصة للأدب المترجم. قال بعض النقاد، بعبارات صريحة لا تخلو من الجرأة، أن

الرواية ستترجم بسرعة فائقة دون الحاجة إلى الطرق المعروفة من أساليب ملتوية معتادة، تحكمها التكتلات والمصالح والعلاقات. رأى نقاد غيرهم أن العمل سوف يشعل دنيا الأدب، ويرفعني لمصاف الكتّاب العظام من أمثال المؤلف المجري الشهير "لايوش زيلاهي"، والصحفي والروائي الأسباني "فينسنت بلاسكو إيبانيز".

كتب أحد أساتذة قسم الأدب المقارن في الجامعة، بحثًا يساوي فيه بين "العلامة" والمؤلفات العالمية الشهيرة لكبار الروائيين.

وفي أقل من شهرين، صدرت ستّ طبعات من الرواية، كل منها في خمسمئة نسخة، وهو رقم كبير نسبيًا في عالم النشر المحلي. ركّز فريق التسويق على جمهور الإناث، فهن الأكثر إقبالًا على القراءة؛ وفي حملة الإعلانات الخاصة بالكتاب تمّ وصف العمل بأنه قصة عن حبٍ ممنوع. بدأ الناشر في إصدار طبعة جديدة كل أسبوعين، لا يتجاوز عدد كل منها الخمسين نسخة، كما عمل على تغيير ألوان الأغلفة كل فترة، حتى يقتنع الناس بأن الإقبال على الرواية غير مسبوق، فيحرصون هم أيضًا على شرائها.

ولكل هذه الأسباب مجتمعة، توافد الناس على المكتبات، واصطفوا في طوابير للحصول على نسخة من "العلامة".

في وسط هذا النجاح، فازت الرواية بجائزة إقليمية، واثنتين محليتين؛ كما تمت ترجمتها إلى ثلاث من لغات الدول المجاورة. اهتمت وسائل الإعلام بها، حتى أن البرامج التيليفزيونية وصفتها بـــ"أعجوبة أدب البلقان"، وقالت أنها من أفضل روايات جنوب شرق أوروبا.

باختصار بالغ يا "دورنتينا"، كان كل شيء أجمل من أن تصفه الكلمات. كنت أعيش حلمًا رائع التفاصيل. أصبحتُ كاتبًا مشهورًا، وفي انتظار الإنضمام لعضوية إتحادات الكـُتّاب المحلية والدولية.

الأمر العجيب هو أن كل ذلك حدث بشكل مباغت، فاجأني أنا قبل غيري. أراد الكلّ أن يتحدّث معي، ولكن لم يكن لديّ شيء أقوله. حين يسألونني عن روايتي القادمة، أسكت دون أن أجيب، فأنا لا أعرف إن كان عليّ أن أصارحهم بأنه لن يكون هناك عمل آخر، أم لا. لماذا أحتاج لواحدة ثانية، ولديّ هذه الرواية الناجحة؟ في نهاية الأمر، رأيت أن أنتظر صدور الترجمتين الإنجليزية والفرنسية للكتاب، وانتشاره عالميًا، قبل أن أقرر الخطوة القادمة.

خلال تلك الفترة، وصلتني بطاقة تهنئة من "ستيف ليبتوف" شخصيًا، يبارك لي فيها نجاح روايتي. شعرت بأن وراء عباراته المشجعة شيء من الغيرة. في تلك الفترة، أو ربما قبل ذلك بقليل، استلمت أيضًا خطابًا وردي اللون من "فيليب بلاكسميث" بنفس المحتوى تقريبًا.

ما أودّ قوله يا "دورنتينا" هو أن كل شيء كان رائعًا ومثاليًا. أحسست بأنني أطير في السماء، أعلى من جوناثان ليفينجستون، طائر النورس نفسه؛ ولكن، بينما كنت أحلق بجناحيّ في سماء النجاح والشهرة، بسعادة ونشوة، حدث أمر مأساوي أوقعني أرضًا، دون سابق إنذار.

قام ناقد شهير بكتابة مقال قصير، ألحق به هوامش كثيرة جدًا، حرص من خلاله على إثبات أن "العلامة" عمل زائف، قائم بأكمله على السرقة، وليس به ذرّة أبداع.

بطبيعة الحال، لا يعترف هذا الناقد على الإطلاق بالإتجاهات الحديثة في دنيا الأدب، ولا يؤمن بتضمين العمل مقاطع من نصوص لكتّاب آخرين. للأسف الشديد، فإن هذا الناقد – بنظارته السوداء وحقيبة الأوراق الفخمة التي لا تفارق يده – ادّعى بأن روايتي بأكملها مسروقة، وأن الأمر لا يحتمل التفسير أو التبرير. أصدر حكمه القاطع بأن الكتاب لا يقدّم جديدًا، ولا يمثل عملًا أدبيًا مبتكرًا، وإنما هو مثال صارخ على السرقة الواضحة والتزييف. قال بأن "العلامة"، في جوهرها، ليست سوى تجميع لعدّة روايات معروفة، بأفكار تلك الأعمال وأحداثها وتفاصيلها، بل وشخصياتها أيضًا. كتب يقول:

– إنها يا سادة مجرد خليط من عدّة أطباق شهية، وضعها هذا الشخص في صحن كبير واحد، دون أن يعي أنها لن تصنع بالضرورة وجبًة لذيذة.

كل ما تعلمته على يد البروفيسور "ليبتوف" في ورشة الكتابة بأمريكا، لم يكن له شأن أو قيمة في نظر هذا الناقد، الذي قال بأنه إن كنت أرغب – ككاتب – في الإنتماء لتيار "ما بعد الحداثة"، فإنه كان يجدر بي أن أضع المقاطع التي استعرتها من الكتب الأخرى بين علامات تنصيص، ليعرف القارىء أنها ليست من تأليفي. أما إهمالي لهذه النقطة، فيعني شيئًا واحدًا فقط هو تعمّدي للسرقة ونسب أعمال الغير لنفسي؛ وليثبت نظريته، وضع لائحة بالمقاطع والعبارات التي أخذتها من أعمال أدبية أخرى، أغلبها من كلاسيكيات الأدب الروسي، وذكر بأنه من غيرها، ومن دون الإقتباسات التي أخذتها من كتب مؤلفين آخرين، فإنه لن يتبقى شيء متميز في كتابي، سوى الغلاف بتصميمه المبتكر الذي يصوّر فراشة تفرد جناحيها عند فتح المجلد، وتنزلهما عند غلقه.

ومباشرَة، عقب ظهور هذا المقال الذي حوّل روايتي إلى نُـتَـف ممزقة، انضمّ كل من أشاد بكتابي مسبقًا إلى هذا الناقد، وأيدوا آراءه؛ بل وذهب بعضهم إلى القول بأنهم اكتشفوا أن السطور الأولى في الكتاب، ليست سوى أغنية فلكلورية قديمة في الأساس؛ رغم أنني ذكرت ذلك بنفسي في الفقرة التي تلي ذلك!

وهكذا، بدأت سلسلة من الهجوم الحادّ المتواصل عليّ وعلى روايتي، انتهت بتحطيمي، وسحقي تمامًا. لم أعرف ماذا أفعل، أو كيف أكمل حياتي. هل أهرب أم أقتل نفسي لأتخلص من هذا الكابوس

بينما كنت في هذه الحالة النفسية السيئة يا "دورنتينا"، دق أحدهم الباب ودخل البيت. وقف الكابتن "هوت هيد هوك" أمامي مبتسمًا، عاقدًا ذراعيه على صدره. تقدّم "إيكو لاودماوث"، الذي جاء معه، وناولني دعوة للإنضمام إلى الجيش، وأعلن بأن أمامي خمس دقائق فقط لأرتدي ملابسي، وأذهب معهما. وضعتُ بعض أغراضي داخل الحقيبة، وأضفت لها رسائل خالتي "فلورا"، ونعي "بلوسوم"، ومفتاح الدير. وصلت إلى هنا في اليوم نفسه، ووضعوني في خط المواجهة يا "دورنتينا". اندلع قتالٌ عنيف متبادل بالأمس. لا أدري كم لبثت هنا، لكنني أعرف أن هذا هو يومي الأخير. الأخير يا "دورنتينا"، لأنني متأكد من أنك ستقتلينني. أنتِ قدري يا عزيزتي.

والآن، وبعد أن عرفتِ كل شيء، لا شك أنك تدركين بأن الموت في حالتي تكريم وليس عقاب. أنا أستحق القتل يا "دورنتينا"، أليس كذلك؟

اضغطي على الزناد.

# 24

اندلع قتالٌ عنيف بالأمس، لكنه توقف مع بزوغ الفجر، وكأن هناك اتفاق غير مكتوب بين الطرفين ينصّ على أن يقتلوا بعضهم ليلًا، وأن يحاولوا عيش حياة طبيعية قدر الإمكان نهارًا.

كنت أستلقي في الجانب الظليل الواقع خلف مبنى الكنيسة، على مقربة من "هوت هيد هوك"، حين ظهر "إيكو لاودماوث" فجأة، وهو يجرّ قدميه جرًّا، تسبقه رائحته المنفِّرة، ومظهره الأشعث بشاربه الكث الطويل. شيٌء ما في هيئته ذكّرني بالملك الأسطوري "ماركو"، صاحب الحصان "شاركو"، الذي ضرب حجرًا كبيرًا على ضفة النهر بحافره الأيمن، فطار فوق التسعة جبال والتسعة بحور.

قبل ليلتين، وبينما كنت أنتظر ظهور القمر واستقراره في السماء، قبل أن أبدأ بضرب المنطقة المحيطة بالمسجد، زحف "لاودماوث" صوبي بهدوء بالغ، ثم بدأ يُخرج من جيوبه أساور وخواتم ذهبية، وساعات ثمينة، وأوراق نقدية. راح ينفض التراب الذي التصق بثيابه حين تسلل متلصصًا إلى البيوت التي هجرها أصحابها على عجالة، تاركين ممتلكاتهم الثمينة، ثم قال مبررًا تصرفه:

- إن كـُتِبَت لنا الحياة بعد هذه الحرب، فعلينا أن نؤمّن معيشتنا منذ الآن.

أخذت أفكر ما إذا كان يتوجب عليّ الإبلاغ عنه وعن سرقاته إلى القيادة، حين لمحت ابتسامته الساخرة، ونظراته المتحدية التي صوّبها نحو جيب قميصي. تحسست جيبي، ففوجئت بأنه قد دسّ فيه خاتمين كبيرين، دون أن ألاحظ.

قال بصفاقة:

- لقد وضعتُ عليكَ علامتي.

ثم التفتَ نحو الكابتن، الذي كان لا يزال مستلقيًا على ظهره فوق الحشائش، وهو يحاول مغالبة النعاس، وقال:

- دعني أخبرك بوضوح، أينما أضع علامتي، فإنها تبقى للأبد.

استطرد:

- كم امرأة نالت إحدى علاماتي الخالدة؟ الله أعلم! اؤكّد لكما، أينما نظرت، تركت علامة تذكّر أصحابها بي دائمًا. أنا كطابع البريد الذي يلتصق على الخطابات للأبد! نظرت إلى رقبة امرأة، فتركت علامة ستبقى معها مدى الحياة. وجهت نظراتي إلى يد سيدة أخرى، فتكونت علامة تحيط بأوردتها، على أكتافهن، وعلى أذرعهن، آثار تشبه تلك التي تخلّفها إبر التطعيم، دائرية وبارزة. نساء كثيرات، كثيرات جدًا. أصوِّب نظراتي إلى خدودهن، فتظهر الغمَّازات عليها.

استمعت إلى هذا الكلام العجيب، وأنا منهمك في تنظيف بندقيتي يا "دورنتينا". نظرت إلى ساعتي، عليّ أن أتوجه إلى برج الكنيسة عقب نصف ساعة، لأحلّ محل "بروتوس بولزاي". طردت فراشة استقرت على عدسة البندقية، وأنا أكتم ضحكتي على ما أسمعه. ليس من اللائق أن يضحك الإنسان في هذه الظروف، والضحايا يتساقطون من حوله في كل دقيقة. لكنني لمحت "هوك" وهو يبتسم ابتسامة عريضة، لم ينجح في إخفائها.

واصل "لاودماوث" حديثه:

- علاماتي لا تشوّه الناس، بل تزيدهم جمالًا.

قال "هوك" محاولًا أن يجاريه:

- نعم، نعم، بالتأكيد. كلنا نعلم أنك رجل يهتم بالجمال.

أجاب "إيكو لاودماوث" باقتناع وجدّية:

- صحيح. أنت محق يا كابتن. أنا رجل لطيف، رقيق القلب، كأرنب حبّوب.

استطرد قائلًا:

-قلبي طيب، لكن عيناي قاتلتان. نظرة واحدة، ثم، بوم!! أثرٌ باقٍ للأبد على بشراتهن!

قال "هوك":

- أنت توجِّه نظراتك إلى أماكن محترمة فقط، أعني الأذرع والوجوه مثلًا، أليس كذلك؟

- ماذا تعني؟

- أقصد أن أقول أنه بالرغم من أن نظراتك قاتلة كما تقول، لكنها محترمة في الوقت نفسه.

- عليّ أن أكون صادقًا. الأمانة تحتم عليّ أن أعترف بأنني نظرت في بعض الأحيان إلى أماكن أخرى، بشيء من الشهوة، في الحقيقة. لن أحاول ادّعاء الفضيلة أمامكما. أنتما مثل أولادي، وبخاصة هذا القناص الشاب، إنه ابن صديقي الحبيب "بين إي رويال نيستوروف"، الذي كان بمثابة أخ لي.

أردف قائلًا:

- في إحدى المرات، صوّبت نظراتي إلى صدر فتاة. كان صغيرًا ونافرًا. تركتُ علامة ظاهرة على حلمتها.

سكت قليلًا ثم أضاف:

– ثم رأيت فتاة أخرى وأنا أركب الباص. كانت ترفع ذراعيها لتقبض على العمود الذي يعلو رأسها. ارتفعت بلوزتها الضيقة فظهر الزغب الخفيف الذي يغطي بطنها، والنازل باتجاه.. هيا! أنتما تفهمان ما أعني طبعًا! أما الكُمّان القصيران، فقد بيّنا إبطيها الناعمين كمرآة مصقولة. راقبتها من المقعد المواجه لها. ارتفعت بلوزتها أكثر، فشاهدت سرّتها التي تشبه برعم وردة صغير. اشتعلت النيران داخل جسدي. تمعنت فيها. تركتْ نظراتي أثرًا على جسدها يشبه دجاجة ذات رأسين! غادرتْ الباص عند المحطة القريبة من الجامع. راقبتها وهي تبتعد. لها شعر شديد الصُفرة، وبالغ الغزارة، جمعت خصلاته في ضفيرة سميكة جدًا. فكرت حينها بأنها لو استلقت بتلك الخصلات في حقل من أزهار الربيع الصفراء، فلن يستطيع أحد أن يعرف أين ينتهي شعرها وأين تبدأ الزهور.

أردف بنبرات حالمة:

– أؤكد لكما بأنني لم أرَ في حياتي شيئًا في جمال وروعة ذلك الشعر.

شخص "هوت هيد هوك" ببصره، وغاب في أفكاره. انتهزت الفرصة، فمددت يدي داخل جيبي وتناولت الخاتمين وقذفت بهما ورائي. تخلصت منهما دون أن يلاحظ أحد.

واصل "لاودماوث" اجترار ذكرياته عن النساء اللواتي ترك بصمة على أجسادهن بعينيه:

– وهناك أيضًا تلك الفتاة البيضاء، ناصعة البياض، كالثلج. لمحتها وهي تغسل ثيابها في مياه النهر، بجوار محطة القطار التي تدمرت في تفجيراتهم، عليهم اللعنة. على أي حال، الماء في تلك الجهة ضحل، وبالكاد يصل إلى الركبتين، كما أنه أكثر نظافة وصفاء من بقية أجزاء النهر. كانت قد رفعت فستانها حول ردفيها، وانحنت لتغسل عددًا من ملابسها الداخلية. انعكست أشعة الشمس على ساقيها الشفافتين، وفخذيها اللامعين. صوبت نظراتي

إليهما. استقرتْ، في نهاية الأمر، أسفل ظهرها بالضبط. تركتُ علامتي هناك، علامة شبيهة بالصليب المعقوف، شعار النازية لا غير! كلما دعكت ثيابها بقوة أكبر، كلما نفر الشعار وظهر بوضوح أكبر.

واصل حديثه:

- مهما عشنا، فإننا لن نتمكن أبدًا من أن نحصي عدد الأشياء التي رأيناها، وتلك التي سوف نراها مستقبلًا، والأكيد هو أنه لا شيء في حقيقته يشبه ما نظنه للوهلة الأولى.

التفت إليّ وقال بجدّية بالغة:

- "بروتوس بولايز" يرغب في قضاء حاجته الآن، دون شك.

انطلقت مني ضحكة عفوية، فقال بلهجة آمرة:

- إذهب إليه الآن، لتبدأ مناوبتك.

تدخل "هوت هيد هوك"، وقال بنفوذ أكبر:

- لا يزال الوقت مبكرًا.

واصل "لاودماوث" حديثه عن امرأة النهر:

- وقفتُ أنظر إليها بدهشة، كيف ظهرت العلامة على جسدها بتلك السرعة؟ والصليب المعقوف دونًا عن أي إشارة أخرى! من جانب آخر، أنا أكره الشيوعيين، ومع ذلك فإن أغلب العلامات التي تخلّفها نظراتي، هي في الواقع نجمة حمراء! ظننت في البداية أن هناك من يمارس عليّ خدعة يتسلّى بها؛ صليب معقوف ونجمة حمراء! نجوم حمراء في كل مكان؛ على الصدور والظهور والمؤخرات والبطون والأكتاف.

أضاف بعد برهة:

- في إحدى المرات تركتُ نجمتين على ثديي معلمة الجغرافيا، في المدرسة التي كنت أعمل بها. كما وضعت علاماتي على ثلاثة أولاد؛ لكن هذا كان خطأ غير مقصود. ظننت أنهن بنات.

سعل "هوك" طويلًا، ثم قال بصوت متحشرج:

- ماذا قلت؟ "خطأ غير مقصود"؟!

- نعم. هذا يحدث أحيانًا. ماذا عنك؟

قال الكابتن وهو يمسح عينيه:

- ماذا عني؟!

- أقصد عينيك. كيف حالهما الآن؟

- آه، عيناي. بحالٍ جيدة. لا أرى بوضوح إلا حين تكون الأشياء قريبة جدًا، ولا أثق في شيء ما دمت لا أستطيع لمسه والتحقق منه بأصابعي.

قال "إيكو لاودماوث" بعد لحظات:

- كانت هناك معلمة في المدرسة، اسمها "بلوسوم". تركت عليها هي أيضًا أثرًا في...

تعمّدت مقاطعته قبل أن يكمل عبارته. عقب ذلك، قام الكابتن واقفًا، نفض ثيابه، وأعاد وضع سكين الصيد في حزامه، ثم علّق الـ"كالاشنيكوف" الجديد

فوق كتفه. كان المنظار المكبّر معلقـًا، كعادته، حول رقبته، والمسدس في جرابه. ظللت في مكاني، في انتظار الأوامر بأن أصعد إلى البرج، لأريح "بروتوس بولزاي" ويتمكن من قضاء حاجته. في تلك اللحظة، سقطت بضع قنابل، ربما بالصدفة أو عن طريق الخطأ، على الجانب الآخر من النهر. عقب برهة، سقطت أعداد مماثلة من القنابل داخل المقبرة. ضرب بعضها الجسر الوحيد المتبقي. في الثانية التي التفت فيها "هوك" نحوي، مال "بروتوس" بجسده خارج فتحة البرج، ووقع في منتصف المسافة بين الكابتن و"لاودماوث". اخترقت رأسه رصاصة من بندقيةٍ قنَّاصة، تاركة أثرًا صغيرًا بين حاجبيه.

# 25

انتهت جنازة "بروتوس بولزاي"، ووقفنا في الطابور العسكري المعتاد، حين جاء "هوك" راكضًا من الجبهة الجنوبية وهو يلهث. أعلن أن المياه تحيط بإحدى مجموعاتنا، وأننا بحاجة لإنقاذهم بأسرع ما يمكن. طلب أن نجمع له عددًا من المتطوعين لتنفيذ المهمة، ثم نظر إليّ وطلب مني ألّا أذهب معهم لأنه بصدد إعطائي مهمة أخرى، وقال:

- سأحتاجك بعد قليل.

عيّن قناصًا آخر، بدلًا مني، لمراقبة منارة المسجد، ثم طلب من الباقين أن يجهزوا أسلحتهم ويغادروا معه.

بعد بضعة ساعات، عادوا تغطيهم قطرات من دماء ضحاياهم، وهم صامتون تمامًا، بوجوه مكفهرة ونظرات شاردة. وحده "إيكو لاودماوث" الذي كان يتكلم متفاخرًا، قائلًا بزهو شديد أنه قد جمع رؤوسًا كثيرة، بلا أعين أو شفاه أو آذان:

- لا يمكن أبدًا أن تعرف مقدمة الرأس من خلفه!

أضاف بأنهم عثروا على جثة أحد الإرهابيين بجوار خزانات المياه، وقال ساخرًا:

- لو قمنا بتشريح تلك الجثة، فلن نجد أي روح بداخلها!

تعالت ضحكات الجنود المرافقين له، وأخرج أحدهم زجاجة براندي راحوا يرتشفون منها بالتناوب. حين انتهوا، ارتفعت أصواتهم بالغناء. دارت كلمات أناشيدهم حول القتل والذبح والشنق، ولأنني جديد بينهم فقد اضطررت لمحاكاة تصرفاتهم، خوفـًا من أن يظنوا بأنني ضدّ ما يقومون به.

قال اثنان من الجنود، وهما في الأساس مجرمان فعليان قررا شراء حريتهما بالإنضمام لصفوف المقاتلين بدلًا من تنفيذ العقوبة، بأنهما قد اغتصبا مؤخرًا زوجة شابة وحماتها. حطما الباب واقتحما المنزل. خلعت المرأتان ملابسهما في خوف. إحداهما صغيرة جدًا وشقراء، والأخرى ذات صدر ممتلىء وتلبس حجابًا. قاما بجرجرة السيدتين العاريتين خارج البيت. كانت كل منهما حامل في الشهر الخامس تقريبًا. قال العسكري الأكبر سنًا وهو يضحك بأن زوجيهما مسافران ولم يرجعا منذ ثلاث سنوات.

علّق الشاب الأصغر مبتسمًا، وهو يلقي بزجاجة البراندي الفارغة على الأرض:

- حين انتهينا منهما، كانتا في شحوب الموتى.

أعلن الرجلان فجأة بأنهما يشعران بحكّة قوية بين ساقيهما. مد الأكبر أصابعه داخل بنطلونه، وأخذ يهرش دون توقف. ابتسم الكابتن في البداية، لكنه حين رأى الطريقة التي يهرشان بها أجسادهما، أمرهما بالتوجه إلى النهر، وحلاقة تلك المنطقة من فورهما.

واحد منهما فقط هو الذي عاد، أما الآخر فقد أصابته رصاصة وهو يغتسل. شاهد الشاب رفيقه الأكبر سنًا وهو يترنح وسط النهر، ناثرًا الماء حوله، كما لو كان يمازحه؛ ثم غاص تحت الماء وتكونت الفقاعات حول رأسه الذي انبعثت منه نافورة حمراء، رشت رذاذها على النباتات فوق الضفة، فغطتها بالدم. وقف مرتعدًا أمامنا، بيدين مرتجفتين، وهو يحكي ما حدث بعبارات غير مترابطة.

بعد أن غربت الشمس، سمح لنا "هوت هيد هوك" أخيرًا بأن نتناول طعامنا. وُزعت علينا أرغفة الخبز وبعض المعلبات. جلسنا وراء الكنيسة لنأكل. لا زالت تنبعث منها رائحة البخور والشمع. قذف الكابتن بعض الحصى الصغير فوق شواهد القبور المغروزة في الأرض بين الحشائش. نهش "إيكو لاودماوث" نصيبه من الأرغفة، مطلقًا أصواتًا عميقة وهو يتنفس. نظر العساكر المحيطين به لبعضهم خلسة، وتابعوه بنظرات جانبية وهو يحرك أطرافه بقوة، ويزفر ويتنهد، كأنما يقاتل شخصًا لا يراه أحدٌ غيره. أخذ يحشو فمه بقطع كبيرة من الخبز. أخيرًا، قال بانفعال بالغ:

- إن ربحنا، فلن نربح سوى هذه الحرب الدائرة ضد أولئك المنتشرين على ضفة النهر. اللعنة! لن ننتصر، لديهم عدد هائل من الأبناء يكفيهم لثلاثة حروب على الأقل، أما نحن، فرجالنا يوشكون على الإنتهاء. لو خسروا هذه الحرب، فسوف ينتصرون في التي تليها، بل وجميع الحروب التي تعقبها. لن تتوقف هذه الحرب. صدقوني. سوف تتذكرون كلامي مستقبلًا. علينا أن ننتصر هذه المرة لننهي المسألة للأبد. لعنهم الله جميعًا.. آمين.

قال هذا، ثم قفز من مكانه مرتاعًا، كأنما لدغته مئات الحشرات، وابتعد عنا.

علّق القائد "هوك":

- سوف ننتصر.

أضاف بعد برهة:

- إلا إذا تعرضنا للخيانة.

تساءلتُ بصوتٍ هامس، دون أن أنظر إليه:

- لماذا نقيّم أنفسنا من خلال الحروب فقط؟

سمعني، كعادته في سماع كل صوت من أي مصدر ومكان، فأجاب:

- لأنها الشيء الوحيد القادر على توحيدنا. كل أمر عداها يؤدي إلى الـفُرقة. لا نستطيع العيش دون حروب، فمن غيرها لا نملك رابطًا مشتركًا.

بدأ "هوك" يتحرك ليغادر المكان، حين سأله الفتى الذي يحرس النقطة القريبة من بار "الديك الحليق":

- وماذا عن الحب؟

أجاب الكابتن مؤنبًا:

- الحب نفسه فـُـرقة يا ولد. لديهم حبهم، ولدينا حبنا. الأمر الوحيد الذي نشترك فيه معًا هو الموت.

قال الفتى معترفًا:

- في إحدى المرات، أحببت فتاة...

قبل أن يكمل عبارته، سقطت قنبلة قريبًا من المقبرة. ولأن فم "إيكو لاودماوث" كان ممتلئًا بالطعام، لم يستطع أن يسبّ أو يلعن كما اعتاد، فراح يصدر أصواتًا أقرب لعواء جرو متألم. خلال ثوانٍ قليلة، ردّت قواتنا بضرب منارة المسجد. ارتفع صوت الأذان المسجّل، لفترة طويلة. أعتقد جازمًا بأنكِ رأيت كل شيء بعينيك يا "دورنتينا". موقعكِ قريب من الجامع، ولا يبعد عنه سوى خمسمئة متر فقط.

قفز "هوت هيد هوك" بسعادة، متخطيًا القبور، باتجاه ساحة الكنيسة، حيث هبط النفق الممتد تحت البرج، المؤدّي إلى "الديك الحليق". عبرتُ هذا النفق مرة، وفي نيتي مهاجمة الأكتع. لكنني فشلت في مهمتي، إذ لم أجده حين وصلت.

ماذا بعد يا "دورنتينا"؟ ما الذي يمكنني أن أقوله لكِ يا عزيزتي قبل أن تقتلينني، وتنهين حكايتي واعترافاتي المتوالية؟ حكايتي التي تخلو من الحب الحقيقي، والعائلة الحقيقية، والذكريات الحقيقية والحنين؟ صرت أعرف الآن بأنني غير موجود من الأساس، فلكي تكون موجودًا، يجب بدايةً أن تكون سعيدًا في حياتك. كل شيء هنا، في هذا المكان، مظلم ورطب. أسوأ ما في الأمر هو خروجي سالمًا وعودتي إلى البلدة. لن أجد أحدًا بانتظاري، لكي يرحّب بي ويؤكّد لي بأنني ما زلتُ حيًا. كل ما سوف أجده هو صور "بلوسوم" وهي تلاحقني بابتساماتها من على جذوع الشجر. لقد جلبتُ لها العار يا "دورنتينا". لقد انتهيت يا عزيزتي، أوشكت الحكاية بأكملها على الإنتهاء.

كلا! انتظري قليلًا! اسمعي التالي، منذ يومين وصلتني رسالة. نعم، وصلتني هنا يا "دورنتينا". ظرف وردي بداخله ورقة صفراء، كتبت بالحبر الأحمر؛ بالإضافة إلى صورتين فوتوغرافيتين. إحداهما لقبر خالتي "فلورا"؛

رخام أسود تعلوه مزهرية بيضاء ضخمة، مليئة بورود بنفسجية. هناك انعكاس لأغصان شجرة برتقال، محمّلة بالثمار، على الرخام اللامع. الصورة الأخرى لصديقتها، ترتدي فستانًا أحمر ضيق، يلتصق بجسدها. إنها ثياب خالتي على الأغلب. في الصورة، تجلس المرأة في الشرفة الواسعة، تستظل بشجرة برتقال كبيرة. تقف إلى جانبها فتاتان متشابهتان بشكل متطابق، كأن كل منهما انعكاس للأخرى. في الخلفية، ألمح الفنار وبعض المراكب الكبيرة.

الرسالة تخبرني بأن خالتي "فلورا" أرادت رؤيتي قبل وفاتها، وأنها ظلت تسأل عني بشكل متواصل لثلاثة أيام متوالية، ثم صمتت بعد ذلك وماتت. كتبت المرأة أيضًا أن فندقي "زيفاجو" يحقق أرباحًا جيدة، وأنها تتولى بنفسها الإشراف على سير العمل فيه، كما لو كان فندقها. وعدتني بأن ترسل لي أرباحي، فور أن أحدد لها المكان والزمان. أي مال وأي أرباح يا "دورنتينا"؟ نقود من هذه أصلًا؟

كما ذكرتْ بأنهم، تنفيذًا للوصية، قاموا بوضع تمثال ضخم أمام الفندق، لامرأة تفتح ذراعيها كأنما تستعد لاستقبال أحبائها بين أحضانها، وهي تنظر إلى البحر باتجاه السفن العابرة.

في نهاية الخطاب، طلبت مني، هي وابنتيها، أن أبحث عن قبر الرجل الذي كان يحاول تدخين عقب السيجارة المطفأة، حين قابلته. أوصينني، إن عثرتُ عليه، أن أشعل فوقه شمعة بيضاء وأن أزيّنه بالكثير من الورود. أضافت تقول بأنه مات محترقًا داخل منزله.

لعل ذلك حدث في الفترة القصيرة التي نعمت فيها بالنجاح والشهرة والثناء على "العلامة".

أحتفظ بالخطاب في الجيب نفسه الذي أضع فيه مفتاح الدير، في الجهة اليسرى من قميصي يا "دورنتينا". إن متّ هنا وأصبحت جثة هامدة، ولم يستطع زملائي أن يخرجوني قبل وصول رجالكم، فأرجو أن تطلبي منهم أن يعطوكِ المفتاح والخطاب. من فضلك. بعد ذلك، تخلصي منهما بسرّية تامة، وبخاصة الصور المرفقة بالرسالة، للسيدة وابنتيها. لا أرغب مطلقًا في أن يطّلع أحد على أسرار حياتهن؛ كما إنني لا أريد أن يعلم أي شخص بموضوع خالتي "فلورا". لقد تركتُ صورتها وهي على المقعد المتحرك، في بيتي. لم يسعفني الوقت لوضعها في الحقيبة. لا، لقد نسيت أن آخذها في الحقيقة. حين دق "هوك" و"لاودماوث" بابي، لم أضع الكثير في حقيبتي. اهتممت بوضع أوراق ملكية فندق "زيفاجو"، والصحيفة التي فجّرت في صفحتها الأولى مفاجأة رواية العصر المسروقة. إنها هنا، معي يا "دورنتينا". لن أستطيع أن أخرجها الآن، لأنه يتوجب علي ألّا أتحرّك على الإطلاق. كان بإمكانكِ قتلي، قبل حتى أن ألحظ وجودك بين أزهار الربيع.

لا زلتُ هنا. لا أتمنى في هذه اللحظة شيئًا أكثر من أن أتحول إلى زهرة صفراء تلمس جبينكِ، وخدّكِ الأبيض بغمّازته اللطيفة. هناك طبقة رقيقة من الدمع تتجمع في زاوية عينكِ اليسرى. لعلها دموع فعلًا، ولعلها أيضًا ضوء لامع مسلّط عليّ. أعرف أن الحب ينعكس في العينين، وأن عينا المرأة المُحبّة تدمعان، دون أن تلاحظ ذلك. عينا "آيكونيا" كانت كذلك. لقد تذكرت "آيكونيا" للتوّ. كانت الزوجة الأولى لـ"إيكو لاودماوث"، وأم ابنه "أبراهام". اعتادت أن تجلس

معه على الترابيزة ذاتها، لكنها لم تجرؤ أبدًا على محادثته. تمتلىء عيناها بدموع متحجرة تأبى أن تسيل. لم يكن ينظر إليها بتاتًا. فرض عليها التزام الصمت، طوال الوقت. حين كنت طفلًا، جاءا يزوراننا في بيتنا في القرية. حاولتْ أن تقول له شيئًا، فكان نصيبها لطمة قوية، من يده المنتفخة، على فمها، ما إن فتحته. قال بغلظة:

- احتفظي بكلماتك لنفسك. فمك ليس للكلام. الكلام للرجال فقط.

ران الصمت على الجميع، حتى على القطة. شاهدت خيطـًا من الدم يسيل من زاوية شفتيها، لكنها مسحته سريعًا بيدها. بكيتُ و"أبراهام" في أحد أركان الحجرة، بصمت.

ماتت "آيكونيا" ذلك الشتاء، خلال نومها. مع حلول الربيع، وانتقاله إلى البلدة، كان قد أحضر امرأة أخرى اسمها "ريسكا"، مصابة بالصمم والخرس. جاءت مع طفليها اللذين كانا يتمتعان بصحة جيدة وحواس سليمة. حين أنجبت له توأمًا، سمح لها أخيرًا بأن تحمل اسم عائلته "لوجرهيد". لعلك تعرفين بأن "لاودماوث" ليس اسمه الحقيقي. أنا من أطلق عليه هذا اللقب، بسبب صوته المرتفع جدًا. حين يتحدث مع شخص أمامه، يأخذ في الصراخ كأنه يكلم أحدًا على بُعد تسعة جبال وتسعة بحور. مع تقدمه في العُمر، وتساقط شعره، ارتفع صوته أكثر فأكثر، لكن "ريسكا" لم تنزعج من ذلك، بطبيعة الحال.

ولداه التوأم "ريك" و"ميك"، لا يختلفان في هذا الأمر عنه. اعتادا أن يقفا بباب البيت وهما يتبادلان حديثًا مليئـًا بالصراخ؛ وإن سألهما أحد مثلًا إن كانا جائعين، فإنهما يصيحان بصوت واحد:

- لعلنا نريد أن نأكل.

وإن سألهما أحد إن كانا يرغبان في قضاء حاجتهما، يصرخان معًا:

- لعلنا نريد أن ندخل الحمَّام.

وهكذا يا "دورنتينا". لقد ورثا هذا الطبع من أبيهما كما أعتقد.

والآن، وقد رحل "إيكو" عن عالمنا، فإنني يجب أن أعترف بأنني أفتقده جدًا. الواقع أنه عندما كان يصيح بنا، مصدرًا أوامره لنا، كان ذلك يمنحنا حماسًا وجرأة نفتقر إليهما اليوم. دون صراخه المتواصل، بدأت أشعر بأننا قلّة، وأنكم أكثر منا يا عزيزتي.

من الإبتسامة التي تزيِّن جانب شفتيكِ، أستطيع أن أرى أنكِ لستِ غاضبة مني بسبب كل هذه التفاهات التي أقصّها عليك. عيناكِ الدامعتان قليلًا توحيان لي بأنك في حالة حب، ربما. لعلك تحبينني يا "دورنتينا". ما هو الحب أساسًا؟ وهل يمكن للإنسان أن يعيش دونه؟

هل تذكرين حين أخبرتكِ بأنني حين انتقلتُ للعيش مع جدّي، اتخذت قرارًا حاسمًا بألا أسمح لنفسي بالحزن أو البكاء أو الفرح؟ مع مرور الوقت لم يعد هذا مجرد قرار، بل جزء من شخصيتي. آمنتُ بأن الحرية الحقيقية تكمن في الوحدة الخالصة. حين قررت الكتابة، فعلت ذلك لأصبح مشهورًا، لإيماني بأن المشاهير لا يهتمون إن كان من حولهم يحبونهم أو يكرهونهم. الناس تغار منهم، وهم لا يبالون بذلك. هذا كل ما في الأمر. يتعاملون مع الناس على أنهم مجرد نمل يحوم حول أحذيتهم.

حين كتبت، اخترت أيضًا أن تكونَ النساء اللاتي يدخلن حياتي المتخيلة، أقرب للداعرات. يظهرن لفترة قصيرة، ثم تنتهي أدوارهن.

ليس هناك شيء اسمه الحب يا "دورنتينا". الحب الحقيقي هو أن تهتم وتخاف على شخص أكثر من نفسك. لعل هذا يفسر عدم إحساسي بالغيرة مطلقًا.

ما أودّ قوله يا عزيزتي، يا حبيبة قلبي، يا نور عيني، هو أنه لم يعد هناك ما يتسم بالمنطق في عالمنا اليوم. لا الصحيفة التي أحملها معي، ولا مفتاح الدير، ولا حتى الدفتر الذي دوّنت فيه بعض عبارات الحب التي أعجبتني.

على أي حال، إن كان الحب ذكرى، فتذكري دومًا هذا اليوم الجميل، بالفراشات التي تتطاير بيننا، والشمس التي تحوم فوق القلعة وهي تنظر إلينا ونحن منبطحان أمام أسلحتنا في مواجهة أحدنا الآخر. تذكري النسيم المعبّق بأريج الزهور الحزين، وأزهار الربيع الصفراء التي تحتضنكِ كأنكِ مِلكٌ لها. تذكري خرير النهر من تحتنا، الماء الذي نسمع انسيابه، ولا نستطيع رؤيته لأننا يجب ألا نحوّل أعيننا بعيدًا عن عدسات بنادقنا. تذكري اهتزاز الحشائش والشجيرات على ضفتيّ النهر، والأمواج المتهادية على سطحه. تذكري حركة شَفَتَيّ، وتذكري أيضًا وجهي وابتسامتي، وشعري بلونه الكالح، والأشواك والأزهار الوردية المتراقصة أمامي.

يمكنك أن تتذكري كل هذا، مستقبلًا، وتضيفيه لفصول حياتي، وأنتِ تكتبين نسخة أخرى من "العلامة". فلنكتب روايتين؛ واحدة من وجهة نظري، وأخرى تحمل رؤيتك. سأتذكر كل تفصيلة صغيرة، حتى نظل موجودَين يا "دورنتينا".

# 26

الليلة الماضية، خلال وجودي في الخندق، بدأت فجأة في تذكّر كل اللمسات التي تركت آثارها على جسدي. مرّت بخيالي "بيترا" وبشرتها بالغة النعومة. كل ما فيها ناعم، في الحقيقة. يشعرك بأنها توشك على الذوبان. كانت أشبه بفقاعات الصابون. كنت أحب أن ألمس كل جزء من جسدها بتمهل بالغ، وأنا أنظر إلى وجهها المتوهج وعينيها الساحرتين. تتجمّع حبَّات العرق عليها كحبّات لؤلؤ فوق قماش من القطيفة.

لم أعرف عنها شيئًا على الإطلاق يا "دورنتينا"، بل ولا أعلم حتى إن كان "بيترا" هو اسمها الحقيقي أم لا، فحين اتصلت بها في إحدى المرات، ردّت صاحبة البيت على المكالمة وقالت بأنه لا توجد فتاة بهذا الإسم الغريب في منزلها.

على أي حال، لا أدري ما الذي ذكّرني بها. كنت أظن بأنني نسيتها. لكن الأمر ليس بيدي، فهي قد تركتْ علامتها على جسدي. آثارها لا تزال عالقة بجلدي، دون أن أدرك ذلك.

عقب خروجها من شقتي، تأتي "رين دروب" دائمًا. إنها بمثابة عاصفة ليلية، أو فيضان قوي يجتاحني فجأة. تصحبها دومًا رائحة تشبه الطين؛ ورغم

اسمها الذي يوحي بالرقة وتساقط المطر، إلا أن ضخامة ثدييها كانت تنفي عنها تلك الصفة. صوتها خلال لقاءاتنا الليلية كان عاليًا ومرتفعًا.

بعد أن انتهت علاقتي بها، تعرفتُ إلى "ميمي". "ميمي" أمرٌ مختلف تمامًا. هادئة جدًا، أكثر مما ينبغي ربما. تخاف جميع الأصوات، حتى صوتها. ترعبها الظلال المنعكسة على السقف، وأصوات المياه القادمة من شقق الأدوار العلوية، وخطوات السكّان على السلّم. في كل مرة تزورني فيها، تقصّ عليّ "ميمي" حكاية والدها الذي أصيب بالعمى وهي طفلة، فاضطرت لأن تصف له جميع الأصوات التي يسمعانها طوال اليوم، حتى يقارنها بالأشياء التي عرفها عندما كان مبصرًا. حين تفشل أحيانًا في الوصف، ويعجز هو عن مطابقة الصوت بالصورة المنطبعة في ذهنه وذكرياته، فإنه يستسلم لنوبات من الإكتئاب.

روحها الدافئة كانت تملأ عروقي، عقب كل لقاء بيننا. حين تغادر، تبقى رائحتها الشبيهة بالفاكهة تعبّق الغرفة.

الفاكهة يا "دورنتينا".. الفاكهة.

هناك أيضًا نساء برائحة الخضراوات. "سيسي" كانت إحداهن. تنبعث منها رائحة الخيار. كانت لمساتها وحركاتها في غاية الخفة، كأنها فراشة رشيقة ترفرف بجناحيها على جسدي. خفتها لا تتفق مع ضخامة ودفء جسدها. شيء ما في تلك الفتاة كان يذكّرني بالديناصور! أحببت شفتاها الحمراوان المبتسمتان في رضا على الدوام. الحرارة المنبعثة من جسدها، طوال الوقت، كانت تذكرني بفرن جدتي "فريكلز" في القرية.

كانت جذَّابة جدًا، لدرجة أنني كنت أفوِّت بعض محاضراتي ودروسي أحيانًا لأظل معها في الفراش. ورغم أنني لم أحبها أبدًا – كما لم أحب غيرها – إلا أنها أكثر من استمتعت معهن، وتعلقت بهن. أمضينا معًا أوقاتًا حلوة، تأملنا خلالها الزهور البيضاء التي تنمو على أشجار البرقوق القريبة من شبَّاكي، ونسمات الربيع تهب علينا من الشباك المفتوح.

في فصل ربيع مماثل، تركت لي رسالة وضعتها على بابي، وكتبتها على ورقة انتزعتها من كراسة مادة الأدب العالمي. أخبرتني فيها بأنها ستتزوج رجلًا يعمل في الخارج، أسمته ممازحة "جوناثان ليفينجستون"، لعلمها بمدى حبي لتلك الشخصية. طلبت مني ألا أغضب منها.

لثلاث ليالٍ متوالية، حلمت بطائر النورس.

بعد ذلك، تفهمت تصرفها، وأدركت أن "سيسي" محقة، الحبيب شيء، والزوج شيء آخر. الحبيب هو الشخص الذي تتبادل معه الأشواق، أمَّا الزوج فهو من تتقاسم معه جميع جوانب الحياة. الحياة لا تقوم على الأشواق وحدها، بل على المشاركة.

عقب اختفائها من حياتي، دخلتها شابة أخرى تدعى "بيبي". اسمها الحقيقي هو "بيرسيفوني"، مثل الإلهة الإغريقية، لكنها كانت تشعر بالحرج من هذا الإسم العتيق. لها بطنٌ مستديرة ومشدودة، كثمرة كانتالوب. جلدها لامع ولؤلؤي ووردي، كأصداف البحر. صدرها، أعجوبة في حدّ ذاته. يخيّل إليك حين تراها بكامل ملابسها بأنه صغير الحجم، لكنها حين تخلع ثيابها تكتشف أنه ممتلئ وفتان. أكثر ما يميّزها هو مزيج الروائح الخلَّابة المنبعثة من كل جزء فيها.

لا أظن إنني سأعرفها إن رأيتها الآن. لا أظن أيضًا بأنني سأعرف "ديسبينا". اعتدنا أن نستذكر دروسنا معًا. كانت لها بشرة بالغة الرقة، تحمرّ بشدّة عند أدنى انفعال. حين قبّلتها للمرة الأولى، شعرت بأنها توشك على التهامي حيًا. إنها شخصية عجيبة، مختلفة تمام الإختلاف عن كل من عرفت. كانت تؤلف قصائد غامضة، تصفها هي نفسها بالكفر والهرطقة، ثم تلقيها عليّ بصوت هامس، وهي تلفظ كل كلمة ببطء شديد.

كنا على هذا الوضع، في إحدى المرات. هي تسمعني قصائدها بهدوء بالغ، وأنا أحاول مقاومة النعاس بجوارها، حين فُـتِح الباب الغرفة فجأة، ودخلت صديقتي السابقة "بيبي". حين رأتني في الفراش مع غيرها، ظهرت الصدمة على وجهها، وغطت فمها بيدها، ثم سارعت بمغادرة الشقة.

أغلب الظن أنها كانت تعتقد بأنني أحبها، لكنها أدركت خطأها بالتأكيد.

بعد فترة، تركتني "ديسبينا"، وحلّت "رورا" محلّها. "رورا" التي تميزت بعينيّ "حواء" وجسد "آدم". كل ما فيها ينم عن القوة؛ جسدها وصوتها، وأوامرها المتوالية ونحن في الفراش معًا.

وعلى عكسها تمامًا، كانت "أولي" نحيفة وقصيرة، ولكن بثديين بالغي الضخامة. أظن أنهما شكّلا عبئًا عليها، ولفرط كبر حجمهما، افتقرا لأي جمال أو جاذبية. علاقتي بها كانت تشعرني بالإختناق، ولم ينقذني إلا ظهور "كيكي". لها صدر صغير، وساقان طويلتان، لم أرَ في طولهما أبدًا. العلاقة معها أمتع من أن تصفها الكلمات. جسدها الفاتن يمثل الكون بأكمله؛ بقمره ونجومه وكواكبه. الجنس معها يشعر الإنسان بأنه يطير في الهواء يا "دورنتينا".

ثم ظهرت "بيبا". امرأة لطيفة بقوام جميل جدًا، وشعر طويل أكثر جمالًا. كانت متزوجة، وسعيدة في حياتها الزوجية. قبل رحيلي إلى "آيوا"، سافرت في إجازة مع أسرتها، وتعرضوا لحادث. لم يصب أي من أفراد العائلة بسوء، عداها، فقد عانت من كسر في العمود الفقري، أصيبت على أثره بالشلل.

حين عدت من أمريكا، اتصلت بي عدّة مرات ودعتني لزيارتها، لكنني لم أمتلك الشجاعة الكافية لرؤية ذلك الجسد البديع على كرسي متحرك.

أتذكر أنها كانت تحضر معها ملاءاتها في كل زيارة، وأن أغلبها كان باللون الأزرق.

معها، تعلمت أن جسد المرأة التي سبق لها الحمل والولادة مختلف جدًا عن أجساد النساء اللواتي لم يحبلن قبل ذلك. سيدات الفئة الأولى يفضن بدفء خاص لن تجده لدى غيرهن.

كانت "بيبا" موظفة في مكتبة الكلية. استغرقت محاولات إقناعها بزيارتي في شقتي عدّة أشهر. كنت معتادًا على تبادل الحديث معها، حين لا تكون المكتبة ممتلئة بالزوّار. أجلس معها لأسرد على مسامعها كل قصص الحب التي أعرف. حاولت أن أنقل لها فكرتي بأنه لا يوجد شيء اسمه خيانة، طالما أن الطرفين متحابين.

أخيرًا، جاءت إليّ في شقتي المطلّة على خيام الغجر والمسرح القديم، لكنها كانت تشعر بحرج بالغ منعها من أن تخلع ثيابها. أوليتها ظهري، ناظرًا إلى الجهة الأخرى من الغرفة. راقبت انعكاس ظلها على الحائط، وهي تطوي ملابسها وتضعها بشكل مرتب على ظهر الكرسي، قبل أن تندس بسرعة تحت بطانيتي. لم تحضر ملاءاتها تلك المرة.

أنينها، تنهداتها، صياحها، خبرتها، كل شيء في تجربتي معها مختلف ومتميز. اعتدنا أن نتقابل أسبوعيًا. مرتان على الأقل كل أسبوع، إلى أن تعرضت لذلك الحادث. لم يعد جسدها كما كان، لكنها تركت علامة لن يمحوها الزمن على جسدي. ربما عليّ أن أتصل بها يا "دورنتينا"، ولكن متى؟

هكذا سارت الأمور؛ علاقات ساخنة، يعقبها اختفاء إحداهن من حياتي، وولوج أخرى. أقابل كل ذلك بلا مبالاة صادقة، لا أدري حتى كيف لا زلت أتذكر أسماءهن يا "دورنتينا".

على فكرة، هل كنتِ ستوافقين على ركوب الحصان معي، كما في الحكاية التي قصّها "فاتوس ديدلـّي"؟ هل سترضين أن تركبي معي وأنتِ تعلمين أنني في الحقيقة ميت؟ هل كنت سأعرف أنني ميت؟

في الأيام الماضية، فشلت لثلاث مرات متوالية في إصابة الأهداف المحددة لي. حين سمع "هوت هيد هوك" بذلك، أتاني مهددًا بأنه سيقتلني بنفسه بالرصاص إن واصلت إخفاقي في ضرب الأهداف التي يحددها لي الليزر. لهذا أحضرني إلى هنا، ويواصل مراقبتي من الخندق، أو عبر المنظار من موقعه بجوار الكنيسة. أظن أنه يفهم ما يجري.

ابتسامتكِ الرائعة وهي تطوف على الجانب الأيسر من شفتيكِ يا "دورنتينا"!

يمكنني مراقبتك لأيام، دون توقف، وأنا أشعر بالدفء يسري في صدري. لا أدري إن كان هذا هو الحب. إنها مشاعر لم أعرفها مسبقًا. صرت أحب الطريقة التي تتنفسين بها، وبتلات الزهور الصفراء وهي تداعب خدك الجميل، وتلك

الإبتسامة التي تبدأ دومًا من الجانب الأيسر لفمك، والنسيم وهو يتسلل إلى داخل فتحة قميصك.

أنتِ المرأة التي تركتْ أقوى علامة على جسدي يا "دورنتينا"، رغم أنني لم ألمسكِ قط.

لا أستطيع أن ألمسك، لكنني أستطيع أن أحبك. لا أستوعب المسافة الشاسعة التي تفصل بيننا. أنتِ لا تستطيعين لمسي، لكنك تستطيعين قتلي.

أنتِ تتابعين حركة شفتيّ، وتفهمين كل كلمة أقولها، بل وكل ما أود قوله ولم أنطقه بعد.

ما أودّ قوله حقًا، في هذه اللحظة، هو أن الموت موجود لنفهم من خلاله معنى الحياة.

# 27

بوسعي أن أضمّكِ إلى صدري، كما لو كنتِ "إيما بوفاري"، وأحملك إلى السرير ذي الأعمدة الأربعة المنصوبة على جوانبه، ثم أخلع عنكِ ثيابكِ، بتمهل شديد، بمنتهى البطء. الرجفة في أصابعي تعيقني قليلًا عن فكّ أزرار فستانك الحريري. الثوب الناعم يبدأ بالإنزلاق نحو الأسفل، لكن أحد الأزرار العنيدة يوقف حركته؛ وكأنكِ "ناتاشا روستوفا" أو "آنا كارنينا"، ترفعين الفستان وتخلعينه بنفاد صبر عبر ذراعيك ورأسك. ينفلت الزر من ملابسك، ويطير في الهواء، ثم يتقافز ويتدحرج على الأرض، قبل أن يختفي عن ناظرينا.

تقفين الآن عارية تمامًا؛ الهالتان السمراوان على طرفي صدرك، تصنعان تضادًا ساحرًا مع البياض الشاهق لبقية جسدك. أقبّلكِ؛ عطشان يعبّ الماء من نبعٍ صافٍ. تكتمين أنفاسكِ لوهلة، ثم تبادلينني القبل. تتكوّن الأمواج على سطح جسمكِ في دوائر متداخلة، متراقصة. أنصت إلى أصواتها بافتتان بالغ. رقاقات من النور تغطي وجهكِ، وتخلده في روحي للأبد.

أنتِ ترتعشين، وكفراشة أسطورية تطيرين بي في أجواء من الضوء اللانهائي والجمال الدائم. تحملينني على أجنحتكِ ونخترق معًا عوالم اللذة والرغبة التي تكاد تقتلني.

أفتح عيني اليسرى، فأرى القلعة على مسافة بعيدة. القلعة نفسها التي أراها بعيني اليمنى، ملتصقة بأنفي. أراكِ أنتِ أيضًا، "دورنتينا" الحقيقية، مقسومة إلى نصفين. رأسكِ قريبٌ مني، عبر العدسة المكّبرة للبندقية؛ أمَّا بعيني المجردة، فأرى جسدكِ بعيد جدًا، كأنه غير موجود إلا في أحلامي وخيالي.

أتأمل رأسك، ذلك الشعر الذهبي السابح وسط بحر أزهار الربيع الصفراء. أغمض عيني اليسرى. اكتملتِ ثانيَةً، في قمة البهاء. تستندين إلى كوعيكِ، وتنظرين إليّ بابتسامة وأنتِ تتأملين فمي كطفل ينتظر بتشوق سماع نهاية الحكاية. أدرك طبعًا أن بإمكانكِ قتلي متى شئتِ، ومتى قررتِ.

أتأملكِ وأنتِ منبطحة أمام بندقيتك، وأفكر في إحساسكِ بالضبط. هل تشعرين بذبذبات تسري بين ساقيك المنفرجتين هكذا؟ هل تحسين، عبر صدرك الملتصق بالأرض، بالأصوات المنبعثة من العوالم التي تقع أسفلنا؟ بالزهور وهي تنمو تحتك؟ بالجنود وهم يتساقطون على الأرض لافظين أنفاسهم الأخيرة على خط الجبهة؟ نحن هنا، في أماكننا المرتفعة، بمنأى عما يحدث هناك في الأسفل. بعيدين عن صدى الحياة المتردد بين جنبات الحب والجنس والولادة والموت وصعود الأرواح لعوالم أخرى.

أقول بصوت مرتفع بعض الشيء:

- أرغب في أن أمسّد شعرك، وأن أتحسس جسدك برموش عيني، وأن أحتضنك وأنتِ مستلقية على نفس هذه الوضعية.

أنتبه، فجأة، إلى الغضب الذي بدأ يزحف على ملامحك. تعقدين حاجبيكِ بغيظ، وتحكمين قبضتك على البندقية، وتكتمين أنفاسك في ترقب.

لقد انتهيت. وصلتْ الحكاية إلى نهايتها. سوف تقتلينني الآن. سيتناثر دمي على الشجيرات المحيطة بي. كان عليّ أن أصغي إلى كلمات "دون خورخيه خوليو"، أو "أميجو إيبرتي"، بانتباه أكبر، حين قالها لي في حجرتنا المشتركة داخل سكن الطلبة في "آيوا":

– على الكاتب أن يمسك بقلمٍ في يد، وببندقية في اليد الأخرى. القلم، ليعرف قدراته وموهبته جيدًا؛ أمَّا البندقية فحتى لا يتخطى حدوده. خير مثال على ذلك هو هاري مورجان. حين أحسّ بأنه تجاوز حدوده، قرر الإنتحار حتى لا يتورط أكثر من ذلك.

أخاطبه في سري، مستعيدًا كلامه:

– لو أنني تذكرت ما قلته، في الوقت المناسب، لما حدث ما حدث يا صديقي. لا هذا الوضع الذي أجد نفسي فيه الآن، ولا الأحداث التي تلت صدور روايتي.

نعم يا "دورنتينا"، لقد تجاوزت حدودي. أردت أن أضمّن كتابي جوانب إيروسية، بطريقة فنية. لكن النتيجة كانت مجموعة من الحكايات الجنسية المبتذلة. لو كنت حينها أملك سلاح هاري مورجان، لأطلقت رصاصة في فمي. واقع الأمر أنني حاولت تخطي إمكانياتي الحقيقية يا عزيزتي. أرجو أن تسامحيني يا عزيزتي. لا أريد أن أكون ضعيفًا أو منسحقًا أمامك، لكنني أظن بأن الطريقة التي أعتذر بها منكِ الآن، تجعلني أبدو كذلك.

أنتظر قبلتكِ على جبيني. أريدها قوية. تفيض بالشهوة. قبلة أتذكرها لقرونٍ قادمة. هيا يا حبيبتي. جبيني أمامك. أنا في الإنتظار، كما ترين. كان ينبغي أن يحدث هذا منذ زمن بعيد.

أشعر بدائرة الليزر على جبهتي، وأعرف جيدًا أنك مستعدة. أرى الطريقة التي تحبسين بها أنفاسك، وعينك اليسرى التي تبقينها مغمضة بإحكام.

لكن لا شيء يحدث. فجأة، ترتخي أصابعك الممسكة بالبندقية، ويبدأ صدركِ في الصعود والهبوط مع انتظام أنفاسك. الأزهار تهتز أمام وجهك. أي كمية من الهواء والأنفاس كنتِ تختزنين بداخلك منذ لحظات؟

تفتحين عينكِ اليسرى، وتدفعين بأصابعك خصلات شعرك الطويلة إلى الخلف، فتتساقط على ردفيك. تبتسمين بالجانب الأيسر من فمك، ما يعني أنكِ قد سامحتيني.

السماح مرتبط بالمحبة. نسامح من نحب فقط.

اسمعي يا "دورنتينا"، أنا بدوري أسامحك، وأتمنى لكِ كل الخير. حتى لو مت، فإنني سأظل ملازمًا لك. سأكون فراشة ترافقك في كل خطوة من حياتكِ الجديدة، حين يزينونك بالذهب، وحين يصطحبونك إلى قرية حبيبك، وأنتِ تضعين فوق رأسك شال مطرز بألوان مبهجة. سأكون الضفدعة التي تراقبك حين تذهبين بصغارك إلى البحيرة. تحملين واحدًا فوق ذراعك، وتمسكين بيد الآخر بين أصابعك، والثالث يتكور في أحشائك باطمئنان. سأكون سعيدًا، كزهرة بيضاء رقيقة، وأنا أراكِ تسيرين خلف زوجك بنحو خمس خطوات في طاعة. في الطاعة سعادة. لعل هذا هو السبب الذي جعلكِ تنضمين لصفوفهم. سوف أكون العشب الأخضر على الضفة اليمنى، الذي يدرك بأنكِ لن تكتفين بهذا الجانب وحده من النهر، وأنكِ تتطلعين إلى الحصول على بقية الأراضي، لتكفي كل الأبناء الذين ستلدينهم. سأصبح زهرة عبَّاد الشمس التي تلتفت

نحوك أينما ذهبتِ، لأنك أفضل وأحسن قنَّاصة مرّت عليهم. أنتِ التي قتلت، بمفردك، ثلاثة وثلاثين رجلًا من جنودنا.

أنتِ ترغبين في الحصول على جانبنا من النهر. لهذا أنتِ هنا، بين الزهور.

وأنا؟ أنا الفراشة والضفدعة والزهرة البيضاء وزهرة عبَّاد الشمس والعشب الأخضر. أنا كل ذلك، ولا أحمل أي ضغينة تجاهك.

أتمنى لكِ كل السعادة، وأن تحققي كل ما تحلمين به. أحب أن أراك وأنتِ تقفين خلف بوَّابة بيتك الخضراء، وأنتِ تتأملين القمر وهو ينثر ضوءه على التلال. أنتِ ترغبين في حياة كهذه. لقد رأيت الإضطراب الذي لاح عليك حين تهدمت منارة الجامع.

أنتِ في صف ناسكِ وجماعتك، وأنا في صف ناسي وجماعتي، ويفصل بيننا هذا النهر. هذا ملخص الأمر. هذا هو الواقع.

على أي حال، استمعي إلى نصيحتي وكوني نفسك. لا تذوبي داخل أحلام شخص آخر. لا تنجبي أطفالًا من أجل الأرض فقط. لا تلبسي ثيابًا قبيحة، غير متناسقة، لمجرد أنكِ أصبحت زوجة. لا تغطي رأسك بحجاب يلامس حاجبيك.

أقف على الجهة اليمنى، وأنت على اليسرى. لكنك إن التفتِ للوراء، فسوف ترين البقايا المدمرة لكنيسة القديس جورج. إنها خلفكِ بالضبط، أسفل الحائط الجنوبي للقلعة. هل تعلمين أن تلك الكنيسة بُنيت منذ أحد عشر قرنًا؟ هل تظنين أنه يمكن محو أحد عشر قرنًا من الزمان ببعض القنابل وبمنارة

جامع جديد مكانها؟ هل يمكن تقسيم النهر إلى جزئين، ينساب أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب؟

إن كان ذلك ممكنًا، فإنني أجدّد إعتذاري يا عزيزتي.

آه، نسيت أن أخبركِ بأنني سأصبح زهرة نرجس، لكنني لن أكون سعيدًا حين أرى زوجك الملتحي وهو يهديكِ شبشبًا مزركشًا، أو عبوة بودرة تالك لتضعيها على وجهك وتبدين أكثر بياضًا وشحوبًا.

هل سيمنعكِ من الإستمرار في إطالة شعرك؟ هل سيجبرك على تغطيته؟ ألن يراه أحد بعد ذلك؟ على فكرة، كيف سمح لك الأكتع بالإستلقاء على الأرض هكذا دون جلباب طويل محتشم؟ من سمح لك بالبقاء دون حجاب على رأسك وشعرك منسدل بهذه الطريقة على بساط الزهور الصفراء؟

سامحيني. أظن بأنني أحبكِ يا "دورنتينا". نعم، أحبك.

أراكِ ترمشين بعينكِ اليسرى، في عدم تصديق، على ما قلته للتوّ.

أي جرأة تدفعني للتدخل في تفاصيل حياتك التي لا أعرف عنها شيئًا. لم أركِ قبل حضوري إلى هنا أصلًا!

أظن أنني لم أقل شيئًا. لعلني كنت أود قول شيء معين، ولم أفعل.

هل تقولين أننا كنا زملاء في نادي "فالانكس" للرماية؟!

أراكِ تقولين شيئًا، أقرأ شفتيكِ:

- كنا كذلك، ثم ذهب كل واحد منا في طريق. التحقت أنا بنادٍ جديد اسمه "سكندربو". باستخدام ثمان رصاصات فقط، أستطيع رسم زهرة على الهدف.

تغمزين بعينك، فلا أدري إن كنتِ صادقة، أم أنها مجرد مزحة. لكنني أتذكر فعلًا أن بعض المتدربين الناشئين تركوا نادينا، وانضموا إلى "سكندربو".

تحدثتُ كثيرًا. أشعر بعطشٍ شديد. لا أستطيع أن أشرب. ليس معي ماء. ليت "هوت هيد هوك" يحضر لي معه شريحة ليمون مثلًا. لا أريد أن أموت عطشانًا. يكفي أنني سأموت بائسًا وذليلًا، ومحبطًا من الحياة والموت معًا. لا أجد فرقًا بينهما أساسًا. رغم كل ما أنا فيه، لا زلتُ أراكِ يا "دورنتينا"، ولا زلت أرى الشمس فوق القلعة، وهي تغالب إحساسها بالدهشة.

أتأملك. وجودك يوحي لي بأن كل شيء على ما يرام، وأن الأمور تسير بشكل طبيعي. أنتِ على قيد الحياة، وشعركِ ينساب على الزهور، أو أنه هو الذي يتسلق خصلاتك، لستُ متأكدًا. تواصلين مراقبتي بتيقظ تام، ومتى ما أحببت أن تضغطي على الزناد، فسوف تنهين حياتي الفاشلة هذه، بكل أحداثها البائسة.

هيا يا "دورنتينا"، أطلقي رصاصتك وأنهي الموقف. لن يلاحظ أحد غيابي. لا أحد على الإطلاق، سوى "هوك" على الأغلب. همّه الوحيد هو إحصاء عدد القتلى على الجانب الآخر، ليطمئن الأحياء في جانبنا بأن الانتصار حليفهم.

هيا يا "دورنتينا"، أتوسل إليكِ.

أغمض عينيّ.

أفتح اليسرى بعد لحظات، ثم اليمنى. لا شيء. لا أحد.

أين أنتِ يا "دورنتينا"؟ أين اختفيتِ؟

# 28

فجأة، تعود المساحة أمام البندقية إلى فراغها المعتاد. ألمح بعيني اليسرى زهرة عبَّاد شمس برية تتأرجح أمام عدسة السلاح. هكذا إذن! هي التي غطت العدسة، فأخفت "دورنتينا" لثوانٍ قليلة، أو لدهور. لم أركِ يا "دورنتينا". متى نبتت هذه الزهرة، ومن أين جاءت؟ تكاد تبتسم ونسمات النهر تداعب بتلاتها. أنتِ أيضًا تبتسمين بالزاوية اليسرى من فمك. ألمحكِ تلعقين شفتكِ العليا بطرف لسانك، ببطء شديد. عينكِ اليسرى، المفتوحة دائمًا، دامعة قليلًا. أشعر بلسانكِ وهو يطوف على رقبتي وصدري. وسط كل هذه الإثارة يأتيني صوتكِ:

- أيتها الوردة البيضاء الجميلة. أيتها الحزينة. ازرعي الشمس بداخلي، احملي لي النسيم والنهر وجميع النجوم. احضري لي القمر. سأكون سماؤك. سأكون الشمس التي تقف فوق جدران القلعة.

أحتضنكِ بين ذراعيّ. تنساب كلماتك إلى أذنيّ، وسط تأوهاتك:

- أنا الإرتفاعات الشاهقة. أنا الأعماق البعيدة. أنا نهايتك. أحبني يا حبيبي.

لقد قلتِ ذلك! قلتيه حقًا! "يا حبيبي"!

أتابع لسانك الذي لا زال يطوف متمهلًا على شفتيكِ. أرى جسدكِ وحرائق الأشواق تندلع فيه أمامي. تسمعين همساتي، فتزهر الورود بداخلك.

زهرة عبَّاد الشمس البرية تتوجه بأكملها نحو الشمس التي تعلو القلعة. أنظر إليكِ جيدًا. كل شيء على حاله. هل كان اللقاء الذي انتهى بيننا، منذ لحظات، في خيالي فقط؟

أشعر بأن الزمن منقسم إلى جزئين؛ الأول قبل ظهور زهرة عبَّاد الشمس، والثاني بعد ملاحظتي لوجودها.

لم يحدث شيء، كما يبدو، فأنتِ لا تزالين تنظرين إليّ بطريقتك المعتادة.

حين أحضرني "هوك" إلى هنا، كنتِ أنت موجودة قبلي. في انتظاري ربما. سنحت لكِ الفرصة لقتلي عدة مرات، قبل حتى أن أكتشف وجودك وسط الأزهار الصفراء. سأظل أسألك دومًا، هل شعركِ هو الذي يغطيها، أم أنها هي التي تغطي خصلاتك؟ لا يهم. النتيجة واحدة. جدار السدّ يلمع على النهر، تحت أشعة الشمس التي تتجول في السماء. أشعر بأنك تريدين أن تقولي شيئًا يا "دورنتينا". ترغبين في ذلك. أراه في عينكِ، وفي الطريقة التي تفتحين بها فمك. ها أنا أسمعكِ تقولين:

- سوف أخبرك شيئًا عني، قبل أن أقتلك. للضحية الحق في التعرّف إلى قاتله. إن القاتل الذي يتسم بالرحمة، هو فقط الذي يحرص على فعل ذلك. إنهاء حياتنا دون إبداء أسباب أو تبريرات، هو حق خالص لله فقط. كنتَ زميلي في "فالانكس"، في تدريبات الرماية. أنتَ لا تتذكرني الآن، رغم أنك حينها لم تكن تستطيع إبعاد عينيكَ عني. تنظر إليّ باشتهاء واضح، كما لو كنتُ تفاحة

مغطاة بالكراميل. التحقتُ بعدها بنادي "سكندربو"، وأصبحت بطلة البلقان في الرماية بالبندقية الـ"كاليبر" لثلاث مرات متوالية. قد يكون هذا أمرًا متوقعًا. لكن ما لم تتخيله قط، وأنا متيقنة من ذلك، هو أنني في الأساس راقصة باليه. نعم، أنا راقصة محترفة. قدمتُ عروضًا شهيرة، مثل "بحيرة البجع" و"شهرزاد". لديّ ساقان جميلتان، طويلتان ونحيلتان. القدمان مائلتان للخارج بعض الشيء، ولهذا يشبّه البعض طريقتي في السير بالبطريق! بطني مشدود جدًا، جسدي ناعم وحليق دومًا، كقطعة خشب ملساء. شفتاي ورديتان، وصدري صغير وناهد. أعاني من ضعف في الإبصار في عيني اليسرى. هذا غريب، أليس كذلك؟ بالكاد أرى بها أزهار الربيع أمامي. الخلاصة، أنا لستُ أبدًا ما تصورته أنتَ عني. أعرف أنك ككاتب تحب زخرفة الأمور وإضافة الكثير من التفاصيل الخيالية للحقائق. أنت محق في شيء واحد فقط، هو مهارتي العالية في التصويب. لم أفشل أبدًا في إصابة أي هدف محدد، ولذلك لا أريدك أن تقلق أبدًا. لن تخطئك رصاصتي. ستضربك في غمضة عين، بهدوء وسلاسة. بخفة، كما الفراشة. لن تشعر بشيء. أعتقد بأنك سترى ستارة حمراء تنزل أمام عينيك، يعقبها ظهور كلمة "النهاية"، معلنةً ختام المسرحية. ربما سيتناهى إلى سمعك صوت تصفيق أيضًا. أنا آسفة، لن تستطيع العودة لخشبة المسرح، لتحية الجمهور. كان بإمكاني أن أقتلك منذ رأيتك. لكنني أؤمن بأن كل شخص يمتلك الحق في معرفة أنه موشك على الموت. إن كنتَ في معركة حربية، على سبيل المثال، فأنت تعلم أنك ستموت خلالها على الأغلب. أما أنتم معشر المؤلفين والكتّـاب، فتظنون أنكم مخلدون. لعلك الآن تفكر بأنني إحدى شخصيات روايتك مثلًا. عمومًا، سواء أكانت هذه رواية أم لا، فأنت مدرك طبعًا بأنك ستموت قريبًا. لم يبق لك سوى سماع التصفيق فقط.

أكرر وراءكِ يا "دورنتينا":

- التصفيق فقط..

تومئين برأسكِ موافقة، وتقولين:

- انتظر! هناك شيء آخر.

- ما هو؟

تبتسمين، وتتنفسين بعمق. تتراقص الأزهار أمام أنفاسك. تجيبين:

- لو أنني مستلقية هكذا، بنفس الوضعية التي أنا عليها الآن، ولكن دون أي قطعة من ملابسي، هل كنتَ ستتركني دون أن تمارس معي الجنس؟ هل كنتَ ستفعل؟ عليّ أن أخبرك إذن بأنني لا أحب هذه الأمور على الإطلاق. أمقتها. لقد نلت كفايتي منها، وتحملت الكثير. لا أرغب أبدًا في أن يقترب مني أحد. لن أوافق على أن أكون مجرد جزء من ذكرياتك. قبل أن أتزوج، توجهت إلى شخص يمارس الختان، في إحدى القرى. قام بخياطتي وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه. تزوجت بعد ثلاثة أيام. الزوج لم يدعني وشأني طوال الليل. في الصباح، اكتشف عدم وجود نقطة دم واحدة على الفراش. جن جنونه، وحاول كتم أنفاسي بالوسادة. حطمتُ مزهرية قريبة من السرير، وأمسكت بأحد أجزائها الحادة وقمت بنحره. كان يمتلك مخبزًا للحلويات. كان في الحقيقة إرهابيًا ووهابيًا.

أضافت بعد برهة:

- الحقيقة التي لا يعرفها أحد، تكون عادةً أكثر جموحًا من أكبر كذبة قد تتخيلها.

استطردت:

- ظن الجميع بأنه مات على يد قاتل محترف منكم، فأحضروني إلى هنا لأنتقم بنفسي ممن قتلوه. المفارقة أن الذي أحضرني هو ذلك الرجل الذي تلقبه أنت بـ"الأكتع". كان قد حضر إلى بيتي للإطمئنان على أحوالي مع زوجي. هذا الأكتع متطرف ديني بالغ الخطورة، ومن المرتزقة. له أتباعٌ كثيرون، والجميع يطيعه هنا، رغم أنه مختل ويعاني من الفصام. هذا أمرٌ مؤكد. على أي حال، هناك نقطة أرغب في توضيحها لك. إنه ليس "فاتوس ديدلـّي" كما تظن. أنت معذور طبعًا. من يستطيع الآن، في هذا الزمن الذي اختلطت فيه كافة الأمور، أن يفرّق بين لحية إرهابي مجنون ولحية شاعر وأديب؟

واصلت حديثها:

- أنا هنا لأنتقم لمقتله. هذا ما يظنه أشقاء زوجي الراحل، بل هذا ما يعتقده الجميع. وحدنا، الأكتع وأنا، نعرف الحقيقة كاملة، فقد كان هو من دفع أتعاب عملية الترقيع التي أجريتها في تلك القرية. ليس لي أدنى رغبة في ممارسة الجنس مع أي أحد، للأبد. أرغب في شيء واحد فقط، أريد أن أرقص الباليه ثانيًة. وعدني الأكتع، بأنه بعد أن ننتصر، فسوف يكون لنا جامعتنا الخاصة، ومسرحنا القومي، وعروض مستمرة للباليه والأوبرا، وسوف ألعب دور البجعة البيضاء في "بحيرة البجع". لدينا أفكار كثيرة، ولدينا شعب. كل ما نحتاجه هو أرض نبني عليها تاريخ جديد. أنت الهدف الذي ينبغي عليّ القضاء عليه. أنت انتقامي، وأنت جائزتي. يجب أن أتخلص منك، حتى لا أصبح عاهرة، ولا ميتة. كل ما أريده فقط هو أن أعود راقصة باليه مرة أخرى، وأن أقدم عروضًا بها موسيقى من بلادي، وأغانٍ بلغتي الأم. هل تفهم ما أقول؟

أكرر العبارة الأخيرة، فأقول:

- نعم، موسيقى من بلادكِ، وأغانٍ بلغتكِ الأم.

أريدك أن تعرفي بأنني فهمت كل ما تقصدين.

تطلقين تنهيدة عميقة، بارتياح، وتشدين ذراعك الذي تستند البندقية إليه. ذراعيكِ طويلان وملفوفان في استدارة ونعومة. أصابعكِ رشيقة، تنتهي بأظافر وردية. امرأة بذراع مثل هذا، لا بد أن لديها ساقان قويتان. أرغب في رؤيتك تقفزين بهما في الهواء، وتنزلين على أطراف أصابع قدميك. اقفزي يا "دورنتينا" كبجعة رشيقة.

الشمس ثابته فوق القلعة المهدمة، لم تتحرك يمنة ولا يسرة. أعرف ذلك لأن الخط الوردي الذي يعلو عدسة بندقيتي لا يزال في مكانه.

أشتاق لرشفة ماء قبل أن أموت. يجب ألا أكون عطشانًا حين تُسدَل الستارة الحمراء أمام عينيّ. أسمع النهر في الأسفل وهو يندفع بقوة. أتخيل أنه يجرّ "بلوسوم" إلى اﻻضفة الأخرى.

أسمع النهر، وأحسد الأسماك التي تسبح فيه. أنظر بطرف عيني اليسرى إلى زهرة عبَّاد الشمس البرية الصغيرة، وهي تتأرجح أمام ماسورة بندقيتي. أتأملها وأنا غير مصدّق. هل كانت الزهرة هي التي قالت كل ذلك يا "دورنتينا"؟ لا أصدق التفاهات التي قالتها على لسانكِ ولساني. لو كنت أستطيع الحركة، لقمت من مكاني واقتلعتها من جذورها.

- أنا أحبكِ.

من الذي نطق بذلك؟ أنا أم الزهرة؟ لا يهم، فعلى أي حال أنا لم أتفوه بهذه العبارة مطلقًا، طوال حياتي.

أراكِ تغمزين بعينكِ والإبتسامة تملأ وجهك.

هل يمكن للإنسان أن يحب شخصًا سوف يقتله؟ هل يحب الضحية جلاده؟ هل يحب الجلاد ضحيته؟

لا بد أنك تعتقدين بأنني أخرّف من شدة الشمس الحارقة المسلطة على رأسي. الوضع أسهل بكثير في جهتك. بقايا القلعة توفر لك شيئًا من الظل.

كان بإمكاني البقاء داخل برج الكنيسة، بدلًا من النزول إلى هنا ورؤيتك بين أزهار الربيع.

ولكن، أليس مؤسفًا أن أبقى هناك، دون أن أراكِ؟

# 29

- هيّا!

خاطبني "هوت هيد هوك" وهو يلهث، صاعدًا أمامي سلم برج الكنيسة. وصلنا إلى القمة في لحظات، ووقفنا تحت الجرس المعدني الضخم، مباشرًة. قرأتُ المحفور عليه؛ "فيدين – 1801". تمّ صنعه هناك منذ مئتيّ سنة. مرّ الهواء عبر انحناءات الجرس مصدرًا صوتًا مرتفعًا، لم أستطع تحديد إن كان يشي بالتفاؤل أم بالتشاؤم.

عبر الشقوق الضيقة في الجدار، يمكن رؤية النهر ومقابر الأرثوذوكس، ومقابر المسلمين، وقلعة الإمبراطور، وبقايا كنيسة القديس جورج، وجامع "سنان باشا" الذي بني عام 1808 على آثار دير "العذراء المقدّسة". على مسافة أبعد قليلًا، يظهر الجسر وبار "الديك الحليق"، والأراضي الشاسعة المحيطة بالجبال التسعة في الجهة الغربية.

المنظر من الأعلى يوحي لك بأن الوادي بأكمله في راحة يدك، وأنك تستطيع أن تطيّره بنفخة واحدة.

أشار الكابتن "هوت هيد هوك" برأسه تجاه المسجد. رفعتُ ماسورة البندقية ووضعتها في فتحة البرج. لاحظت بريقًا آتيًا من المنارة. حبستُ

أنفاسي، ودققت النظر جيدًا. اكتشفت، في نهاية الأمر، أنها مجرد مرآة صغيرة معلقة على مسمار في الحائط، بواسطة خيط سميك. يحرّكها الهواء، فتصدر وميضًا لامعًا، لنعتقد نحن – في الطرف المقابل – بأنه ناتج عن أسلحتهم. التفتّ نحو الكابتن لأخبره بأنه لا يوجد أحد داخل المنارة، فوجدته يجلس في الركن الأيسر من البرج، مغمض العينين ورأسه مائل على صدره، وهو يغالب النعاس في إرهاق واضح. فتح عينيه فجأة، وأحكم قبضته على سلاحه. قال وهو يحاول البقاء مستيقظـًا:

– سوف تبقى هنا، إلى أن تأتيك أوامري بالنزول. ليس لديهم موقع أفضل من ذاك ليطلقوا منه رصاصاتهم القاتلة، بدقة بالغة.

فور انتهائه من قول ذلك، أغمض عينيه ثانيَة، وغط في نوم عميق وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.

انطلقت بضعة رصاصات من الجهة المقابلة، وعبرت بجواري في البرج، قبل أن يستقر بها المقام بين الأشجار الواقعة خلف الخنادق.

قلت لنفسي لو أن رصاصة منها انحرفت بضعة سنتيمترات فقط عن مسارها، لأصابتني في منتصف رأسي بالضبط، ولاندفع الدم مني على الحائط ورائي. كل ما سيتبقى مني هو بقعة حمراء على الجدار. تمامًا كما حدث مع "بادي بيستون" و"بروتوس بولزاي" و"بريك جونسون"، الذين لا تزال دماؤهم تزين جنبات البرج.

رغم أزيز الرصاص، لم يُبدِ "هوك" أي انزعاج، وظل قابعًا في ركنه، يتحدث بصوت خافت:

- لقد انسحب الجيش الرسمي، لكنني بقيت لأنني رجلٌ وطني. كيف يقدر الإنسان على مغادرة بلده بهذه السهولة؟ حتى لو لم تعد بلدًا بالمعنى المتعارف عليه، ولم تعد دولة. حسنـًا، ستنسحب، ولكن شعبك سيظل باقيًا هنا؛ أي جندي ستكون دون شعب؟ عدد كبير من زملائي، ممن ينتمون لهذه الأرض، مواطنو هذه البلد، توجهوا إلى الشمال بكل بساطة، وهم يرددون أناشيد دول أخرى. بعد فترة، حين حاصرتهم الهزيمة في كل حروبهم الشمالية، أرسلوا طلبات يترجون فيها العودة. عادوا بالفعل، لكنهم لم يرجعوا كعساكر، وإنما كرُتب عليا مهمة، بل وتم ترقية عدد كبير منهم.

أضاف بمرارة:

- أصبحوا كلهم في منتهى الوطنية. هكذا، دون سابق إنذار! ورغم أنني رفضت مغادرة بلدي، ورغم أنني لم أرحل معهم بعد أن نهبوا قواعد الجيش ومعسكراته، وكأنها تتبع دولة معادية، ها أنا أمامك، مجرد قائد، "كابتن" مثلما يقولون، لا أكثر ولا أقل! أمَّا هم، فقد أصبح اثنان منهما يحملان رتبة "جنرال"، بل إن أحدهما صار رئيس القوات المشتركة! واتضح أن الوطنية هي أن تفر من بلدك، وتترك ناسك، ثم تعود إليهم مطرودًا من هناك بعد سلسلة من الهزائم، وتدخلها دخول الفاتحين المنتصرين! اللعنة!! هؤلاء السادة يجلسون الآن في قواعدهم العسكرية، يوزعون أوامرهم على من هم أقل منهم رتبة. لا يفعلون أكثر من ذلك. أما أنا، فكما ترى بعينيك، أهرول بين الخنادق

والأنفاق كشخص أبله، وأحاول إثبات نفسي. اللعنة! اللعنة عليهم جميعًا! عليّ أن أثبت نفسي، مرة تلو الأخرى. ما هذه الحماقة؟!

استطرد، بمرارة أكبر:

- هذا هو الوضع دائمًا، الأغنياء يدّعون الوطنية، والفقراء يموتون بدلًا منهم.

أردف قائلًا:

- لم يعودوا يعرفون كيف ينطقون أوامرهم بلغتهم الأم، التي هجروها. جميع أولاد الكلب هؤلاء يتحدثون الآن اللغات الأجنبية، ولغة الجيش القديم الذي لم يعد موجودًا أصلًا!

ضرب فردتيّ حذائه ببعضهما، وكأنه ينفض عنهما ما علق بهما من تراب، ثم قال:

- ماذا أقول لك؟ الحمقى وحدهم هم الذين يموتون فداء مبادئهم.

ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة، لم أستطع تحديد إن كانت تعبّر عن الفرح أم الحزن. أضاف:

- نعم، أنا أحمق. أعترف بذلك. لكنني لن أموت دون أن أخوض المعركة حتى نهايتها.

واصل ضرب الحذائين ببعضهما، وهو يزفر في ضيق، ثم سألني بغتة:

- هل أنت متزوج؟

نظرتُ إليه بطرف عيني اليسرى، التي فتحتها للحظة، لأرى سبب إمالته لبندقيته. أجبته بالنفي، وأنا أواصل مراقبة منارة المسجد عبر النهر، بالعدسة المكبرة لسلاحي.

انهمر الرصاص على جدار البرج، من الجهة الأخرى، بغزارة، كأنه أسرابٌ من النحل. احتفظ "هوك" بابتسامته العجيبة، وهو يصب لعناته عليهم، وأخيرًا قال:

- أنا متزوج. لديّ طفلان؛ بنتٌ وولد. كانت زوجتي موظفة مدنية تابعة للقوات المسلحة. حين انسحب الجيش، غادرتْ معهم مصطحبــًة الصغيرين. لا زلت أتذكر ما حدث، عادت إلى المنزل ذات ليلة، ومعها ضابطان، أعرفهما جيدًا، إنهما منا، لكنهما خانا الوطن وباعاه بمنتهى السهولة؛ ما علينا، على أي حال، جاءا معها وصوّبا أسلحتهما نحوي، إلى أن انتهت من جَمع ملابسها الداخلية، والـ"رولو" الخاص بشعرها، وجميع حاجيات الصغيرين. وضعت كل شيء داخل حقائب كبيرة، وغادرت وهي تجرجر الطفلين. لو كنت أملك قنبلة في تلك اللحظة، لما ترددت في تفجير نفسي أمامهم جميعًا، لأثبت لهم وطنيتي. أولئك الخونة أولاد الحرام. كنت سأقتل نفسي، وأنا أسمع صوت إبنيّ وهما يبكيان بحرقة وينزلان السلم بخطوات متثاقلة. سمعتها هي أيضًا، وهي تأمرهما بصوت مرتفع بالإسراع، وإلا فإنها سترحل دونهما، وتتركهما للدبابة التي ستأتي لتدوس الناس. لقد كانت مقتنعة حقًا بأن دبابة واحدة كفيلة بالقضاء على البلد والشعب، الذي ستهرس أفراده تحت عجلاتها المسننة. مرت أعوام كثيرة منذ رأيتهما لآخر مرة تلك الليلة، لا بد أنهما قد أصبحا كبيرين الآن.

"ماريا" على مشارف الصبا، في الأغلب، و"فيليب" في الصف الثالث الإبتدائي، إن كان يذهب للمدرسة.

أسند رأسه إلى الحائط مرة أخرى، وقال بصوت متعب:

– لم يتم الطلاق بشكل رسمي، بيني وأمهما، عليها اللعنة! أظن أننا لسنا مطلقان حتى هذه اللحظة. لا أدري حقيقـةً.

سكت لفترة، ثم قال:

– ما أردت قوله حقـًا هو أنني أرجو ألا تكون غاضبًا مني لإصراري على أن تنضم إلى مقاتلينا. أنا بحاجة إليك. علاقتنا قديمة جدًا، رغم أننا لم نتقابل كثيرًا في السنوات الأخيرة. لقد فقدت أغلب رجالي، على هذه الجبهة الملعونة، بسبب القنَّاص الموجود في الجهة المقابلة. أنت الوحيد الذي يقدر على مواجهة ذلك الحقير. حين كنتَ في نادي "فالانكس" للرماية، كنت تستطيع حفر شكل زهرة الربيع على الهدف، برصاصاتك. أعتقد أنك لا تزال تمتلك هذه الموهبة، ويمكنك من خلالها القضاء على ابن الحرام ذاك، على الضفة الأخرى من النهر.

قفز من مكانه فجأة، وهبّ واقفـًا بجواري. استطعت سماع أنفاسه الثقيلة، المتأثرة بالربو، وأخيرًا قال:

– اسمعني جيدًا، أعلمُ أنك مؤلف، وأعرف جيدًا ما كتبته، وما قاله عنك ذلك الناقد فيما بعد. فليذهب ذلك الكتاب، وكل شيء مرتبط به إلى الجحيم. اهتم فقط بدورك هنا، وقم به على أكمل وجه، وبحماس، وانتقم لنفسك. تخلص من كل ما يؤذيك. كل إنسان منا، مرّ بمأزق أو موقف محرج. أنا أكثر من يدرك ذلك.

أضاف بعد برهة:

– حسنًا، أرغب في أن أنبّهك لأمر واحد فقط، إيّاك أن تكتب عني كلمة واحدة! سأطلق عليك رصاصة مقابل كل حرف تذكرني فيه، ولا تفكر حينها في الهرب، لأنني سأعثر عليك أينما كنت. أنا غير موجود على الإطلاق. هل فهمت؟

ضحك وهو يغالب لهاثه، وقال:

– أنا خيارة!

نزل السلم الحلزوني للبرج، وأغلق الباب الخشبي خلفه، وهرول بين أشجار الكمثرى، ثم اختفى خلف نصب البطل المجهول.

بعد ذلك يا "دورنتينا"، لم يظهر أحد في منارة المسجد لثلاثة أيام متوالية. في النهار الرابع، أي صباح هذا اليوم، أرسل "هوت هيد هوك" فتى أشعث الهيئة ليستلم مناوبة المراقبة مني.

غادرت برج الكنيسة وتوجهت إلى المعسكر. لم أجد فيه سوى "إيكو لاودماوث" فقط، الذي جلس يعدّ الأموال التي استولى عليها في اليوم السابق. حين لمحني، هزّ طرفيّ شاربه وغمز بعينه، قبل أن يدسّ النقود في جيب صديريته بحركة خاطفة؛ ودون أن أسأله، صارحني بأنه بفضل المبلغ الذي بحوزته الآن، سوف يتمكن أخيرًا من الهجرة إلى جزيرة ما، حيث سيبني فندقـًا صغيرًا، يحضر له عددًا من الفتيات كي يعملن لحسابه فقط. قال بأنه سيمضي بقية أيامه في ممازحتهن وضربهن على مؤخراتهن، وهو يحصي أرباحه. أضاف بسعادة:

– ستكون أجمل أيام عمري!

في تلك اللحظة، تذكرت الأوراق التي بحوزتي، فأخرجت له منها ملكية فندق "زيفاجو" الذي تركته لي خالتي، وناولته إياه. أخبرته بأنه ليس بحاجة إلى الإستيلاء على أموال الناس من بيوتهم المهجورة.

- هاك، أنا أمنحك فندقـًا على أجمل شواطىء جزيرة "سينتيلي"، يحتوي على ثلاثين غرفة. يمكنك أن تبدأ مشروعك بعشر فتيات مثلًا، في الفترة الأولى.

ظهرت الدهشة على وجه "إيكو لاودماوث". نقل نظراته الذاهلة بين صك ملكية الفندق، والفراشة التي ظهرت فجأة وأخذت تطير حول رأسه.

لم يعرف كيف يتصرف بتلك الورقة، فراح يقلبها بين أصابعه، ثم أخذ يتشممها، ويتحسسها بشاربه. رفعها باتجاه الشمس، وتمعن فيها طويلًا. أخيرًا، نظر حوله متلصصًا، يمنـًة ويسرة، وطواها بسرعة ثم وضعها بخفة داخل جيب صديريته، بجوار النقود.

أراد أن يحضنني، ولكن عند اقترابه مني يا "دورنتينا"، سارعت بالإبتعاد ودخول الكنيسة.

عقب خروجي من الكنيسة، كان "هوك" يعتلي قاعدة نصب الجندي المجهول، التي يستخدمها أحيانًا لمراقبة الجناح الجنوبي للجبهة. رأيته ينظر إلى النهر، وهو يردد سبابًا فاحشًا شديد البذاءة. حين لمحني، أنزل المنظار المكبر عن عينيه، وقفز على الحشائش، وأشار لي بأن أتبعه. سرت وراءه بين القبور. أحسست بأن هناك من يراقبني. أحنيت ظهري قليلًا، ووضعت إصبعي على الزناد، وفي نيتي أن أطلق النار بشكل عشوائي، دون تحديد هدف. لن تصدقي ما رأيت يا "دورنتينا". كانت هي، وجهها المحفور على الرخام الأسود ينظر لي

بابتسامة عريضة، كتلك التي كانت على وجهها دومًا، قبل وقوعها في النهر. أحسست بأنها ترغب في إخباري شيئـًا، أو لعلها كانت تنتظر أن أقول أنا شيئًا.

قفز "هوك" داخل الخندق، فتبعته. اصطدم كتفي بكتفه. أبلغني القائد بأنه قبل دقائق قليلة، أطلق أحد القناصين – من جانبكم يا "دورنتينا" – النار على "إيكو لاودماوث"، وهو يقضي حاجته جالسًا وراء أسوار المقبرة، دون أن يدرك أنه عند تلك النقطة تحديدًا يبدأ السور في الإنحناء، موفرًا مساحة فارغة يسهل إصابة من فيها بيُسر.

وحسبما قاله "هوك"، فإن الجنود حين عثروا على نائبه "لاودماوث"، كان لا يزال جالسًا على نفس الوضعية، ممسكـًا بورقة ما بإحدى يديه، ومتشبثـًا بشجيرة ريحان، باليد الأخرى.

استمعت إلى وصف القائد، وأنا أتخيل "لاودماوث" منغمسًا كليًة في عملية الإخراج، لدرجة عدم اهتمامه مطلقـًا بما يجري حوله.

حين نجح العساكر، أخيرًا، في جرّه من تلك البقعة، وجدوا أن الرصاصة التي أصابته في فمه لم تخرج من رأسه، وإنما من مؤخرته.

هكذا انتهت حياة "إيكو لاودماوث" وهو نظيف الأمعاء، مرتاح البال، ومسرور. كان سعيدًا يا "دورنتينا" بسبب ورقة ملكية فندق "زيفاجو" التي تمسّك بها حتى آخر لحظة في حياته. ظل يقبض عليها بين أصابعه، حتى حين جرّه الجنود على الأرض، وأدخلوا جثته الكنيسة.

رحل "لاودماوث" قبل أن أصارحه بأنني أعرف الإتفاق الذي تمّ بينه ووالديّ؛ فقبل أن يرميا بنفسيهما تحت عجلات القطار، قاما بإعطائه مبلغـًا من المال وأوصياه بأن يبتاع لي به شقة سكنية في العاصمة؛ لكنه عوضًا عن ذلك قام بشراء ملهى ليلي، على الجانب الآخر من النهر، تعمل فيه ثماني داعرات. وحين بدأ هذا الأمر، أيًا ما كان؛ حرب أهلية، مواجهات مسلحة، لا أدري، لم يعد بإمكانه أن يدخل ناديه، ولا أن يطأ الضفة الأخرى أصلًا. قامت جماعتكم بربط الحارسين اللذين عهد إليهما "لاودماوث" بحراسة المكان، إلى عمودين كبيرين داخل المحل، وأحاطوا جسديهما بأصابع الديناميت، ثم قاموا بتفجيرهما وهدم الملهى. لم يبق شيء من المبنى. ما عرفته بعد ذلك، أنه جاء إلى الجبهة هنا رغبـَة في الإنتقام من جماعتكم بأي صورة.

لم أقل له أبدًا بأنني وجدت في حقيبة اليد الخاصة بأمي، والتي أعادتها لنا الشرطة بعد الحادث، ورقة تحمل إمضاءه تفيد بحصوله على مبلغ مالي ضخم من والديّ. لم يعطني أي جزء منه، ولم يظهر ندمه على فعلته تلك، بأي طريقة.

عاهدت نفسي بأنني إن حضرت جنازته، فسوف أحرص على رمي حفنة من التراب على تابوته، لأعلمه بأني أعرف ما فعله بشأن ميراثي من أبويّ. نعم، سأفعل ذلك. حتى يستمر ضميره في تأنيبه، إلى اللحظة التي يدرك فيها أنه ميت بالفعل.

سار الكابتن أمامي بخطوات سريعة. من خلفي، لاحقتني نظرات "بلوسوم". وصلنا بعد دقائق إلى هنا، حيث أقف الآن، خلف الساتر الترابي. أبلغني "هوك" بأن مهمتي تنحصر في القضاء على القنَّاص الذي قتل ثمانية من جنودنا خلال اليومين الماضيين.

قال "هوك" بلهجة حازمة:

- إما هو، أو أنت.

ثم غادر مسرعـًا.

لم يبق لي الآن سوى توديع قلبي المليء بالغرام والعشق، وهذه النباتات ذات الأزهار الوردية التي تتراقص أمامي. الشمس لا تزال هنا، تعتلي بقايا القلعة المهدّمة. هل سأعرفكِ إن رأيتكِ يومًا ما؟ سيكون كل منا، على الأرجح، مجرد ذكرى في حياة الآخر؛ لكن الذكرى تحل محل الحب أحيانًا، أليس كذلك؟

لن نكون سوى ذكرى.

وبمناسبة الذكرى، ها أنا في لحظاتي الأخيرة تلح على خاطري ورشة الكتابة في "آيوا"، أو "فاتوس ديدلـّـي" تحديدًا، وتلك القصيدة التي نظمها في العذراء الجميلة وحبيبها الفارس الذي عاد من عالم الموتى ليحملها على حصانه ويرتحل بها إلى موطنها. قبل يومين من سفره، تمشينا معًا في الحديقة الكبيرة الملحقة بسكن الطلبة. قصّ عليّ حكاية الرجل الحكيم الذي عاش في قريتهم الفقيرة. اعتاد الرجل أن يجلس تحت شجرة كبيرة، في صمت تام، رافعًا ناظريه إلى السماء. علق "ديدلـّـي":

- لم نعرف أبدًا فيمَ كان يفكر، لأنه لم ينطق أي كلمة أبدًا، لكننا تعاملنا معه على أنه قديس. سعد الناس حين توصلوا لهذه النتيجة، لأنها منحتهم قدرًا من الشجاعة والتوحد مع أفكاره المقدسة.

نحن أيضًا يا "دورنتينا" يجب أن نؤمن بأن هناك قديس بيننا، بإمكانه التواصل مع رب السموات.

لا أدري إن كانت تلك السحابة الصغيرة قد مرت تحت الشمس حقـًا، أم إنني تخيلت ذلك. لعلها مجرد ذكرى، والذكرى بديل الحب.

ورائي، من داخل الخندق، أسمع صوت أنفاس "هوك". جاء على الأغلب ليرى إن كنتُ لا أزال على قيد الحياة.

# الخاتمة

تقف الشمس أعلى القلعة المتهدمة، بينما أدير بندقيتي القنَّاصة عبر النهر. و هناك، أراها؛ هي أيضًا تسدّد نظرها نحوي، تراقبني من قبل أن أكتشف وجودها. أفكر بأنه كان بإمكانها أن تقتلني متى شاءت. أتنفس بصعوبة بين الحشائش التي ترتفع أمامي، كمياه عكرة ثقيلة. تنطلق في قلبي خفقة قوية، داخل قميصي المموّه، كجرادة تثب وثبة عالية.

تراقبني بدورها. عينها الكبيرة في زرقة السماء فوقي، أراها عبر العدسة بوضوح تامّ، حتى أنني أستطيع رؤية الدمع المتجمّع في زاوية جفنها. أدرك حينها أنها ظلت تراقبني بعين مفتوحة، دون أن تغمضها مرّة.

حين أحدّد هدفي بالضبط، أغمض عيني اليسرى. تبقى هي عينها مفتوحة، رغم أنها لا تستطيع رؤيتي بها. إنها بعيدةُ جدًّا. ألمح شعرها الأشقر الذي يتساقط حولها كحقول من الزهور الربيعية الصفراء. لا أستطيع تحديد أين تبدأ هذه الحقول وأين تنتهي.

– كان بإمكانك أن تقتليني قبل أن أجدك هنا وسط هذه الزهور اللانهائية.

أكرّر:

– الزهور اللانهائية.

تغمضين عينكِ وتفتحينها سريعًا، كما لو كنتِ تصدّقين على كلامي. كأنكِ كنتِ تقرأين شفاهي.

أخبرك:

- أنا ألمح إصبعكِ على الزناد. نفس وضعية إصبعي. أنا متأكّد أن بإمكانك أن تطلقي الرصاص عليّ، بنفس السهولة التي يمكنني فيها إطلاق رصاصتي عليكِ. أعرف أنه يمكنك رؤيتي كما لو كنت أقف أمامكِ مباشرًة، تحت أشعة الشمس اللامعة، الهائمة على بقايا القلعة. الزمن يمرّ عبر أعيننا كشيء غريب، غير مألوف، كالماضي.

أعيدها عليكِ ثانيًة:

- الماضي.

تبتسمين بنوعٍ من التحدّي. تستخفين باختياري لكلماتي. أتحدّث بصوت هامس بالطبعٍ؛ دون صوت ربما. أفتح فمي فقط. أراقب الرعشة الخفيفةً في الجانب الأيسر من شفتيكِ. كأنكِ تفهمين. كأنكِ تشعرين بالأسى حيالي.

أقول، بينما لا زلتِ تنظرين إليّ عبر عدسة بندقيتك:

- سوف أطلق عليكِ اسم "دورنتينا".

يمكنك فهم ما أقول عن طريق حركة شفتاي. شعركِ يفيض بالزهور الصفراء، كأنها تنبت منكِ ومن حولك، حتى في الهواء المحيط بك. أكرّر مرة أخرى، بصوت أعلى قليلًا هذه المرة، وأنا أضغط على الحروف ببطء:

- سوف أطلق عليكِ اسم "دورنتينا".

تبتسمين وتغمضين عينك اليسرى، وتفتحينها على الفور. هذا يعني موافقتك. أقول:

- أنتِ موافقة!

أسمع خرير الجدول القريب الذي ينبع من داخل القلعة. سوف يمرّ بكِ في طريقه للنهر الفاصل بيننا. أنصت إلى صوت الماء الهادىء، كما لو أنني في حلم، وأتحوّل إلى قاصّ للحكايات، فالحياة – كما أخبركِ – هي في الأصل قصة يتم سردها.

أظلّ أكرّر:

- قصّة.. قصّة.

أرى أنكِ تتابعينني. تقرأين شَفَتَيّ. وهناك تلك الابتسامة ثانيَة، بينما لا يزال أصبعك على الزناد، في استعدادٍ تامّ.

- كم يمرّ الزمن سريعًا يا "دورنتينا" !

أضيف:

- الزمن! ومع ذلك، لا شيء يتغيّر. إن نزلتُ باتجاه الجدول لأصل إليكِ، سوف تلقي جماعتكِ القبض عليّ. وإن أتيتِ أنتِ إليّ، عبر الجدول المارّ بقربك، سوف تلقي جماعتي القبض عليكِ.

تكررين إغماض عينكِ وفتحها، ما يعني تأييدك لي فيما قلته.

أنتِ تعرفين كل شيء بالفعل يا "دورنتينا". النهر يعبر من تحتنا دون توقف. النهر ذاته الذي حملها بعيدًا ذات مرّة، في هدوء بالغ، كما لو كانت سرًّا؛ وحين التفتّ لم أرَ سوى قبعتها وهي تتقافز على الأمواج وتطلق ضحكاتها المتوالية. كانت القبعة تضحك، بينما ظلّ النهر مستمرًا في جريانه دون توقف، كما يفعل الآن.

أراقب ابتسامتكِ الحزينة، وأنا أدعوكِ لزيارة النهر عقب حلول الليل.

أقول لكِ:

- النهر.

لكنني أشعر بغتّةً بركلة قوية في كعب حذائي، وبطرف عيني اليسرى ألمح شخصًا ينبطح على الأرض بجواري. لا بدّ أنكِ ترينه الآن يا "دورنتينا". انظري. أتعرّف على نظارته المعظمة وأنفه المعقوف. إنه "هوت هيد هوك".

يسألني بغلظة:

- ماذا تنتظر؟ أطلق النار.

في بادىء الأمر، لا أرى شيئًا، ثم أراكِ تنظرين إليّ بعينيكِ الإثنتين في الوقت نفسه، بدهشة بالغة، وكأنك غير مصدقة. خصلات شعرك تتناثر أمامكِ. صُفرة زهور الربيع تتحول إلى اللون الأحمر القاني، لون الدم.

يظهر الأكتع، لثوانٍ قليلة، في القلعة، ثم يختفي.

فراشتنا البيضاء تحط أمام عدسة بندقيتي وترفرف بجناحيها.

هل ترينني يا حبيبتي؟ هل ترين ذلك يا نور عيني؟ إنها فراشتنا. يمكنني الآن أن أصارحكِ بأن لا شيء حقيقي. الأمر بأكمله مجرد كذبة يا "دورنتينا". كنت أسرد عليكِ روايتي، التي استعرت أحداثها المختلفة من كل ما استطعت وضع يدي عليه، وكل ما طاف بخيالي، لأجعلها تبدو حقيقية وواقعية، كما علمني "ستيف ليبتوف" خلال محاضرات الكتابة الإبداعية في "آيوا".

الأمر بأكمله كذبة، كما قلت، عداكِ أنتِ وشعرك المسترسل حولك.

هناك حصان، في مكان ما، يشعر بالأسى حيالنا.

خطوات "هوت هيد هوك" المتسارعة تتردد بين جنبات الخندق. يتناهى إلى سمعي صوت أنفاسه العليلة، التي تذكرني بالفئران.

الشمس لا تزال ترسل أشعتها اللامعة، وأنا أفكر بأنني لا زلت على قيد الحياة، لكن لا يوجد أحد ليؤكد لي ذلك.

لا يوجد أي أحد يا "دورنتينا"!

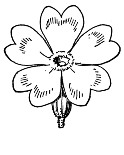

## صدر في سلسلة #كتب_مختلفة:

| | | |
|---|---|---|
| 1. أرامل الخميس | كلاوديا بينيرو | الأرجنتين |
| 2. كلي لك | كلاوديا بينيرو | الأرجنتين |
| 3. مشروع زوجة | جرايم سيمسيون | أستراليا |
| 4. الثلاثة | سارة لوتز | إنجلترا |
| 5. شركة الحب المحدودة | أندريه سنار ماجنسون | أيسلندا |
| 6. احترس من جوعي | لوتشانا كاستيلينا | إيطاليا |
| 7. لم يعد الحب مناسبًا | ميلا فينتوريني | إيطاليا |
| 8. سارق الجثث | باتريسيا ميلو | البرازيل |
| 9. السيمفونية البيضاء | أدريانا ليسبوا | البرازيل |
| 10. مقبرة البيانو | جوزيه لويس بايشوتو | البرتغال |
| 11. صانع الملائكة | شتيفان بريجش | بلجيكا |
| 12. مخاوفي السبعة | سلافيدين أفيدتش | البوسنة |
| 13. جامع الكتب | جوستابو فابيرون باترياو | بيرو |
| 14. أبسنت | أيفر تونش | تركيا |
| 15. خطايا الأبرياء | برهان سونماز | تركيا |
| 16. أحلام محطمة | بيولانت سينوكاك | تركيا |
| 17. ارحل قبل أن أنهار | تونا كيرميتشي | تركيا |
| 18. امرأة صديقي | تونا كيرميتشي | تركيا |
| 19. الصلوات تبقى واحدة | تونا كيرميتشي | تركيا |
| 20. مينتا | سولماز كاموران | تركيا |
| 21. ديستينا | ماين كيركانات | تركيا |
| 22. نساء اسطنبول | مجموعة قصصية | تركيا |
| 23. توباز | هاكان جنيد | تركيا |
| 24. لون الغواية | هاندي ألتايلي | تركيا |
| 25. الشيطان امرأة | هاندي ألتايلي | تركيا |
| 26. ديتوكس | سوزانا برابتسوفا | التشيك |
| 27. حدث في كراكوف | بيترا هولوفا | التشيك |
| 28. كل هذا ملكي أنا | بيترا هولوفا | التشيك |
| 29. سرادق طائر البطريق | إميل هاكل | التشيك |
| 30. كافكا | فرانز كافكا | التشيك |
| 31. المواطن فانيك | فاتسلاف هافل | التشيك |

| | | |
|---|---|---|
| 32. المبعدون | أوجنين سباهيتش | الجبل الأسود |
| 33. امرأة للبيع | أورشولا كوفاليك | سلوفاكيا |
| 34. خلف طاحونة الجبل | مجموعة قصصية | سلوفاكيا |
| 35. ربيع البربر | يوناس لوشر | سويسرا |
| 36. بكين.. بكين | شيو تسي تشين | الصين |
| 37. مصباح أبدي | يركسي هولمانبيك | الصين |
| 38. رقصة الكاهنة | جين رينشوين | الصين |
| 39. المغفل | إريك نويوف | فرنسا |
| 40. المجاعة البيضاء | آكي أوليكانين | فنلندا |
| 41. النسيان | إيكتور آباد | كولومبيا |
| 42. القنّاص | بلايز ماينفسكي | مقدونيا |
| 43. الواحد والعشرون | توميسلاف عثمانلي | مقدونيا |
| 44. إلينج | إنجفار أمبيورنسون | النرويج |
| 45. صيف بارد جدًا | روي ياكوبسن | النرويج |
| 46. جوي سبيدبوت | تومي فيرينيجا | هولندا |
| 47. العشاء | هيرمان كوخ | هولندا |

## كتب عامّة مترجمة:

| | | |
|---|---|---|
| 48. هاربون من الموت | فولفجانج باور | ألمانيا |
| 49. قانون التسامح | هوبرتس هوفمان | ألمانيا |
| 50. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟ | جيرالد هوتر | ألمانيا |
| 51. الهاشميون وحلم العرب | روبرت ماكنمارا | أمريكا |
| 52. الصراع الطبقي في أفريقيا | ليو زيليج | أمريكا |
| 53. الهندي الأحمر الأيسلندي | جون جنار | أيسلندا |
| 54. يوميات صحفية إيطالية | جوفانا لوكاتيلي | إيطاليا |
| 55. قوة المستضعفين | فاتسلاف هافل | التشيك |
| 56. أوروبيانا | باتريك أورشادنيك | التشيك |
| 57. الثورة التشيكية | مجموعة مؤلفين | التشيك |
| 58. ذكريات الصين | تشين يو | الصين |
| 59. جابو | أوسكار بانتوخا | كولومبيا |
| 60. الجري | ثور جوتاس | النرويج |
| 61. عقول مريضة | دوي درايسما | هولندا |